

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (١١)

تهذيب

روضة المحبين ونزهة المشتاقين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم


تهذيب
روضة المحبين ونزهة المشتاقين

ح مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، سلطان بن ناصر

تهذيب روضة المحبين ونزهة المشتاقين./ سلطان بن ناصر الناصر - ط١ . .-

الرياض، ١٤٤٤هـ

٢٦٨ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨-٣٨-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨

١ - الحب ٢- الإسلام والمجتمع ٣- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٢,٤ ١٤٤٤/٤٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة



info@ataat.com.sa

٠٠٩٦٦ ٥٥٩٢٢٢٥٤٣

@ataat11

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م

توزيع

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الرقم الموحد: 920000908

الفاكس: 011-2702719

0551523173

daralhadarah@hotmail.com

@daralhadarah

متجر دار الحضارة

daralhadarah.net



سِلْسِلَة تَهْذِيبِ كُتُبِ الإِمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة (١١)

تَهْذِيبُ رَوْضَةِ المُحِبِّينَ وَنُزْهَةِ المُشْتَاقِينَ

لِلإِمَامِ العَلَّامَة شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ المَعْرُوفِ بِابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إِعْدَادُ

د. سُلْطَان بْن نَاصِر النَّاصِر

إِشْرَافُ

عَطَاءَاتُ العِلْم





تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن «**عطاءات العلم**» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية، ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولًا لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت «**عطاءات العلم**» منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية، صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «**عطاءات العلم**» عنايتها واهتمامها؛ فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها، ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ

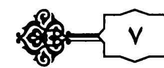
منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب، وتهذيبها، واختصارها بمنهج علمي محكم، يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل، والرد علىٰ المخالفين، ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لـ «**عطاءات العلم**»)، وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع. والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عَطَاءَاتُ العِلْم



مقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية»، المولود سنة ٦٩١، والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها وورودُها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل؛ ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، ومن أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل،

وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يأتي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول، ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل، ولم تثبت في التهذيب؛ نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق؛ لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يأتي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم، وبارك فيها، وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سُلطان بن نَاصِر النَّاصِر

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: ٥

ربِّ يسِّر يا كريم

المقدمة

الحمدُ لله الذي جعلَ المحبَّةَ إلىٰ الظفرِ بالمحبوبِ سبيلًا، ونصبَ طاعته والخضوعَ له علىٰ صدق المحبَّة دليلًا، وحرَّك بها النفوسَ إلىٰ أنواع الكمالات إيثارًا لطلبها وتحصيلًا، وأودَعها العالم العُلْوِيَّ والسُّفليَّ لإخراج كمالِه من القوة إلىٰ الفعل إيجادًا وإمدادًا وقبولًا، وأثارَ بها الهِمَمَ السامية والعَزَماتِ العاليةَ إلىٰ أشرفِ غاياتِها تخصيصًا لها وتأهيلًا. فسبحانَ من صَرَّفَ عليها القلوبَ كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرجَ بها ما خلقَ له كلَّ حيٍّ بحكمته، وصَرَّفَها أنواعًا وأقسامًا بين بَرِيَّتِه، وفصَّلها تفصيلًا، فجعل كلَّ محبوبٍ لمُحِبِّه نصيبًا، مُخطِئًا كان في محبَّته أو مُصِيبًا، وجَعله بحبِّه منعَّمًا أو قتيلًا. فقَسَّمَها بين محبِّ الرحمن، ومحبِّ الأوثان، ومحبِّ النيران، ومحبِّ الصُّلبان، ومحبِّ الأوطان، ومحبِّ الإخوان، ومحبِّ النِّسوان، ومحبِّ الصبيان، ومحبِّ الأثمان، ومحبِّ الإيمان، ومحبِّ الألحان، ومحبِّ القرآن. وفَضَّلَ أهلَ محبتِه ومحبةِ كتابِه ورسولِه علىٰ سائر المحبين تفضيلًا، فبالمحبة وللمحبة وُجِدَتِ الأرضُ والسموات، وعليها فُطِرَتِ المخلوقاتُ، ولها تحرَّكت الأفلاكُ الدائرات، وبها وَصَلتِ الحركاتُ إلىٰ غاياتِها، واتَّصلتْ بداياتُها بنهاياتِها، وبها ظَفِرتِ النفوسُ بمطالبها، وحَصَلتْ علىٰ نَيْلِ مَآرِبها، و تَخلَّصَتْ من مَعَاطِبِها، واتخذت إلىٰ ربها سبيلًا، وكان لها دونَ غيرِه مأمولًا وَسُولًا، وبها نالتِ الحياةَ الطيبةَ، وذاقتْ طعم الإيمان لمَّا رَضِيَتْ بالله ربًّا

وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُقرٍّ بربوبيتِه، شاهدٍ بوحدانيتِه، مُنقادٍ إليه بمحبَّته، مُذْعِنٍ له بطاعتِهِ، معترفٍ بنعمتِه، فارٍّ إليه من ذنبه وخطيئته، مُؤَمِّلٍ لعفوِه ورحمتِهِ، طامعٍ في مغفرته، بريءٍ إليه من حَوْلِه وقوَّتِه، لا يَبْغِيْ سِواه ربًّا، ولا يتخذ من دونه وليًّا ولا وكيلًا، عائذٍ به، مُلْتَجٍ إليه، لا يرومُ عن عبوديتِه انتقالًا ولا تحويلًا. وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وخِيَرَتُه من خَلْقِه، وأمينُه علىٰ وَحْيِه، وسَفِيرُه بينه وبينَ عبادِه، أقربُ الخَلْقِ إليه وسيلةً، وأعظمُهم عنده جاهًا، وأَوْسَعُهُم لديه شفاعةً، وأحبُّهم إليه، وأكرمُهم عليه.

أرسله للإيمان مناديًا، وإلىٰ الجنة داعيًا، وإلىٰ صراطه المستقيم هاديًا، وفي مَرْضَاتِهِ ومَحَابِّه ساعيًا، وبكل معروفٍ آمرًا، وعن كل منكرٍ ناهيًا.

فصلَّىٰ الله وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ عباده المؤمنين عليه، كما وحَّد الله، وعرَّف أمتَه به، ودعا إليه، صلاةً لا تَرُومُ عنه انتقالًا ولا تحويلًا، وعَلَىٰ آلِه الطيبين، وصحبه الطاهرين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ، فإن الله - جلَّ ثناؤُه، وتقدَّستْ أسماؤُه - جعل هذه القلوبَ أوعيةً، فخيرُها أوعاها للخير والرشاد، وشرُّها أوعاها للغَيِّ والفساد، وسلَّط عليها الهوىٰ، وامتحنها بمخالفته لتنالَ بمخالفته جنَّةَ المأوىٰ، ويستحقَّ من لا يَصْلُحُ للجنة بمتابعته نارًا تلظَّىٰ، وجعله مَرْكَبَ النفسِ الأمارة بالسوء وقُوتَهَا وغذاءَها، وداءَ النفس المطمئنة ومخالفتَه دَواءَها، ثم أوجب سبحانه علىٰ العبد في هذه المدة القصيرة - التي هي بالإضافة إلىٰ الآخرة كساعةٍ من نهار، أو كبَلَلٍ ينالُ الإصبعَ حين

يُدخِلها في بحرٍ من البحار[١] - عصيانَ النفس الأمارة، ومجانبةَ هواها، ورَدَعَها عن شهواتها التي في نيلها رَدَاها، ومَنَعَها من الركون إلىٰ لذاتها، ومطالبةِ ما استدعتْه العيونُ الطامحةُ بلحظاتها؛ لتنالَ نصيبَها من كرامتِه وثوابِه موفَّرًا كاملًا، وتلتذَّ آجلًا بأضعاف ما تَركَتْه لله عاجلًا، وأمرَها بالصيام عن محارمه؛ ليكون فطرُها عنده يومَ لقائِه، وأخبرها أنَّ معظمَ نهار الصيام قد ذهب، وأنَّ عيدَ اللقاءِ قد اقترب، فلا يَطولُ عليها الأمدُ باستبطائه.

فمَـا هـي إلا سَـاعةٌ ثـمَّ تَنْقَضِـي   ويَـذهـبُ هَـذا كُـلُّـه ويَـزُولُ

هيَّأها لأمرٍ عظيم، وأعدَّها لخَطْبٍ جَسيم، وذَخَرَ لها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ من النعيم المقيم[٢]. واقتضَتْ حكمتُه البالغةُ أنَّها لا تَصِلُ إليه إلا من طريق المَكاره والنَّصَب، ولا تَعبُرُ إليه إلا عَلَىٰ جِسْرِ المشقَّةِ والتَّعب، فحَجَبه بالمكروهات صِيانةً له عن الأنفس الدنيّات، المُؤْثِرة للرذائل والسُّفليَّات، وشمَّرت إليه النفوسُ العُلْويَّات، والهممُ العليّات، فامتطَتْ في السير إليه ظهورَ العَزَمات، فسارت في ظهورها إلىٰ أشرف الغايات.

أجابوا مُناديَ الحبيب لمَّا أذَّن بهم حيّ علىٰ الفلاح، وبذلوا نفوسَهم في مرضاتِه بذلَ المُحِبِّ بالرضا والسَّماح، وواصلوا السيرَ إليه بالغدوِّ والرَّواح، فحمِدوا عند الوصول مَسْرَاهم، وإنما «يَحْمَدُ القومُ السُّرىٰ عند الصَّباحِ»[٣]. تعبوا قليلاً، فاستراحُوا طويلًا، وتركوا حقيرًا، واعتاضوا عظيمًا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (٢/ ٣).



وضعوا اللذةَ العاجلةَ والعاقبةَ الحميدةَ في ميزان العقل، فظهرَ لهم التفاوت، فرأوا من أعظم السَّفه بيعَ الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذةٍ ساعةٍ تذهبُ شهوتُها، وتبقىٰ شقوتُها.

فصل

ثمرة العقل هو النظر في العواقب

وهذا ثمرةُ العقل الذي به عُرِفَ اللهُ ﷻ، وأسماؤُهُ، وصفاتُ كماله، ونعوتُ جلاله، وبه آمن المُؤْمِنُون بكتبِه ورُسلِه ولقائِه وملائكته، وبه عُرِفَتْ آياتُ ربوبيته، وأدلةُ وحدانيته، ومعجزاتُ رسله، وبه امْتُثِلَتْ أوامرُه، واجْتُنِبَتْ نواهيه. وهو الذي يَلْمَحُ العواقبَ فرَاقبَها، وعَمِلَ بمقتضىٰ مصالحها، وقاوم الهوىٰ، فردَّ جيشَه مفلولًا، وساعدَ الصبرَ حتىٰ ظَفِرَ به بعد أن كانَ بسهامه مقتولًا، وحثَّ عَلَىٰ الفضائل، ونهىٰ عن الرذائل، وَفتَقَ المعاني، وأدركَ الغوامضَ، وشَدَّ أَزْرَ العزم، فاستوىٰ علىٰ سُوقه، وقَوَّىٰ أَزْرَ الحزم حتىٰ حَظِي من الله بتوفيقه، فاستجلبَ ما يَزينُ، ونفىٰ ما يَشينُ، فإذا تُرِكَ وسلطانه أسرَ جنودَ الهوىٰ، فحصرَها في حبس **«مَنْ تركَ لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه»**[1]، ونهَض بصاحبه إلىٰ منازل الملوك، إذا صيَّر الهوىٰ المَلِكَ بمنزلة العبد المملوك، فهو شجرةٌ عُروقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُهَا العِلْم، وورقها حسن الخُلُقِ، وثمرها الحكمة، ومادَّتها توفيق مَنْ أَزِمَّة الأمور بيديْه، وابتداؤُها منه وانتهاؤُها إليه.

وإذا كان هذا وصفه، فقبيحٌ أن يُدال عليه عدوُّه، فيعزِلَه عن مملكته، ويَحُطَّه عن رتبته، وَيَسْتَنْزِلَه عن درجته، فيُصبحَ أسيرًا بعد أنْ كان أميرًا، ومحكومًا عليه بعد

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٦٣). وإسناده صحيح.

أن كان حاكمًا، وتابعًا بعد أن كان متبوعًا، ومَنْ صبرَ علىٰ حكمه أرتَعَه في رياض الأماني والمُنَىٰ، ومن خرجَ عن حكمه أوردَه حِياضَ الهلاك والرَّدَىٰ.

قال علي بن أبي طالب[1] رضي الله عنه: **لقد سبقَ إلى جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاةً، ولا صيامًا، ولا حجًّا، ولا اعتمارًا، ولكنهم عقلوا عن الله مواعظَه، فوجِلَتْ منه قلوبُهم، واطمأنتْ إليه نفوسُهم، وَخَشَعَتْ له جوارحُهم، ففاقوا الناسَ بطيب المنزلة، وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة.**

وقال عمر بن الخطاب[2] رضي الله عنه: ليس العاقلُ الذي يعرفُ الخيرَ من الشر، ولكنه الذي يعرف خيرَ الشرَّين.

وقالت عائشة[3] رضي الله عنها: قد أفلحَ من جعلَ اللهُ له عقلاً.

وقال ابن عباس[4] رضي الله عنهما: وُلد لكسرىٰ مولودٌ، فأحضَرَ بعض المؤدِّبينَ، ووَضَعَ الصَّبيَّ بين يديه، وقال: ما خيرُ ما أُوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يُولد معه. قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيشُ به في الناس. قال: فإن لم يكنْ؟ قال: فصاعقةٌ تُحرِقُه.

وقال الحسن[5]: لا يَتِمُّ دينُ الرجل حتىٰ يَتمَّ عقلُه، وما أودع الله امرأً عقلاً إلا استنقذه به يومًا.

وقال بعضُ الحكماء: من لم يكن عقلُه أغلبَ الأشياء عليه كان حتفُه وهلاكُه في أحبِّ الأشياء إليه.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (ص٧).

(٢) كما في «العقد الفريد» (٢/ ٢٤٦)، و«ذم الهوىٰ» (ص٧).

(٣) «ذم الهوىٰ» (ص٨).

(٤) الخبر عن ابن عائشة في «ذم الهوىٰ» (ص٨).

(٥) «ذم الهوىٰ» (ص٩).

وقيل لعبد الله بن المبارك[1]: ما أفضلُ ما أُعطيَ الرجلُ بعد الإسلام؟ قال: غريزةُ عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل. قيل: فإن لم يكنْ؟ قال: موتٌ عاجل. وفي ذلك قيل:

ما وهبَ الله لامرئٍ هبَةً ... أحسنَ من عَقْله ومن أَدَبِهْ

هما جمالُ الفتى فإنْ فُقِدا ... فَفَقْدُه للحَياة أجملُ بِهْ

العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيا

فصل

وإذا كانت الدولة للعقل سالَمَهُ الهوىٰ، وكان من خَدَمِهِ وأتباعِهِ، كما أنَّ الدولةَ إذا كانت للهوىٰ صارَ العقلُ أسيرًا في يديْه، محكومًا عليه. ولمَّا كان العبدُ لا ينفكُّ عن الهوىٰ ما دامَ حيًّا - فإنَّ هواه لازمٌ له - كان الأمرُ بخروجه عن الهوىٰ بالكليَّة كالممتنع. ولكنَّ المقدور له والمأمور به أن يَصرِفَ هواه عن مَراتعِ الهلَكَةِ إلىٰ مواطن الأمن والسَّلامة.

مثاله: أنَّ الله ﷻ لم يأْمرْه بصرف قلبه عن هوىٰ النساء جملةً، بل أمره بصرف ذلك الهوىٰ إلىٰ نكاح ما طابَ له منهنَّ من واحدةٍ إلىٰ أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرىٰ الهوىٰ من محلٍّ إلىٰ محل، وكانت الريحُ دَبورًا، فاستحالت صَبًا. وكذلك هوىٰ الظفر والغلبة والقهر، لم يأْمر بالخروج عنه، بل أمرَ بصرفه إلىٰ الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرعَ له من أنواع المغالبات بالسِّباق وغيره مما

(١) أخرجه عنه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٧).

يُمرِّنه ويُعِدُّه للظَّفر. وكذلك هوىٰ الكِبْر والفخر والخُيَلاء مأْذونٌ فيه بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله.

وقد رأىٰ النبيُّ ﷺ أبا دُجانةَ سِمَاكَ بن خَرَشَة الأنصاريَّ يتبخترُ بين الصفين، فقال: «**إنها لَـمِشْيَةٌ يُبغِضُها الله إلا في مثل هذا الموطن**»[١]. وقال: «**إنَّ من الخُيَلاء ما يُحِبُّها الله، ومنها ما يُبغِض الله، فالتي يُحِبُّها اختيالُ الرجل في الحرب، وعند الصَّدقة**» وذكر الحديث[٢].

فما حَرَّم الله على عباده شيئًا إلا عوَّضهم خيرًا منه، كما حَرَّم عليهم الاستقسامَ بالأزلام، وعوَّضهم منه دعاءَ الاستخارة، وحرَّم عليهم الرِّبا، وعوَّضهم منه التجارةَ الرابحة، وحرَّم عليهم القمار، وأعاضَهم منه أكلَ المال بالمسابقة النافعة في الدِّين، بالخيل والإبل والسِّهام، وحرَّم عليهم الحريرَ، وأعاضَهم منه أنواعَ الملابس الفاخرة من الصُّوف والكَتَّان والقطن، وحرَّمَ عليهم الزِّنا واللِّواط، وأعاضَهم منهما بالنكاح والتَّسَرِّي بصنوف النساء الحسان، وحرَّم عليهم شُربَ المسكر، وأعاضَهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرَّمَ عليهم سماعَ آلات اللهو من المَعَازف والمَثاني، وأعاضَهم عنها بسماع القرآن العظيم والسَّبع المَثاني، وحرَّم عليهم الخبائثَ من المطعومات، وأعاضَهم عنها بالمطاعم الطيبات.

ومن تلمَّحَ هذا وتأمَّلَه هانَ عليه تركُ الهوى المُرْدِيْ، واعتاضَ عنه بالنافع المُجْدي، وعَرفَ حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته على عباده فيما أمرَهم به ونهاهم عنه وأباحه لهم، وأنه لم يأمرْهم بما أمرَهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم عمَّا نهاهم

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٥٠٨). وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/ ٧٨).

عنه بخلًا منه عليهم، بل أمرهم بما أمرَهم إحسانًا منه ورحمةً، ونهاهم عما نهاهم عنه صِيانةً لهم وحِمْيَةً.

فلذلك وضعنا هذا الكتابَ وَضْعَ عَقد الصلح بين الهوىٰ والعقل، وإذا تمَّ عقدُ الصُّلح بينهما سَهُل علىٰ العبدِ محاربةُ النفس والشيطان، والله المستعان، وعليه التُّكلان. فما كان فيه من صَوابٍ فمن الله، فهو المُوَفِّقُ له والمُعِينُ عليه، وما كان فيه من خطأ فمِنِّي ومن الشيطان، واللهُ ورسولُه من ذلك بريئانِ.

وقد جعلتُه تسعةً وعشرين بابًا:

الباب الأوّل: في أسماء المحبة.

الباب الثاني: في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها.

الباب الثالث: في نسبة هذه الأسماء بعضها إلىٰ بعض.

الباب الرابع: في أنَّ العالم العلوي والسُّفلي إنما وُجِدَ بالمحبة ولأجلها.

الباب الخامس: في دواعي المحبة ومتعلَّقِها.

الباب السادس: في أحكام النظر وغائلته وما يَجنِي علىٰ صاحبه.

الباب السابع: في ذكر مناظرة بين القلب والعين.

الباب الثامن: في ذكر الشُّبَهِ التي احتجَّ بها من أباحَ النظر إلىٰ من لا يَحِلُّ له الاستمتاعُ به، وأباحَ عشقَه.

الباب التاسع: في الجواب عما احتجَّتْ به هذه الطائفة، وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج.

الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافِه وكلام النَّاس فيه.

الباب الحادي عشر: في العشق، وهل هو اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار، أو أمرٌ اختياريٌّ؟ واختلاف الناس في ذلك، وذكر الصواب فيه.

الباب الثاني عشر: في سكرة العشَّاق.

الباب الثالث عشر: في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان.

الباب الرابع عشر: فيمن مدحَ العشقَ وتمنَّاه، وغَبَطَ صاحبَه علىٰ ما أُوتِيَه من مُناه.

الباب الخامس عشر: فيمَن ذمَّ العشق وتبرَّم به، وما احتجَّ به كلُّ فريقٍ علىٰ صحَّة مذهبه.

الباب السادس عشر: في الحكم بين الفريقين، وفصل النزاع بين الطائفتين.

الباب السابع عشر: في استحباب تخيُّر الصُّورة الجميلة للوصال الذي يُحِبُّه اللهُ ورسولُه.

الباب الثامن عشر: في أنَّ دواءَ المحبين في كمالِ الوِصال الذي أباحه ربُّ العالمين.

الباب التاسع عشر: في ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه علىٰ كل حال.

الباب العشرون: في علامات المحبة وشواهدها.

الباب الحادي والعشرون: في اقتضاء المحبَّة إفرادَ الحبيب بالحبِّ، وعدمَ التشريكِ بينه وبين غيره فيه.

الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين علىٰ أحبابهم.

الباب الثالث والعشرون: في عفاف المحبين مع أحبابهم.

الباب الرابع والعشرون: في ارتكاب سبيلَيِ الحرام، وما يُفضِي إليه من المفاسد والآلام.

الباب الخامس والعشرون: في رحمة المحبين، والشفاعة لهم إلىٰ أحبابهم في الوِصال الذي يُبيحه الدين.

الباب السادس والعشرون: في ترك المحبين أدنىٰ المحبوبَيْنِ رغبةً في أعلاهما.

الباب السابع والعشرون: فيمن ترك محبوبَه حرامًا، فبُذِل له حلالًا، أو أعاضَه الله خيرًا منه.

الباب الثامن والعشرون: فيمن آثَرَ عاجلَ العقوبة والآلام، علىٰ لذَّة الوِصال الحرام.

الباب التاسع والعشرون: في ذمِّ الهوىٰ، وما في مخالفته من نَيلِ المُنىٰ.

وسمَّيتُه: «**روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين**».

والمرغوبُ إلىٰ من يَقِفُ علىٰ هذا الكتاب أن يَعذِرَ صاحبَه، فإنه علَّقه في حال بُعْدِه عن وطنه، وغَيبته عن كتبه، فما عسىٰ أن يبلغ خاطرُه المكدود وسعيُه المجهود، مع بضاعته المُزْجاة التي حقيقٌ بحاملها أن يُقال فيه: «تَسمعُ بالمُعَيْدي خيرٌ من أن تراه»[1]. وها هو قد نَصبَ نفسَه هدفًا لسهام الراشقين، وغَرَضًا لأسِنَّةِ

(١) انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ١٢٩).

الطَّاعنينَ، فلقارئه غُنْمُه، وعَلَىٰ مؤلفه غُرْمُهُ. وهذه بضاعتُه تُعرَضُ عليك، ومَوْلِيَّته تُهدَىٰ إليك، فإنْ صَادفتْ كفؤًا كريمًا لن تَعْدَم منه إمساكًا بمعروفٍ أو تسريحًا بإحسان، وإن صَادفتْ غيرَهُ فالله المستعان، وعليه التُّكلان.

وقد رضي من مهرها بدعوةٍ خالصةٍ إنْ وافقتْ قبولًا واستحسانًا، وَبِرَدٍّ جميلٍ إن كان حظُّها احتقارًا واستهجانًا. والمنصفُ يَهَبُ خطأَ المخطئ لإصابته، وسيئاتِه لحسناتِه.

فهذه سُنَّة الله في عباده جزاءً وثوابًا. ومَن ذا الذي يكون قولُه كلُّه سديدًا، وعملُه كلُّه صوابًا؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ، ونطقُه وحيٌ يُوحىٰ، فما صحَّ عنه فهو نقلٌ مُصدَّق عن قائل معصوم، وما جاءَ عن غيره فثبوتُ الأمرين فيه مَعدومٌ، فإن صحّ النقل لم يكن القائلُ معصومًا، وإن لم يصحَّ لم يكن وصوله إليه معلومًا.

فصل

فائدة كتاب المؤلف لجميع طبقات الناس

وهذا الكتاب يَصلُح لسائر طبقات الناس، فإنه يَصلُح عونًا علىٰ الدِّين وعلىٰ الدُّنيا، ومرقاةً للذة العاجلة ولذة العُقْبىٰ، وفيه من ذكر أقسام المحبَّة، وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها، وأسبابها وموانعها، وما يُناسب ذلك من نُكَتٍ تفسيرية، وأحاديثَ نبوية، ومسائلَ فقهية، وآثارٍ سَلَفية، وشواهدَ شعرية، ووقائعَ كونية، ما يكونُ مُمْتِعًا لقارئه، مُرَوِّحًا للناظرِ فيه، فإن شاءَ أوسَعَه جِدًّا، وأعطاه ترغيبًا وترهيبًا، وإن شاءَ أخذَ من هزله ومُلَحه نصيبًا، فتارةً يُضحِكُه،

وتارةً يُبكيه، وطورًا يُبعِدُه من أسباب اللذة الفانية، وطورًا يُرغّبه فيها ويُدنيه. فإنْ شئتَ وجدته واعظًا ناصحًا، وإن شئت وجدتَه بنصيبك من اللذة والشهوة ووَصْلِ الحبيب مُسامحًا.

وهذا حين الشروع في الأبواب، والله سبحانه الفاتحُ من الخير كلَّ باب، وهو المسؤول سبحانه أن يجعلَه خالصًا لوجهه الكريم، مُدنِيًا من رضاه والفوز بجنَّات النعيم، والله متولي سريرةِ العبد وكَسْبِه، وهو سبحانه عند لسان كل قائلٍ وقلبه. ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الباب الأول
في أسماء المحبة

ص: ٢٥

لما كانَ إلْفُهم لهذا المُسمَّىٰ أكثرَ، وهو بقلوبهم أعلقُ، كانت أسماؤُه لديهم أكثر. وهذا عادتُهم في كل ما اشتدَّ إلْفُهم له، أو كَثُر خُطُورُه علىٰ قلوبهم؛ تعظيمًا له، أو اهتمامًا به، أو محبةً له. فالأوّل: كالأسد، والسيف. والثاني: كالداهية، والثالث: كالخمر. وقد اجتمعتْ هذه المعاني الثلاثةُ في الحبِّ، فوضعوا له قريبًا من ستين اسمًا:

المَحَبَّة، والعلاقة، والهَوىٰ، والصَّبْوة، والصَّبابة، والشَّغَف، والْوَجْد، والكَلَف، والتَّتيُّم، والعِشق، والشَّوق، والغَمَرَات، والاكتئاب، والوَصَب، والحُزْن، والوُدّ، والخُلَّة، والغَرَام، والهُيَام، والوَلَهُ، والتعبُّد.

وقد ذُكِر له أسماءٌ غير هذه، وليست من أسمائه، وإنما هي من مُوجباته وأحكامه، فتركنا ذكرَها.



الباب الثاني
في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

ص: ٢٧

فأمَّا المحبَّة، فقيل: أصلُها الصفاء؛ لأنَّ العربَ تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

وقيل: بل هي مأْخوذة من الحَبِّ جمع حَبَّة، وهو لُبَاب الشيء وخالصُه وأصلُه، فإنَّ الحَبَّ أصلُ النبات والشجر.

وقيل: بل هي مأخوذةٌ من حَبَّة القلب وهي سُوَيْدَاؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك؛ لوصولها إلىٰ حَبّة القلب، وذلك قريبٌ من قولهم: ظَهَره: إذا أصاب ظَهْره، وَرَأَسَه: إذا أصاب رأْسَه، ورآه: إذا أصاب رِئَته، وبَطَنَه: إذا أصاب بَطْنَه، ولكن في هذه الأفعال وصل أثرُ الفاعل إلىٰ المفعول، وأمَّا في المحبة فالأثر إنما وصل إلىٰ المُحِبّ.

وبَعْدُ، ففيه لغتان: حَبَّ، وأَحَبَّ، ولكن في جانب الفعل واسم الفاعل غلَّبوا الرباعي، فقالوا: أحبّه، يُحِبّه، فهو مُحِبٌّ، وفي المفعول غلَّبوا فَعَل، فقالوا في الأكثر محبوبٌ، ولم يقولوا مُحَبٌّ إلا نادرًا وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنىٰ المحبوب، قد استعملوه بمعنىٰ المُحِبِّ وأما الحِبُّ بكسر الحاء فلغة في الحُبِّ، وغالب استعماله بمعنىٰ المحبوب.

وفي إعطائهم ضمَّة الحاء للمصدر وكسرتها للمفعول سرٌّ لطيف، فإنَّ الكسرةَ أخفُّ من الضمة، والمحبوبُ أخفُّ علىٰ قلوبهم من نفس الحُبّ، فأعطَوُا الحركَةَ الخفيفة للأخفِّ، والثقيلَةَ للأثقل. ويُقال: أَحَبَّهُ حُبًّا ومحبّةً، والمحبَّة أُمُّ هذه الأسماء.

فصل

وأما كلامُ النَّاس في حدِّها فكثير. فقيل: هي الميل الدائم بالقلب الهائم. وقيل: إيثار المحبوب علىٰ جميع المصحوب. وقيل: موافقة الحبيب في المَشهد والمَغيب. وقيل: اتِّحاد مُراد المحبِّ ومراد المحبوب. وقيل: إيثار مُراد المحبوب علىٰ مُراد المحبِّ.

وقيل: عَمَىٰ القلب عن رؤية غير المحبوب، وصَمَمُهُ عن سَمَاع العَذْل فيه، وفي الحديث: «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي وَيُصِمّ» رواه الإمام أحمد[1].

وقيل: هي مصاحبة المحبوب عَلىٰ الدوام، كما قيل:

ومن عَجَبٍ أنّي أحِنُّ إليهمُ ... وأسأَلُ عنهمْ مَن لَقِيتُ وهمْ معي

وتَطلُبُهُم عَيني وهم في سَوَادِهَا ... ويشتاقُهم قلبي وهمْ بينَ أضلُعي

وقيل: هي حضور المحبوب عند المحبِّ دائمًا، كما قيل:

خيالُكَ في عيني وذِكرُكَ في فمي ... ومَثْواكَ في قلبي فأين تَغِيبُ

---

(١) في «مسنده» (٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠)، وأبو داود (٥١٣٠). وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٢) عن أبي الدرداء موقوفًا، وإسناده صحيح.

معنى العلاقة

فصل

وأما العَلاقة، وتُسمَّىٰ العَلَقَ بوزن الفَلَق، فهي من أسمائها.

وقد عَلِقَهَا بالكسر وعَلِقَ حبُّها بقلبه؛ أي: هَوِيَهَا. وعَلِق بها عُلوقًا. وسميت عَلاقةً؛ لتعلُّق القلب بالمحبوب.

معنى الهوى

فصل

وأما الهوىٰ: فهو ميلُ النفس إلىٰ الشيء، وفعله: هَوِيَ، يَهوَىٰ، هَوًىٰ، مثل: عَمِيَ، يَعْمَىٰ، عَمًىٰ.

وأكثر ما يُستعمل في الحبّ المذموم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]. ويُقال: إنما سمي هوًىٰ؛ لأنه يهوي بصاحبه. وقد يُستعمل في الحبِّ الممدُوح استعمالًا مقيَّدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِـمَا جِئْتُ بِهِ**»[١].

وفي الصحيحين[٢] عن عُروة قال: كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللاتي وهَبْنَ أنفسهن للنبي ﷺ، فقالت عائشة ﵂: أما تستحي المرأة أنْ تَهَبَ نفسَها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥١] قلتُ: يا رسول الله! ما أرىٰ ربَّك إلا يُسارعُ في هواكَ.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥). وصححه النووي في «الأربعين» (٤١).

(٢) البخاري (٥١١٣)، ومسلم (١٤٦٤).

فصل

معنى الصبوة

وأما الصَّبْوة والصِّبا: فمن أسمائها أيضًا، وأصل الكلمة من الميل، يقال: صَبا إلىٰ كذا، أي: مال إليه، وسُمِّيَت الصَّبْوة بذلك؛ لميل صاحبها إلىٰ المرأة الصبِيَّة.

فصل

معنى الصبابة

وأما الصَّبابة: فقال في الصحاح[1]: هي رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صَبٌّ: عاشقٌ مشتاق.

فصل

معنى الشغف

وأما الشَّغَف: فمن أسمائها أيضًا. قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]. قال الجوهري[2] وغيره: والشَّغَاف: غِلاف القلب، وهو جلدةٌ دونه كالحجاب، يقال: شَغَفَه الحبُّ، أي: بَلغَ شَغَافَه.

---

(١) (١/ ١٦١).

(٢) في «الصحاح» (٤/ ١٣٨٢).

فصل

وأما الوَجْد: فهو الحبُّ الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُستعمل الوَجْدُ في الحزن، وأما إطلاق اسم الوَجْد علىٰ مجرَّد المحبة فغير معروف، وإنما يطلق علىٰ محبَّةٍ معها فَقْدٌ يُوجب الحزن.

فصل

وأما الكَلَف: فهو من أسماء الحبِّ أيضًا، يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر، أي: أُولِعتُ به فأَنا كَلِفٌ به.

فصل

وأما التَّتَيُّم: فهو التعبُّد، قال في الصحاح[1]: تَيْمُ الله أي عبدالله، وأصله من قولهم: تيَّمه الحبُّ؛ إذا عبَّده وذلَّله، فهو مُتيَّم.

فصل

وأما العشق: فهو أميرُ هذه الأسماء وآخِيَّتُها، وقلَّما وَلِعَت به العرب، وكأنهم ستروا اسمَه، وَكَنَوْا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يُفْصحوا به، ولا تكاد تجده في شعرهم القديم، وإنما أُولع به المتأخرون.

---

(١) (٥/ ١٨٧٩).

ولم يقع هذا اللفظ في القرآن، ولا في السُّنَّة إلا في حديث سُوَيد بن سَعِيد، وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالىٰ.

قال في الصحاح[١]: العِشْق: فَرْط الحبِّ، وقد عشقها عِشْقًا، مثل: عَلِمَ عِلْمًا، وقال الفرَّاء: العشق نبتٌ لَزِجٌ، وسُمِّيَ العشق الذي يكون من الإنسان لِلصُوقهِ بالقلب. وقال ابن الأعرابي: العَشَقَةُ: اللبلابة تخضرُّ، وتصفرُّ، وتَعْلَق بالذي يليها من الأشجار، فاشتقّ من ذلك العاشق.

وقد اختلف الناس هل يُطْلَق هذا الاسم في حقّ الله تعالىٰ؟[٢] فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثرًا لا يثبتُ، وفيه: «فإذا فعلَ ذلك عَشِقَني وعَشِقتُه»[٣].

وقال جمهور الناس: لا يُطْلَقُ ذلك في حقِّه سبحانه، فلا يُقال: إنه يَعْشَق، ولا يقال: عَشِقَه عبدُه.

ثم اختلفوا في سبب المنع علىٰ ثلاثة أقوال:

أحدها: عدم التوقيف، بخلاف المحبة.

الثاني: أنَّ العشقَ إفراطُ المحبَّة، ولا يمكن ذلك في حق الربِّ تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ لا يُوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبدُه ما يستحقُّه من حبِّه، فضلًا أن يُقالَ: أفرطَ في حبّه.

---

(١) (٤/ ١٥٢٥).

(٢) انظر كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٣١). وقد اعتمد عليه المؤلف ولخَّصه هنا.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٣١).

الثالث: أنه مأخوذ من التغيُّـر، كما يُقال للشجرة المذكورة عاشقة، ولا يُطلق ذلك علىٰ الله سبحانه.

فصل

معنى الشوق

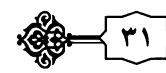
وأما الشوق: فهو سفرُ القلب إلىٰ المحبوب، وقد وقعَ هذا الاسم في السُّنَّة، ففي المسند[1] من حديث عمَّار بن ياسر، أنه صلَّىٰ صلاةً، فأوجزَ فيها، فقيل له: أوجزتَ يا أبا اليقظان! فقال: لقد دعوتُ فيها بدَعواتٍ سَمِعْتُهنَّ من رسول الله ﷺ يدعو بِهنَّ: «**اللهم بعلمكَ الغيبَ، وقُدرتكَ علىٰ الخلق، أحْيِني إذا كانتِ الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقِّ في الغضب والرِّضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغِنىٰ، وأسألك نعيمًا لا يَنْفَد، وأسألك قرّةَ عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذَّة النظر إلىٰ وجهك، والشوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة، اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مُهتدين**».

وبعدُ: فهذه اللفظة من أسماء الحبِّ، قال في الصحاح[2]: الشوق والاشتياق: نِزاع النفس إلىٰ الشيء. يقال: شَاقَنِي الشيءُ يَشُوقُني فهو شائقٌ وأنا مَشُوْق، وشوَّقني، فتشوَّقتُ: إذا هيَّجَ شوقَكَ.

---

(١) (٤/ ٢٦٤). وأخرجه أيضًا النسائي (٣/ ٥٤، ٥٥)، وإسناده حسن.

(٢) (٤/ ١٥٠٤).



فصل

هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟

واختلف أرباب الشوق: هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟ فقالت طائفةٌ: يزول، فإنَّ الشوقَ سفرُ القلب إلىٰ المحبوب، فإذا وصلَ إليه انتهىٰ السفر.

وأَلقتْ عَصَاها واستقرَّ بها النَّوَى كما قَـرَّ عَيْنًا بالإيابِ المسافِرُ

وقالت طائفة: بل يزيدُ بالقرب واللقاء، واستدلوا بقول الشاعر:

وأعظـمُ مـا يكـونُ الشـوقُ يومًا إذا دَنَـتِ الـخِيَـامُ مـن الـخِيَـامِ

قالوا: ولأن الشوقَ هو حُرقة المحبَّة والتهابُ نارها في قلب المُحبِّ، وذلك مما يزيدُه القربُ والمواصلةُ.

والصوابُ أنَّ الشوقَ الحادثَ عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذي كان عند الغَيْبة عن المحبِّ.

فصل

معنى الغمرات

وأما الغَمَرَات: فهي جمع غَمْرَة، **والغَمْرَةُ: ما يَغْمُرُ القلبَ من حبٍّ أو سُكرٍ أو غفلة. قال الله تعالى:** ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ - ١١] **أي: في غفلة قد غَمَرَت قلوبهم. وقال تعالى:** ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] ومنه: الماء الغَمْر الكثير الذي يُغطِّي من دخلَ فيه، ومنه: غَمَرَات الموت، أي: شدائده، وكذلك غَمَرَات الحبّ، وهو ما يُغطِّي قلبَ المحبِّ فيَغْمُرُه.

معنى الاكتئاب

فصل

وأمَّا الاكتئاب: فهو افتعالٌ من الكآبةِ، وهي سوء الحال، والانكسار من الحزن، والكآبة تتولَّدُ من حصول الحبِّ وفوتِ المحبوب، فتحدُثُ بينهما حالةٌ سيِّئة تُسمَّىٰ الكآبة.

معنى الوصب

فصل

وأمَّا الوَصَبُ: فهو ألمُ الحُبِّ ومرضُه، فإنَّ أصلَ الوَصَب: المرض، وفي الحديث الصحيح[1]: «**لا يُصِيبُ المؤمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلا وَصَبٍ حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».

ووصَب الشيءُ يَصِبُ وُصُوبًا: إذا دامَ، تقول: وَصَب الرجلُ علىٰ الأمر: إذا داومَ عليه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] أي: الطاعة دائمةً.

معنى الحزن

فصل

وأمَّا الحُزْن: فقد عُدَّ من أسماء المحبَّة، والصَّواب أنَّه ليس من أسمائها، وإنَّما هو حالة تحدُثُ للمحبِّ، وهي ورود المكروه عليه، وهو خلاف المسرَّة. ولما كان الحُبُّ لا يخلو من ورود ما لا يَسُرُّ علىٰ قلب المحبِّ كان الحزن من لوازمه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

وفي الحديث الصحيح[1]: أنَّ النبي ﷺ كان يقول: «**اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَن، وَالعَجْزِ والْكَسَل، وَالجُبْنِ وَالبُخْل، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجال**».

فاستعاذَ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان. فالهمُّ والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الحزن، وإن كان لما يُستقبل فهو الهمُّ. والعجز والكسل قرينان، فإنَّ تخلُّفَ العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل. والجبنُ والبخل قرينان، فإنَّ الرجل يُراد منه النفعُ بماله أو ببدنه، فالجبَان لا يَنفعُ ببدنه، والبخيلُ لا يَنفعُ بماله. وضَلَعُ الدَّين وَغَلَبة الرجال قرينان، فإنَّ قهرَ الناس نوعان: نوعٌ بحقٍّ، فهو ضَلَع الدَّين، ونوعٌ بباطل، فهو غَلَبَةُ الرِّجال.

وقد نفىٰ الله سبحانه عن أهل الجنَّة الخوفَ والحزنَ، فلا يحزنون علىٰ ما مضىٰ، ولا يخافون ممَّا يأتي، ولا يطيبُ العيش إلا بذلك، والحبُّ يلزمه الخوف والحزن.

فصل

معنى الود

وأمَّا الودُّ: فهو خالصُ الحبّ وألْطَفُه وأرَقُّه، وهو من الحبِّ بمنزلة الرأفة من الرحمة.

قلت: الوَدُود من صفات الله ﷻ، أصله من المَوَدَّة، واختُلِفَ فيه علىٰ قولين:

فقيل: هو وَدودٌ بمعنىٰ وادٍّ، كضَـرُوبٍ بمعنىٰ ضارب، وقَتُولٍ بمعنىٰ قاتلٍ،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦).

ونؤُومٍ بمعنىٰ نائم، ويشهدُ لهذا القول: أنَّ فَعُولًا في صفات الله سبحانه بمعنىٰ فاعلٍ، كغفور بمعنىٰ غافر، وشكورٍ بمعنىٰ شاكر، وصبورٍ بمعنىٰ صابر.

وقيل: بل هو بمعنىٰ مَوْدُود وهو الحبيبُ، وبذلك فسَّره البخاري في صحيحه[1]، فقال: الوَدود: الحبيبُ.

والأوَّل أظهرُ؛ لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سرٌّ لطيف، وهو: أنَّه يحبُّ عبدَه بعد المغفرة، فيغفرُ له ويحبُّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتائب حبيبُ الله. فالودُّ: أصفىٰ الحبِّ وألطفُه.

فصل

وأمَّا الخُلَّة: فتوحيدُ المحبَّة، فالخليل هو الذي يُوَحِّدُ حبَّه لمحبوبه، وهي مرتبةٌ لا تقبلُ المشاركة، ولهذا اختصَّ بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمدٌ صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ الله اتَّخذني خَلِيلًا كمَا اتخَذَ إبْراهيمَ خَلِيلًا»**[2].

وفي الصحيح[3] عنه ﷺ: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأرْض خَلِيلاً لاتَّخذتُ أبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمنِ»**.

وفي الصحيح أيضًا[4]: **«إنِّي أَبْرَأُ إلىٰ كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ»**.

---

(١) انظر: «الصحيح مع الفتح» (٨/ ٦٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).
(٤) ضمن الحديث السابق برواية أخرىٰ.

ولمَّا كانت الخُلَّة مرتبةً لا تقبل المشاركة؛ امتحنَ الله سبحانه إبراهيمَ الخليل بذبح ولده لمَّا أخذَ شعبةً من قلبه، فأرادَ سبحانه أن يخْلِصَ تلك الشعبة له، ولا تكون لغيره، فامتحنَه بذبح ولده، والمراد ذَبحُه من قلبه، لا ذَبْحُه بالمُدْيَة، فلمَّا أسلما لأمر الله، وقدَّم محبَّة الله تعالى عَلَى محبة الولد؛ خَلَصَ مقام الخُلَّة، وَفُدِيَ الولدُ بالذِّبْح.

وقيل: إنَّما سُمِّيت خُلَّةً لتخلُّل المحبَّة جميعَ أجزاء الرُّوح، قال:

قد تخلَّلتِ مَسْلَكَ الرُّوح مِنِّي ... وبِذَا سُمِّي الخليلُ خَليلا

وقد ظنَّ بعضُ مَنْ لا علمَ عنده: أنَّ الحبيبَ أفضلُ من الخليل، وقال: محمَّدٌ حبيبُ الله، وإبراهيمُ خليلُ الله. وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرة:

منها: أنَّ الخُلة خاصةٌ، والمحبَّة عامَّة، فإنَّ الله يحبُّ التَّوابين، ويحبُّ المتطهِّرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومنها: أنَّ النبيَّ ﷺ نفىٰ أن يكونَ له من أهل الأرض خليل، وأخبرَ أنَّ أحبَّ النِّساء إليه عائشة، ومن الرجال أبوها[1].

ومنها: أنه قال: «**إنَّ الله اتَّخَذَني خلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إبرَاهيمَ خَليلًا**»[2].

ومنها: أنَّه قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤). (٢) سبق تخريجه (ص٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٤، ٣٦٥٧)، ومسلم (٢٣٨٢).

معنى الغرام

فصل

وأمَّا الغرام: فهو الحبُّ اللازم، يُقال: رجلٌ مُغرمٌ بالحبِّ؛ أي: قد لزمه الحبُّ. وأصلُ المادة من اللزوم، ومنه قولهم: رجلٌ مُغْرَمٌ، من الغُرْم أو الدَّيْنِ. قال في الصحاح(١): والغَرَام: الوَلوع، وقد أُغْرِمَ بالشيء، أي: أُولِعَ به، ومن المادة قوله تعالىٰ في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

ولِلُطْفِ المحبَّة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يُطلِقون عليها لفظَ الغرام، وإن لهِجَ به المتأخرون.

معنى الهيام

فصل

وأما الهُيام: فقال في الصِّحاح(٢): هام عَلَىٰ وجهه، يَهِيمُ هيمانًا وهَيْمًا: ذهبَ من العِشْق أو غيره. وقلبٌ مُستهام أي: هائم. والهُيام بالضم: أشدُّ العطش. والهُيَامُ كالجنون من العشق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] هي الإبل العِطَاش.

معنى الوله

فصل

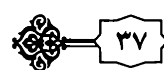
وأمَّا الوَلَهُ فقال في الصِّحاح(٣): الوَلَهُ: ذهابُ العقل، والتحيُّرُ من شدَّة الوَجْد.

---

(١) (٥/١٩٩٦).

(٢) (٥/٢٠٦٣).

(٣) (٦/٢٢٥٦).



فصل

معنى التعبد

وأمَّا التعبُّد: فهو غاية الحبِّ بغاية الذلِّ، يقال: عبَّده الحبُّ أي: ذلَّله. وطريقٌ معبّدٌ بالأقدام؛ أي: مُذَلَّلٌ، وكذلك المحبُّ قد ذلَّله الحبُّ ووطَّأه، ولا تصلُحُ هذه المرتبة لأحد غير الله ﷻ ولا يَغفِرُ الله سبحانه لمن أشركَ في عبادته، ويغفرُ ما دون ذلك لمن شاء.

فمحبَّة العبودية هي أشرفُ أنواع المحبَّة، وهي خالصُ حقِّ الله عَلَىٰ عباده، وفي الصحيح[1] عن مُعاذ أنه قال: كنتُ سائرًا مع رسول الله ﷺ فقال: «**يا معاذ!**» فقلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ! قال: ثمَّ سارَ ساعةً، ثم قال: «**يا معاذ!**» قلت: لَبَّيْكَ رسولَ الله وسعديك! ثم سارَ ساعةً فقال: «**يا معاذ!**»، قلت: لبيكَ رسولَ الله وسعديك! قال: «**أتدري ما حَقُّ الله علىٰ عباده؟**» قلت: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «**حقُّه عليهم أن يعبدوه لا يُشركوا به شيئًا. أتدري ما حقُّ العباد عَلَىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يُعذِّبهم بالنار**».

وقد ذكرَ الله سبحانه رسولَه بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام التحدِّي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، **وقال في مقام الإسراء:** ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، **وقال في مقام الدعوة:** ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وإذا تدافع أولو العزم الشفاعةَ الكبرىٰ يوم القيامة يقول المسيحُ لهم: «**اذهبوا**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٧، ٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠).

إلىٰ محمدٍ، عبدٍ غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[١]، فنالَ ذلك المقام بكمال العبودية لله، وكمال مغفرة الله له. فأشرفُ صفاتِ العبد صفة العبودية، وأحبُّ أسمائه إلىٰ الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أحبُّ الأسماء إلىٰ الله عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمنِ، وأَصدقُها حارثٌ وهَمَّام، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠). وفي إسناده ضعيف. والجزء الأول من الحديث صحيح، أخرجه مسلم (٢١٣٢).

الباب الثالث
في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين؟

ص: ٨٦

فالأسماءُ الدالَّة عَلَىٰ مسمًّىٰ واحدٍ نوعان:

أحدهما: أن يَدُلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفًا محضًا، وهذا كالحِنْطة والقمح والبُرِّ، والاسم والكُنْيَةِ واللَّقب، إذا لم يكن فيه مَدحٌ ولا ذمٌّ، وإنما أُتي به لمجرد التعريف.

والنوع الثاني: أن يدلَّ علىٰ ذاتٍ واحدة باعتبار تبايُنِ صفاتها، كأسماء الربِّ تعالىٰ، وأسماءِ كلامه، وأسماءِ نبيِّه، وأسماءِ اليوم الآخر. فهذا النوع مُترادِفٌ بالنسبة إلىٰ الذات، متباينٌ بالنسبة إلىٰ الصِّفات. فالربُّ والرحمن والعزيز والقدير والمَلِكُ يدلّ علىٰ ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعدِّدة، وكذلك البشير والنَّذير والحاشر والعاقِبُ والماحِي، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّغابُن ويوم الآزِفَة، ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهُدىٰ ونحوها، وكذلك أسماء السَّيف، فإنَّ تعدُّدَها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفةٍ، كالمهنَّد والعَضْب والصَّارم ونحوها، وقد عرَفتَ تبايُنَ الأوصاف في أسماء المحبَّة.

وقد أنكرَ كثيرٌ من الناس الترادُف في اللغة، وكأنَّهم أرادوا هذا المعنىٰ وأنَّه ما من اسمين لمسمًّىٰ واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافةٍ، سواء عُلِمت لنا أو لم تُعْلَم. وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد، ولكن قد يَقَعُ

الترادفُ باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن، يُسمِّي أحدُهما المسمَّىٰ باسم، ويُسمِّيه الواضعُ الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثيرٌ، ومن ها هنا يقعُ الاشتراك أيضًا. فالأصل في اللغة هو التباينُ، وهو أكثر اللغة. والله أعلم.



الباب الرابع
فِي أنَّ العالمَ العُلويَّ والسُّفليَّ إنَّما وُجد بالمحبَّة ولأجلها، وأنَّ حركاتِ الأفلاكِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ وحركات الملائكةِ والحيواناتِ، وحركةَ كلِّ متحركٍ إنَّما وُجدت بسبب الحبِّ

ص: ٨٨

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لابدَّ من بيان مقدمة، وهي أنَّ الحركاتِ ثلاث: حركةٌ إرادية، وحركةٌ طبيعية، وحركةٌ قَسْرية، وبيان الحصر أنَّ مبدأ الحركة إمَّا أن يكون من المُتحرك أو من غيره، فإنْ كانت من المتحرّك، فإمَّا أنْ يُقارنَها شعورُه وعلمُه بها أوْ لا، فإن قارنَها الشعورُ والعلمُ فهي الإراديَّة، وإن لم يُقارنها الشعورُ والعلمُ فهي الطبيعية، وإن كانت من غيره فهي القَسْرية.

إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعةٌ لإرادة المتحرِّك، والمرادُ إمَّا أن يكون مرادًا لنفسه أو لغيره، ولابدَّ أن ينتهيَ المراد لغيره إلىٰ مرادٍ لنفسه؛ دفعًا للدَّور والتسلسل. والإرادة إما أن تكونَ لجلب منفعةٍ ولذةٍ إمَّا للمتحرّك وإمَّا لغيره، أو دفع ألمٍ ومضرَّة إمَّا عن المتحرّك أو عن غيره، والعاقلُ لا يجْلِبُ لغيره منفعةً ولا يدفعُ عنه مَضرَّةً إلا لما له هو في ذلك من اللَّذة ودفع الألم، فصارت حركته الإرادية تابعةً لمحبته، بل هذا حكم كلِّ حيٍّ متحرِّك.

وأمَّا الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلىٰ مستقرِّه ومركزه، وتلك تابعةٌ للحركة التي اقتضت خروجَه عن مركزه، وهي القَسْرية؛ التي إنَّما تكون بقسرٍ قاسرٍ

أخرجَه عن مركزه، إما باختياره، كحركة الحجر إلىٰ أسفلَ إذا رُمِيَ به إلىٰ جهة فوق، وإمَّا بغير اختيار مُحَرِّكه، كتحريك الرياح للأجسام إلىٰ جهة مَهَابِّها، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر، وحركةُ القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره، فإن الملائكة مُوَكَّلَةٌ بالعالم العُلويِّ والسُّفلي، تُدبِّره بأمر الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ - ٥].

وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تُحرّكها، ووكَّل بالرياح ملائكةً تُصرِّفها بأمره، وهم خَزَنتُها، ووكَّلَ بالقطر ملائكةً، وبالسَّحاب ملائكةً تسوقه إلىٰ حيث أمرت به، ووكَّل الله سبحانه بالجبال ملائكةً، ووكَّل بالموت ملائكةً، ووكَّل بمُساءلة الموتىٰ ملائكةً في القبور، ووكَّل بالرَّحمة ملائكةً، وبالعذاب ملائكةً، وبالمؤمن ملائكةً يُثبِّتونه، ويَؤُزُّونه إلىٰ الطاعات أزًّا.

فأمْرُ العالم العُلويِّ والسُّفليِّ والجنَّة والنَّار بتدبير الملائكة بإذن ربهم ﷻ وأمرِه، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وإذا عُرِفَ ذلك عُرِف أنَّ كلَّ حركةٍ في العالم فسببُها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته، فيرجعُ الأمر كلُّه إلىٰ تنفيذ مراد الربِّ - تعالىٰ - شرعًا وقدَرًا،

والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً، من الأَلُوكَةِ، وهي الرسالة، فهم رُسُل الله في تنفيذ أوامره.

والمقصود أنَّ حركاتِ الأفلاك وما حَوَتْه تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبَّة، فالحبُّ والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبةٍ وإرادة، حتىٰ دفعه للأمور التي يُبغضها ويَكرهها، فإنما يدفعُها بإرادته ومحبته لأضدادها، واللَّذة التي يجدُها بالدفع، كما يُقال: شفَىٰ غيظَه، وشَفَىٰ صدرَه، والشفاء والعافية يكون بالمحبوب وإن كان كريهًا، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به ألمُ المرض، فإنه وإن كان مكروهًا من وجهٍ فهو محبوبٌ؛ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب.

والحركة الاختيارية أصلُها الإرادة، والقسريةُ والطبيعيةُ تابِعتان لها، فعاد الأمر إلىٰ الحركة الإرادية. فجميعُ حركات العالم العلويِّ والسُّفليِّ تابعةٌ للإرادة والمحبَّة، وبها تحرَّك العالمُ، ولأجلها، فهي العلَّةُ الفاعليَّة والغائيّة، بل هي التي بها ولأجلها وُجدَ العالمُ، فما تحرَّك في العالم العُلويِّ والسفليِّ حركةٌ إلا والمحبَّة سببُها وغايتُها، بل حقيقةُ المحبَّة حركة نفس المحبِّ إلىٰ محبوبه، فالمحبَّة حركةٌ بلا سكون.

وكمالُ المحبَّة هي العبودية، والذلُّ، والخضوعُ، والطَّاعة للمحبوب، وهو الحقُّ الذي به وله خُلِقَت السموات والأرض، والدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحقُّ الذي خُلِق به ولأجله الخلقُ هو عبادة الله وحده، التي هي كمالُ محبته

والخضوعُ والذُّلُّ له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسلَ الرسلَ، وأنزل الكتبَ، وخلقَ الجنَّة والنار.

فحركاتُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيهما مُوافِقةٌ للأمر؛ إمَّا الأمرِ الدينيّ الذي يُحِبُّه الله ويرضاه، وإمَّا الأمرِ الكونيّ الذي قدَّره وقضاه، وهو سبحانه لم يُقدِّره سُدًى، ولا قضاه عبثًا، بل لما له فيه من الحكم والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يحبُّ غاياتِها وإن كره أسبابها ومبادئها، فإنَّه ﷻ يُحبُّ المغفرة، وإن كره معاصيَ عباده، ويحبُّ السَّتْر، وإن كره ما يَسْتر عبده عليه، ويحبُّ العتْقَ، وإن كره السبب الذي يَعْتِقُ عليه من النار، ويحبُّ العفو، كما في الحديث: «**اللَّهُمَّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ، فَاعْفُ عَنِّي**»[1]، وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار، ويحبُّ التوَّابين وتوبتَهم، وإن كره معاصيَهم التي يتوبون إليه منها، ويحبُّ الجهادَ وأهلَه، بل هم أحبُّ خلقه إليه، وإن كره أفعال من يجاهدونه.

وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك، فادخل منه؛ يُطلعك علىٰ رياضٍ من المعرفة مُؤْنِقَةٍ، مات مَنْ فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ تَضيقُ عنه عِدَّة أسفار، واللَّبيبُ يدخلُ إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب: أنَّه سبحانه كاملٌ في أسمائه وصفاته، فله الكمالُ المطلقُ من جميع الوجوه؛ الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما، وهو يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحب ظهورَ آثارها في خلقه، فإنَّ ذلك من لوازم كماله، فإنَّه سبحانه وتْرٌ يحُبُّ الوتْرَ[2]، جميلٌ يحبُّ الجمالَ[3]،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠). وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٠).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٩١).

عليمٌ يحبُّ العلماءَ، جوادٌ يحبُّ الأجواد، قويٌّ، والمؤمنُ القويُّ أحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف[1]، حَيِيٌّ يحبُّ أهل الحياء[2]، وفيٌّ يحبُّ أهلَ الوفاء، شكورٌ يحبُّ الشَّاكرينَ، صادقٌ يحبُّ الصادقين، محسنٌ يحبُّ المحسنين.

فإذا كان يُحِبُّ العفوَ والمغفرة والحِلْمَ والصَّفْحَ والسَّتْرَ، لم يكن بُدٌّ من تقديره للأسباب التي تَظهرُ آثارُ هذه الصفات فيها، ويَسْتَدِلُّ بها عبادُه علىٰ كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدْعىٰ لهم إلىٰ محبَّتِه، وحمدِه، وتمجيدِه، والثناء عليه بما هو أهلُه، فتحصُل الغاية التي خَلَقَ لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم، فذلك الفواتُ سببٌ لكمالها وظهورها، فتضمَّن ذلك الفواتُ المكروهُ له أمرًا هو أحبُّ إليه من عدَمه، فتأمَّلْ هذا الموضع حقَّ التأمل.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (١/ ٢٠٠).

الباب الخامس
في دَواعي المحبَّة ومتعلَّقها

ص: ١٠٣

الدَّاعي قد يُراد به: الشعورُ الذي تتبَعُه الإرادةُ والميل، فذلك قائمٌ بالمحبِّ، وقد يُراد به: السببُ الذي لأجله وُجدت المحبَّةُ، وتعلّقت به، وذلك قائمٌ بالمحبوب، ونحن نُريد بالدَّاعي: مجموعَ الأمرين، وهو ما قام بالمحبوب من الصِّفات التي تدعو إلىٰ محبَّته، وما قامَ بالمُحبِّ من الشُّعور بها، والموافقة التي بين المحبِّ والمحبوب، وهي الرابطة بينهما، وتُسمَّىٰ بين المخلوق والمخلوق: مناسبةً وملاءَمةً.

فهاهنا ثلاثة أُمور: وصفُ المحبوب وجمالُه، وشعورُ المحبِّ به، والمناسبةُ، وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحبِّ والمحبوب، فمتىٰ قَوِيتِ الثَّلاثةُ وكَمُلَت؛ قوِيت المحبَّةُ واستحكمت، ونقصانُ المحبَّة وضعفُها بحسب ضعفِ هذه الثلاثة أو نَقْصِها، فمتىٰ كان المحبوبُ في غاية الجمال، وشعورُ المحبِّ بجماله أتمَّ شُعور، والمناسبةُ التي بين الرُّوحين قوية؛ فذلك الحبُّ اللازم الدائم، وقد يكون الجمالُ في نفسه ناقصًا، لكن هو في عين المحبِّ كامل، فتكون قوَّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإنَّ حُبَّك الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ، فلا يرىٰ المحبُّ أحدًا أحسن من محبوبه.

وقد يكون الجمالُ مُوَفَّرًا، لكنَّه ناقصُ الشعور به، فَتَضْعُفُ محبَّتُه لذلك، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبَه.

ولهذا أُمِرَ النساءُ بسَتْرِ وجوههن عن الرِّجال، فإنَّ ظهورَ الوجه يُسفِرُ عن كمال المحاسن، فيقع الافتتان، ولهذا شُـرع للخاطب أن ينظرَ إلىٰ المخطوبة، فإنَّه إذا شاهد حسنَها وجمالَها؛ كان ذلك أدعىٰ إلىٰ حصول المحبَّة والأُلفة بينهما، كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «**إذا أراد أحدُكُم خِطبة امْرَأةٍ فلينظُر إلىٰ ما يدعُوه إلىٰ نِكَاحِها، فإنَّه أَحْرَىٰ أن يُؤْدَم بَيْنَهُمَا**»(١) أي: يُلاءم ويُوافقَ ويُصْلَحَ، ومنه الإدام الذي يُصْلَحُ به الخبز. وإذا وُجِد ذلك كلُّه، وانْتَفَتِ المناسبة والعَلاقة التي بينهما لم تَسْتحكم المحبَّة؛ وربما لم تقع ألبتةَ، فإن التناسُبَ الذي بين الأرواح من أقوىٰ أسباب المحبَّة.

فكلُّ امرئ يصبُو إلىٰ مَنْ يُناسبُهْ

وهذه المناسبة نوعان: أصليةٌ من أصل الخِلْقة، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإنَّ من ناسبَ قصدُك قصدَه حصلَ التوافقُ بين رُوحِك ورُوحِه، فإذا اختلفَ القصدُ زالَ التوافُق، فأمَّا التناسُب الأصلي، فهو اتفاقُ أخلاق، وتشاكُلُ أرواح، وشوقُ كلِّ نفسٍ إلىٰ مُشاكلها، فإنَّ شِبْهَ الشيء يَنجذبُ إليه بالطبع، فتكون الرُّوحان متشاكلتين في أصل الخِلقة، فينجذب كلٌّ منهما إلىٰ الأخرىٰ بالطبع، وقد يقعُ الانجذاب والميلُ بالخاصِّيَّةِ، وهذا لا يُعلَّل، ولا يُعرَف سَبَبُه، كانجذاب الحديد إلىٰ الحجر المِغْنَاطيس. ولا ريبَ أنَّ وقوعَ هذا القَدْر بين الأرواح أعظمُ من وقوعه بين الجمادات.

وقال بعضُهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهرَ نفسي، ومُشَاكِلَتَها في كلِّ أحوالها، فانبعثَتْ نفسي نحوَك، وانقادتْ إليك، وإنَّما هويتُ نفسي.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٨٢). وإسناده حسن.

وهذا صحيحٌ من وجهٍ، فإنَّ المناسبة عِلَّةُ الضَّمِّ شَرْعًا وقدرًا، وشاهِدُ هذا بالاعتبار: أنَّ أحبَّ الأغذية إلىٰ الحيوان ما كان أشبَه بجوهر بدنه، وأكثرَه مناسبةً له، وكلَّما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثر، وكلَّما بعدت المناسبة حصلت النُّفرةُ عنه، ولا ريبَ أنَّ هذا قَدْرٌ زائدٌ علىٰ مجرَّد الحسن والجمال، **ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيَّةُ العُلْويَّة تعشقُ صفاتِ الكمال بالذَّات، فأحبُّ شيءٍ إليها العلمُ، والشَّجاعةُ، والعفَّةُ، والجودُ، والإحسانُ، والصبر، والثباتُ؛ لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمة الدنيَّة فإنَّها بمعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات**، وكثيرٌ من الناس يحملُه علىٰ الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبَّتِه له، واللَّذَّةُ التي يجدُها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتىٰ خشيتُ ألَّا أُؤْجَر عليه.

وقيل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: تعلَّمتَ هذا العلمَ لله؟ فقال: أمَّا لله فعزيز، ولكنْ شيءٌ حُبِّبَ إليَّ، ففعلتُه.

وقال آخر: إنِّي لأفرحُ بالعطاءِ، وأَلْتَذُّ به أعظمَ مما يفرحُ الآخذُ بما يأخذه مني.

وفي هذا قيل في مدح بعض الكُرَماء:

وتأخُذُه عندَ المَكَارِم هِزَّةٌ ... كما اهْتَزَّ عندَ البَارحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ

قال شاعرُ الحماسة:

تراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ سائِلُهْ

وكثيرٌ من الأجواد يعشقُ الجودَ أعظمَ عشق، فلا يصبِرُ عنه مع حاجته إلى ما يجودُ به، ولا يقبلُ فيه عَذْلَ عاذلٍ، ولا تأخذُه فيه لومةُ لائم، وأما عشَّاق العلم

فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشق بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لايشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.

وقيل لامرأةِ الزُّبَيْر بن بكَّار - أو غيره -: هنيئًا لكِ؛ إذ ليست لك ضَرَّة، فقالت: والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائرَ!

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه، أنه قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب، وارفعْ صوتَك حتىٰ أسمع.

وأعرف مَنْ أصابه مرَضٌ من صُداع، وحُمَّىٰ، وكان الكتابُ عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً؛ قرأ فيه، فإذا غُلب؛ وضعَه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يَحِلُّ لك، فإنَّك تُعِينُ علىٰ نفسك، وتكونُ سببًا لفوات مطلوبك.

وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك، وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلى علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت قويت الطبيعة، فدفعتِ المرض؟ فقال: بلىٰ! فقلت له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفاتِ الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنَّما يكونُ بالمناسبة التي بينَ الرُّوح وتلك الصِّفاتِ، ولهذا كان أعلىٰ الأرواح وأشرفُها أعلاها وأشرفها معشوقًا، كما قيل:

أنتَ القتيلُ بكلِّ مَنْ أحْبَبْتَه فاخْتَرْ لنفسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطفي

فإذا كانت المحبَّةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكَّنت، ولم يُزِلْها إلا مانعٌ

أقوىٰ من السَّبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنَّما هي محبةٌ لغرضٍ من الأغراض، تزولُ عند انقضائه وتضمحِلُّ. فمن أحبّكَ لأمرٍ ولَّىٰ عند انقضائه، فداعي المحبَّة وباعثُها إن كان غَرَضًا للمحبِّ لم يكن لمحبَّته بقاءٌ، وإن كان أمرًا قائمًا بالمحبوب سريعَ الزوال والانتقال زالت محبَّتُه بزواله، وإن كان صفةً لازمةً له فمحبَّتُه باقيةٌ ببقاء داعيها، ما لم يُعارِضْه معارِضٌ يُوجب زوالَها، وهو إمَّا تغيُّرُ حالٍ في المُحبِّ، أو أذىً من المحبوب.

والمقصودُ أنَّ المحبَّة تستدعي مشاكلةً ومناسبةً.

وقد ذكرَ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في مسنده[١] من حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ امرأةً كانت تدخلُ علىٰ قريش، فتُضحكُهم، فقدمتِ المدينة، فنزلتْ علىٰ امرأةٍ تُضْحِكُ النَّاسَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**علىٰ مَنْ نزلتْ فلانة؟**» فقالت: علىٰ فلانَةَ المُضْحِكَة، فقال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، ومَا تَنَاكَر مِنْها اخْتَلَفَ**». وأصلُ الحديث في الصحيح[٢].

وذُكر لبقراط رجلٌ من أهل النقص يحبُّه، فاغتمَّ لذلك، وقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقْتُه في بعض أخلاقِهِ، وأخذَ المتنبي هذا المعنىٰ فقلبَه، وأجادَ، فقال:

وإذا أتتكَ مَذَمَّتِي مِن ناقصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأنِّي فاضلُ

وأنت إذا تأمَّلْتَ الوجودَ؛ لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلا وبينهما مشاكلةٌ، أو اتفاقٌ في فعلٍ أو حالٍ أو مَقْصِدٍ، فإذا تباينت المقاصدُ والأوصافُ والأفعالُ والطرائقُ

---

(١) لم أجده في المسند. وبهذا السياق أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص٢١٦). وسنده ضعيف.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٨).

لم يكن هناك إلا النُّفْرَةُ والبعدُ بين القلوب، ويكفي في هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمِنينَ في توادِّهمْ، وتراحُمِهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ الْوَاحِدِ، إذا اشْتكىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعىٰ له سائرُ الجسدِ بالحُمَّىٰ والسَّهَر**»[١].

فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت؛ تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الرُّوح ومَركَبُه، وبهذا ركَّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثىٰ طلبًا للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يُسمَّىٰ جماعًا وخِلاطًا ونكاحًا وإفضاء؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما يُفضي إلىٰ صاحبه، فيزول الفضاءُ بينهما.

فإن قيل: فهذا يُوجِب تأكُّد الحبِّ بالجماع وقوّتَه به، والواقعُ خلافه، فإنَّ الجماع يُطْفِئ نارَ المحبَّة، ويُبرِّد حرارتَها، ويُسكِّن نفس المحبِّ.

قيل: الناس مختلفون في هذا، فمنهم من يكون بعد الجماع أقوىٰ محبَّةً، وأمكنَ وأثبت ممَّا قبله، ويكون بمنزلة من وُصف له شيء ملائمٌ، فأحبَّه، فلمَّا ذاقه كان له أشدَّ محبَّة، وإليه أشدَّ اشتياقًا.

وقد ثبت في الصحيح[٢] عن النبي ﷺ في حديث عروج الملائكة إلىٰ ربِّهم، أنه سبحانه يسألهم عن عباده - وهو أعلم بهم - فيقولون: «**إنهم يُسبِّحونكَ، ويُمجِّدونك، ويقدّسونك، فيقول: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوني؟ فتقولُ الملائكة: لو رأوك لكانوا أشدَّ تسبيحًا وتقديسًا وتمجيدًا، ثم يقولون: ويسألونك الجنَّة، فيقولُ: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقولُ: فكيف لو رأوها؟ فتقولُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

الملائكة: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلبًا» وذكر الحديث.

ومعلومٌ: أنَّ محبةَ من ذاق الشيء الملائمَ وعَدِمَ صَبْرَه عنه أقوىٰ من محبة من لم يَذُقْهُ، بل نفسه مفطومة عنه، والمودَّةُ التي بين الزوجين والمحبةُ بعد الْجماع أعظمُ من التي كانت قبله.

فصل

هل الوصال يفسد العشق؟

ورأت طائفةٌ: أنَّ الجماع يُفسِد العشقَ ويُبطِله أو يُضعفه، واحتجت بأُمور:

منها: أن الجماع هو الغاية التي تُطْلَب بالعشق، فما دام العاشقُ طالبًا فعشقه ثابتٌ، فإذا وصل إلىٰ الغاية قضىٰ وطرَه، وبَرَدَت حرارةُ طلبه، وطَفِئَتْ نارُ عشقه.

قالوا: وهذا شأنُ كلِّ طالبٍ لشيءٍ إذا ظَفِر به، كالظمآن إذا رَوِيَ، والجائع إذا شَبع، فلا معنىٰ للطَّلب بعد الظَّفر.

ومنها: أنَّه قبل الظفر ممنوعٌ، والنفسُ مُولَعَةٌ بحبِّ ما مُنِعَتْ منه، كما قال:

وزادَني كَلَفًا في الحُبِّ أنْ مُنِعَتْ ... أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

وفصل الخطاب بين الفريقين أنَّ الجماعَ الحرامَ يُفسِدُ الحبَّ، ولابدَّ أن تنتهيَ المحبَّةُ بينهما إلىٰ المعاداة والتباغُض والقِلىٰ، كما هو مشاهَدٌ بالعيَانِ، فكلُّ محبَّةٍ لغير الله آخرُها قِلًىٰ وبغضٌ فكيف إذا قارنَها ما هو من أكبر الكبائر؟ وهذه عداوةٌ بين يدَي العداوة الكبرىٰ التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ مَنْ ظَفِرَ بمحبوبه، وترك قضاء

وَطَرِه منه رغبةً في بقاء محبَّته، وخشية أن تنقلب قِلًىٰ وبغضًا، في الباب الموعود به؛ فإنَّ ذلك أليقُ به.

وأمَّا الجماعُ المباحُ فإنَّه يزيدُ الحبَّ؛ إذا صادفَ مرادَ المحبِّ، فإنَّه إذا ذاق لذَّته وطَعْمَه؛ أوجب له ذلك رغبةً أُخرىٰ لم تكن حاصلةً قبل الذَّوق. ولهذا لا يكاد البِكْران يصبرُ أحدُهما عن الآخر، هذا ما لم يَعْرِض للحبِّ ما يُفسده، ويُوجب نقلَه إلىٰ غيرِ المحبوب.

وأمَّا ما احتجَّ به الآخرون فجوابُه: أنَّ الشهوةَ والإرادة لم تُطْفَأْ نارُها بالكليَّة، بل فترت شهوةُ ذلك الوقت، ثم تعودُ أمثالها، وإنَّما يظهر هذا إذا غابَ أحدُهما عن حبيبه، وإلا فما دامَ بمرأىٰ منه وهو قادرٌ عليه متىٰ أحبَّ؛ فإنَّ النفسَ تسْكُن بذلك، وتطمئنُّ به، وهذا حالُ كلِّ مَنْ كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعام وشرابٍ ولباسٍ، وهو قادرٌ عليه، فإنَّ نفسَه تسكُن عنده، فإذا حيل بينه وبينه اشتدَّ طلبُه له، ونزاعُ نفسه إليه، علىٰ أنَّ المحبَّ للشيء متىٰ أفرطَ في تناوُل محبوبه؛ نَفَرَتْ نفسُه منه، وربَّما انقلبتْ محبَّتُهُ كراهةً. وسيأتي مَزِيدُ بيانٍ لهذا في باب سُلُوِّ المحبِّين إن شاء الله تعالىٰ.

داعي الحب هو الظاهر أم الباطن؟

فصل

وداعي الحبِّ من المحبوب جمالُه، إمَّا الظاهرُ أو الباطنُ أو هما معًا، فمتىٰ كان جميلَ الصُّورة، جميلَ الأخلاق والشِّيم والأوصاف؛ كان الدَّاعي منه أقوىٰ. وداعي الحبِّ مِنَ المُحبِّ أربعة أشياء:

أوّلُها: النظر إمَّا بالعين، أو بالقلب إذا وُصف له، فكثيرٌ من الناس يحبُّ غيرَه ويفنىٰ فيه محبَّةً وما رآه، لكن وُصِفَ له.

ولهذا نهىٰ النبي ﷺ المرْأَة أن تَنْعَتَ المَرْأَةَ لِزَوْجِهَا، حتَّىٰ كأنَّه يَنْظُرُ إِلَيْهَا. والحديث في الصَّحيح[1].

الثاني: الاستحسان، فإن لم يُورث نظرُه استحسانًا لم تقع المحبَّةُ.

الثالث: الفكر في المنظور، وحديثُ النفس به، فإن شُغِل عنه بغيره ممَّا هو أهمُّ عنده منه لم يَعْلَق حبُّه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسوانحَ، ولهذا قيل: العشق حركة قلب فارغ. ومتىٰ صادفَ هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلبًا خاليًا؛ تمكَّن منه، كما قيل:

أتاني هَواها قبلَ أن أعرِفَ الهوى ... فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكَّنا

وإذا كان النظرُ مبدأ العشق؛ فحقيقٌ بالمُطْلَق ألا يعرِّضَ نفسَه للإسار الدائم بواسطة عينه، وإذ قد أفضىٰ بنا الكلام إلىٰ النظر فلنذكرْ حُكْمَه وغائلَته.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٠، ٥٢٤١).

الباب السادس
في أحكام النظر، وغائلته، وما يجني على صاحبه

ص: ١٤٦

قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠ - ٣١]، فلمَّا كان غضُّ البصر أصلًا لحفظ الفرج؛ بدأ بذكره، ولمَّا كان تحريمُه تحريمَ الوسائل، فيُباح للمصلحة الرَّاجحة، ويَحْرُمُ إذا خِيفَ منه الفسادُ، ولم يُعارِضْه مصلحةٌ أرجحُ من تلك المفسدة؛ لم يأمر سبحانه بغَضِّه مطلقًا، بل أمر بالغضِّ منه، وأمَّا حفظ الفرج فواجبٌ بكلِّ حالٍ، لا يُباح إلا بحقِّه، فلذلك عمَّ الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العينَ مِرْآة القلب، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غضَّ القلبُ شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصره أطلق القلبُ شهوتَه.

وفي الصحيح[1]: أنَّ الفضل بن عباس ﷺ كان رَدِيف رسول الله ﷺ يوم النحر من مُزْدَلِفَة إلىٰ مِنًىٰ، فمرَّت ظُعُنٌ يَجْرِيْن، فَطفِق الفضل ينظرُ إليهنَّ، فحوَّل رسول الله ﷺ رأسَهُ إلىٰ الشِّقِّ الآخر.

وهذا منعٌ وإنكارٌ بالفعل. فلو كان النظرُ جائزًا لأقرَّه عليه.

وفي الصحيح[2] عنه ﷺ أنَّه قال: «**إن الله ﷻ كتب علىٰ ابن آدم حَظَّهُ من الزِّنَىٰ**،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

أدْرَك ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فالعَيْنُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا النَّظَرُ، واللِّسَانُ يَزْنِي، وزِنَاهُ النُّطْقُ، والرِّجْلُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا الخُطَا، واليَدُ تَزْنِي، وزِنَاهَا البَطْشُ، والقَلْبُ يَهْوَىٰ ويَتَمنَّىٰ، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلِك أوْ يُكَذِّبُه».

فبدأ بزنىٰ العينِ؛ لأنَّه أصلُ زنىٰ اليد والرِّجل والقلبِ والفَرْج، ونبَّه بزنىٰ اللسان بالكلام علىٰ زنىٰ الفم بالقُبَل، وجعلَ الفرجَ مُصدِّقًا لذلك إن حقَّق الفعلَ، أو مكذبًا له إن لم يُحَقِّقْهُ.

وهذا الحديث من أبين الأشياء علىٰ أنَّ العينَ تعصي بالنظر، وأنَّ ذلك زناها، ففيه ردٌّ علىٰ مَنْ أباح النظر مطلقًا.

وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**يا عَليُّ لا تُتْبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَة، فإنَّ لك الأُولىٰ، ولَيْسَتْ لكَ الثَّانِيَة**»[1].

ووقعت مسألة: ما تقولُ السَّادة العلماء في رجلٍ نظرَ إلىٰ امرأةٍ نظرةً، فعلقَ حبُّها بقلبه، واشتدَّ عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كلُّه من أوَّل نظرةٍ، فلو أعدْتَ النظرَ إليها لرأيتَها دون ما في نفسكَ، فسلوتَ عنها، فهل يجوزُ له تعمُّد النظر ثانيًا لهذا المعنىٰ؟

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لأَوْجُهٍ:

أحدها: أنَّ الله سبحانه أمر بغضِّ البصر، ولم يجعلْ شفاءَ القلب فيما حرَّمه علىٰ العبد.

الثاني: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عن نظر الفَجْأَة، وقد علم أنه يُؤثِّر في القلب فأمرَ بمداواتِه بصرف البصر، لا بتكرار النَّظر.

---

(١) أخرجه أبوداود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وهو حديث حسن.

الثالث: أنَّه صرَّح بأن الأولىٰ له، وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكونَ داؤه ممَّا له، ودواؤه ممّا ليس له.

الرابع: أنَّ الظَّاهر قوةُ الأمر بالنظرة الثانية لا تَناقُصُه، والتجربةُ شاهدةٌ به، والظَّاهر أنَّ الأمرَ كما رآه أولَ مرَّةٍ، فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنَّه ربما رأىٰ ما هو فوق الذي في نفسه، فزادَ عذابُه.

السادس: أنَّ إبليسَ عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه، فيزيِّن له ما ليس بحسن لِتَتِمَّ البلية.

السابع: أنَّ صاحبَ هذا المقام في مقام معاملة الحقِّ ﷻ في ترك محبوب - كما زعم - وهو يُريد بالنَّظرة الثانية أن يتبيَّن حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذًا يكون تركُهُ لأنَّه لا يُلائم غرضَه لا لله تعالىٰ، فأين معاملةُ الله - سبحانه - بترك المحبوب لأجله؟

وكلَّما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزالُ تَنْمي حتىٰ يفسدَ القلبُ، ويُعْرِض عن الفكر فيما أُمِر به، فيخرج بصاحبه إلىٰ المحن، ويوجب ارتكابَ المحظورات، ويُلقي القلبَ في التلف.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ الناظر التذَّت عينُه بأوَّل نظرةٍ، فطلبتِ المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمةً، ولو أنَّه غضَّ أوَّلًا؛ لاستراح قلبُه، وسَلِم.

وتأمَّل قول النبي ﷺ: «**النظرة سهْمٌ مَسْمُومٌ من سهام إبليس**»[1]، فإن السَّهْم شأْنُه أن يسري في القلب، فيعمل فيه عمل السُّمِّ الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرَغه، وإلا قتله ولابدَّ.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٤)، وسنده ضعيف.

مقصد الشارع في تحريم النظر

فصل

ولمَّا كان النظرُ من أقرب الوسائل إلىٰ المحرَّم اقتضت الشَّريعة تحريمه، وأباحَتْه في موضع الحاجة.

وهذا شأن كلِّ ما حُرِّم تحريمَ الوسائل، فإنَّه يُباح للمصلحة الراجحة، كما حُرِّمت الصَّلاة في أوقات النهي؛ لئلا تكون وسيلة إلىٰ التشبُّه بالكفَّار في سجودهم للشَّمس، وأُبيحت للمصلحة الرَّاجحة، كقضاءِ الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب علىٰ الصَّحيح.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل[١] عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**النظرةُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبْليس، فمن غَضَّ بَصَرَهُ عن محاسن امْرَأةٍ؛ أوْرَثَ الله قلبَهُ حلاوةً يجِدُها إلىٰ يوم يَلْقَاهُ**»، أو كما قال.

وقال جريرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأَة، فأمرني أن أصرف بصري[٢].

ونظرةُ الفَجْأة: هي النظرةُ الأولىٰ؛ التي تقع بغير قصدٍ من الناظر، فما لم يَعْتَمِدْه القلبُ؛ لا يُعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمُّدًا؛ أَثِمَ، فأمرَه النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يَصْرِفَ بصرَه، ولا يستديم النظر، فإنَّ استدامته كتكريره، وأرشد من ابْتُلي بنظرة الفَجْأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: «**إنَّ معَها مِثْل الَّذي معها**»[٣] فإن في ذلك التسلِّي عن المطلوب بجنسه.

---

(١) لم أجده في «المسند»، وهو الحديث الذي سبق تـخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

فوائد غض البصر

فصل

وفي غضِّ البصر عِدَّة فوائد:

أحدُها: تخليصُ القلب من ألمِ الحَسْرة، فإنَّ مَنْ أطلق نظرَه دامت حسرتُه؛ فأضرُّ شيءٍ علىٰ القلب إرسالُ البصر، فإنَّه يُريه ما يشتدُّ طلبُه، ولا صبرَ له عنه، ولا وصولَ له إليه، وذلك غايةُ ألمه وعذابه. قال الأصمعي[1]: رأيت جاريةً في الطَّواف، كأنَّها مَهَاةٌ، فجعلتُ أنظر إليها، وأملأُ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا! ما شأنُكَ؟ قلت: وما عليكِ من النَّظر؟ فأنشأتْ تقول:

وكنتَ متى أرسلْتَ طَرْفَك رائدًا ... لقلبِكَ يومًا أتعبَتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عَنْ بعضِه أنتَ صابرُ

والنَّظرة تفعلُ في القلب ما يفعلُ السَّهم في الرَّميَّة، فإن لم تقتله جرحتْه، وهي بمنزلة الشَّرارة من النَّار تُرمىٰ في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقْه كلَّه؛ أحرقتْ بعضَه، كما قيل:

كلُّ الحوادث مَبْداها من النَّظر ... ومُعْظَمُ النَّار من مُسْتَصْغَرِ الشَّررِ
كم نظرةٍ فتكَتْ في قلبِ صاحبها ... فَتْكَ السِّهام بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ
والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا ... في أعينِ الغيدِ موقوفٌ على الخطرِ
يَسُرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضَّررِ

---

(١) أخرج عنه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص١٤٣).

والناظر يَرْمي مَنْ نظرَه بسهامٍ غَرَضُها قلبُه وهو لا يَشْعُر، فهو إنما يرْمي قلبَه. ولي من أبيات:

يــا راميًا بســهام اللَّحْــظِ مُجتهدًا   أنتَ القتيلُ بِما ترمي فلا تُصبِ

وباعثَ الطَّــرفِ يَرتَادُ الشِّــفاءَ له   تَــوقَّــهُ إنَّــه يـأْتيـكَ بـالـعَـطَـبِ

وقال ابن المعتز:

متيَّمٌ يَرعـى نجـومَ الدُّجـى   يَـبْـكـي عـلـيـهِ رحـمـةً عـاذِلُـهْ

عينـي أشـاطتْ بدمـي في الهَوى   فـابـكُـوا قـتـيـلًا بـعـضُـه قـاتـلُـهْ

ومثله للمتنبي:

وأنا الـذي اجْتلَـبَ المَنِيَّـةَ طَرْفُهُ   فمَنِ المُطَالَبُ والقَتِيلُ القاتِلُ؟!

ولي من أبياتٍ لعلَّ معناها مبتكَر:

ألـم أقُل لـك لا تَسْـرقْ ملاحظةً   فسارقُ اللَّحْظِ لا ينجُو مِن الدَّرَكِ

نصبـتُ طَـرْفي لـه لمَّا بدا شـركًا   فكانَ قَلْبِي أوْلـى منه بالشَّركِ

الفائدة الثانية: أنه يُورثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهر في العين، وفي الوجه والجوارح، كما أنَّ إطلاقَ البصر يُورثه ظلمةً تظهر في وجهه وجوارحه. ولهذا - والله أعلم - ذكر الله سبحانه أنه النُّور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥] **عقيب قوله:** ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠] **وجاءَ الحديثُ مطابقًا لهذا، حتى كأنَّه مشتقٌ منه، وهو قوله: «النَّظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام**

إبليس، فمن غضَّ بصره عن محاسن امرأة أورثَ الله قَلْبَه نُورًا»[1] الحديث.

الفائدة الثالثة: أنَّه يُورث صحَّةَ الفِراسة، فإنَّها من النُّور وثمَرَاته، وإذا استنارَ القلبُ صحَّتِ الفِراسةُ.

قال شجاع الكَرْماني: مَنْ عَمَر ظاهرَه باتِّباع السُّنَّة، وباطنَه بدوام المُراقبة، وغضَّ بصرَه عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشَّهوات، وأكَلَ من الحَلال؛ لم تُخطئ فراستُه. وكان شجاع لا تخُطئ له فراسة. والله سبحانه يَجزي العبدَ على عمله بما هو من جنسه، فمَنْ غضَّ بَصَرَه عن المحارم؛ عوَّضه الله سبحانه إطلاقَ نور بَصِيرته، فلمَّا حبسَ بصرَه لله؛ أطلق الله له بَصِيرتَه، ومن أطلق بصرَه في المحارمِ؛ حبس الله عنه بَصِيرتَه.

الفائدة الرابعة: أنْ يفتحَ له طرقَ العلم وأبوابَه، ويُسهِّلَ عليه أسبابَه، وذلك بسبب نور القلب.

الفائدة الخامسة: أنَّه يُورث قُوَّة القلب، وثباتَه، وشجاعتَه، فيجعلُ الله سبحانَه له سلطانَ البصيرة مع سلطان الحجَّة.

قال الحسن: إنَّهم وإن هَمْلَجَتْ بهم البغالُ، وطَقْطَقَتْ بهم البراذين؛ إنَّ ذلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبىٰ الله إلا أن يُذِلَّ مَنْ عصاه.

الفائدة السادسة: أنَّه يُورثُ القلبَ سرورًا، وفرحةً، وانشراحًا أعظمَ من اللذَّة والسُّرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا **فإنَّه لما كفَّ لذَّتَه، وحبسَ شهوتَه لله، وفيها مسرَّةُ نفسه الأمَّارة؛ أعاضَه الله**

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧).

سبحانه مسرَّةً، ولذَّةً أكمل منها، كما قال بعضهم: والله لَلَذَّةُ العفة أعظمُ من لذَّة الذنب! ولا ريبَ أنَّ النفسَ إذا خالفت هواها؛ أعقَبها ذلك فرحًا، وسرورًا، ولذةً أكملَ من لذَّة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وها هنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يُخَلِّصُ القلبَ من أسر الشَّهوة، فإنَّ الأسير هو أسيرُ شهوته وهواه.

الفائدة الثامنة: أنَّه يسدُّ عنه بابًا من أبواب جهنم، فإنَّ النَّظرَ بابُ الشَّهوة الحاملة على مُواقعة الفِعْل، وتحريمُ الربِّ تعالى وشرعُه حجابٌ مانعٌ مِنَ الوصول، فمتى هتَكَ الحجابَ ضرِيَ على المحظور، ولم تَقِفْ نفسُه منه عند غاية، **فإنَّ النفسَ في هذا الباب لا تَقْنَع بغاية تقفُ عندها، وذلك أنَّ لذَّتَه في الشيء الجديد، فصاحبُ الطارف لا يُقْنِعُه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا، وأطيب مخبَرًا، فغضُّ البصر يَسُدُّ عنه هذا الباب؛ الذي عجَزَت الملوكُ عن استيفاء أغراضهم فيه.**

الفائدة التَّاسعة: أنه يقوِّي عقلَه، ويزيده، ويثبِّته، فإنَّ إطلاقَ البصر وإرسالَه لا يَحصُل إلا من خِفَّة العقل، وطَيْشه، وعدم ملاحظته للعواقب.

الفائدة العاشرة: أنَّه يُخلِّص القلب منْ سُكر الشَّهوة، ورَقْدة الغفلة، فإنَّ إطلاقَ البصر يُوجب استحكامَ الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويُوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشَّاق الصُّوَر: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. فالنظرةُ كأسٌ من خمر، والعشقُ هو سكرُ ذلك الشَّراب.

وفوائد غضِّ البصر وآفاتُ إرساله أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، وإنَّما نبَّهْنا عليها تنبيهًا، ولاسيَّما النَّظر إلى مَنْ لم يجعل الله سبيلًا إلى قضاء الوَطَر منه شرعًا،

كالمُرْدان الحِسان، فإنَّ إطلاق النظر إليهم السُّمُّ الناقع والدَّاءُ العُضَال.

وكان إبراهيم النَّخَعيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، وغيرُهما من السلف يَنْهون عن مجالسة المُرْدَان.

وبالجملة: فكم من مُرْسلٍ لحظاتِه رجعَ جيشُ صَبْره مفلولًا، ولم يُقلعْ حتىٰ تَشَحَّط بينهنَّ قتيلًا:

يا ناظرًا ما أقلعتْ لَحَظاتُه حتى تَشَحَّطَ بينهنَّ قتيلا

الباب السابع
في ذكر مناظرةٍ بين القلب والعين، ولوم كلٍّ منهما صاحبه، والحكم بينهما

ص: ١٦٧

لمَّا كانت العين رائدًا، والقلب باغيًا وطالبًا، وهذه لها لذَّةُ الرؤية، وهذا له لذة الظفر؛ كانا في الهوىٰ شريكَيْ عِنان. ولمَّا وقعا في العَنَاءِ، واشتركا في البلاء؛ أقبلَ كلٌّ منهما يلوم صاحبَه، ويعاتبه.

فقال القلب للعين: أنتِ التي سُقْتِني إلىٰ موارد الهَلَكاتِ، وأوقعتني في الحَسَرات بمُتابعتِك اللَّحَظات، ونزَّهْت طرفَك في تلك الرياض، وطلبتِ الشِّفاء من الحَدَق المِراض، وخالفت قولَ أحكم الحاكمين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠] وقول رسوله ﷺ: «**النَّظر إلىٰ المَرْأَةِ سهْمٌ مسمُومٌ منْ سهام إبليس، فمنْ تركَه خَوْفَ اللهِ ﷻ؛ أثابَهُ الله إيمانًا يجِدُ حلاوَتَهُ في قَلْبه**». رواه الإمام أحمد[1] عن حذيفة.

فَمَنِ الملومُ سوىٰ من رمىٰ صاحبَه بالسَّهم المسموم؟

أَوَ ما علمتِ أنَّه ليسَ شيءٌ أضَرَّ علىٰ الإنسان من العين واللسان؟

وقد صرَّح الصَّادقُ المصدوقُ بأنَّ العينين تزنيان، وهما أصلُ زنىٰ الفرج[2]، فإنَّهما له رائدان، وإليه داعيان.

أوَ ما سمعتِ قول العقلاء: مَنْ سَرَّح ناظره؛ أتعبَ خاطره، ومن كثرت لَحظاتُه؛ دامت حَسَرَاتُه، وضاعت عليه أوقاتُه. وقال الناظم:

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٥).

نظرُ العيونِ إلـى العيونِ هو الَّذي ... جَعَلَ الهلاكَ إلى الفُؤادِ سَبيلا

مـا زالـتِ اللَّحَظـاتُ تغـزو قلبَه ... حـتَّـى تَـشَـحَّـطَ بَـيـنـهـنَّ قتيلا

فصل

قالت العين: ظلمتَني أوَّلًا وآخرًا، وبُؤْتَ بإثمي باطنًا وظاهرًا، وما أنا إلا رسولُك الدَّاعي إليكَ، ورائدُك الدالُّ عليك، فأنت الملكُ المطاع، ونحن الجنودُ والأتباع، أركبتني في حاجتك خيلَ البريد، ثم أقبلتَ عليَّ بالتَّهديد والوعيد.

هذا، وقد حكم لي عليك سَيِّدُ الأنام، وأعدلُ الحكَّام ﷺ حيث يقول: «**إنَّ في الجَسدِ مُضْغَةً إذا صلحَتْ؛ صلُحَ لها سائِرُ الجَسَدِ، وإذا فَسَدتْ؛ فسَدَ لها سَائِرُ الجَسَدِ، ألا وهِي القلبُ**»(١).

ولو أنعمتَ النظرَ لعلمتَ أنَّ فسادَ رعيتك بفسادِك، وبقاءَها وصلاحَها ورشدَها برشادِك، ولكنَّكَ هلكتَ، وأهلكتَ رعيَّتك، وحمَلت علىٰ العين الضَّعيفة خطيئتك، وأصلُ بليَّتِكَ أنَّه قد خلا منك حبُّ الله، وحبُّ ذكرِه، وكلامِهِ، وأسمائِهِ، وصفاته، وأقبلتَ علىٰ غيره، وأعرضت عنه، وتعوَّضت بحبِّ مَنْ سواه والرغبة فيه منه.

هذا وقد سمعتَ ما قصَّ عليك من إنكاره سبحانه علىٰ بني إسرائيل استبدالَهم طعامًا بطعام أدنىٰ منه، فذمَّهم علىٰ ذلك، ونعاه عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] فكيف بمن استبدلَ بمحبة خالقه، وفاطره، ووليِّه ومالكِ أمره؛ الذي لا صلاحَ له، ولا فلاحَ، ولا نعيم، ولا سرور، ولا فرحة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

ولا نجاة إلا بأن يوحِّدَه في الحبِّ، ويكونَ أحبَّ إليه ممَّا سواه، فانظر بالله بِمَن استبدلتَ؟ وبمحبَّة من تعوَّضت؟

قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عَمَايَ وعَمَاكَ في القياس. وقد قال مَنْ بيده أزِمَّةُ الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فصل

فلمَّا سمعت الكبدُ تحاوُرَهما الكلام، وتناوُلَهما الخِصامَ؛ قالت: أنتما علىٰ هلاكي تَسَاعَدْتُما، وعلىٰ قتلي تعاونتما. ولقد أنصفَ مَنْ حكىٰ مناظرتكما، وقال علىٰ لساني متظلِّمًا منكما:

يقولُ طَرْفي لقلبي هِجْتَ لي سَقَمًا ... والعينُ تزعمُ أنَّ القلبَ أنكاها

والجِسْـمُ يشـهدُ أنَّ العيـنَ كاذبةٌ ... وَهْيَ الَّتي هيَّجتْ للقلبِ بَلْواها

لولا العيونُ وما يَجْنينَ مِنْ سَـقَمٍ ... ما كنتُ مُطَّرَحًا من بعض قَتْلاها

فقالـتِ الكَبِـدُ المظلومـةُ اتَّئِـدا ... قـطَّـعْـتُـمانِـي ومـا راقَـبْـتُـمـا الله

ثم قالت: أنا أتولَّىٰ الحُكْمَ بينكما. أنتما في البليَّة شريكا عِنان، كما أنَّكما في اللذَّة والمَسَرَّة فرَسا رِهان. فالعينُ تلتذُّ، والقلبُ يتمنَّىٰ، ويشتهي، وإن لم تُدْرِكْكُما عنايةُ مُقَلِّبِ القلوب والأبصار، وإلا فما لكِ من قُرَّةٍ ولا للقلب من قرار.

قالت: والحاكمُ بينكما الذي يحكمُ بين الرُّوح والجسد إذا اختصما بين يديه،

فإنَّ في الأثر المشهور[١]: «لا تزالُ الخصومةُ يوْمَ القيامةِ بينَ الخلائِق حتَّىٰ يختصم الرُّوحُ والجسدُ، فيقولَ الجسدُ للرُّوحِ: أنتَ الذي حرَّكتَنِي، وَأمَرْتَني، وصرَّفْتَني، وإلا فأنَا لمْ أكُنْ أتحركُ، ولا أفعل بدونك. فتقول الرّوحُ له: وأنت الذي أكلت، وشرِبْتَ، وباشَرْت، وتنَعَّمتَ، فأنتَ الذي تستحقُّ العقُوبة، فيُرْسِلُ الله سبحانه إليهما ملكًا يحكمُ بينهما، فيقولُ: مَثَلُكُما مَثَلُ مُقْعَدٍ بصيرٍ، وأعمَىٰ يمشي، دخلا بستانًا، فقال المقعدُ للأعمىٰ: أنا أرَىٰ ما فيهِ من الثمارِ، ولكن لا أستطيعُ القيامَ. وقال الأعمىٰ: أنا أستطيعُ القيام، ولكنْ لا أُبصِرُ شيئًا. فقال له المقعدُ: تعالَ فاحملني، فأنت تمشي، وأنا أتناوَلُ. فعلىٰ من تكونُ العقوبةُ؟ فيقولُ: عليهما. قال: فكذلك أنتُما». وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: «شرح الصدور» للسيوطي (ص٣٢٧).

ص: ١٧٦

الباب الثامن
في ذكر الشُّبَهِ الَّتي احتجَّ بها من أباح النظر إلى من لا يحلُّ له الاستمتاع به، وأباح عشْقَهُ

قالت هذه الطائفة: بيننا وبينكم الكتابُ، والسُّنَّةُ، وأقوالُ أئمة الإسلام، والمعقولُ الصَّحيح.

أمَّا الكتاب فقولُه تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وهذا يعُمُّ جميع ما خلق الله، فما الَّذي أخرج من عمومه الوجه المليح، وهو من أحسن ما خلق؟ وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوىٰ، ولذلك يُسَبَّحُ الخالقُ سبحانه عند رؤيته، كما قال بعضُ الناظرين إلىٰ جميل الصُّورة:

ذي طلعةٍ سبحانَ فالِق صُبْحِه ... ومَعَاطِفٍ جلَّت يمينُ الغارس

مرَّت بأرجاءِ الخَيالِ طُيوفُه ... فَبَكتْ على رَسمِ السُّلُوِّ الدَّارس

ورؤية الجمال البديع تُنْطِق ألْسنة الناظرين بقولهم: سبحان الله ربِّ العالمين! وتباركَ الله أحسنُ الخالقين! والله تعالىٰ لم يخلق هذه المحاسن عبثًا، وإنَّما أظهرها؛ ليستدل الناظرُ إليها علىٰ قدرته ووحدانيته وبديع صُنْعِه، فلا تُعَطَّلُ عما خُلقت له.

وأما السُّنَّة فالحديثُ المشهور: «النَّظرُ إلىٰ الوجهِ المليح عبادةٌ»[1].

---

(١) باطل، ذكره ابن القيم في «المنار المنيف» (ص٦٢، ٩٩).

وفي الحديث الآخر: «اطْلُبُوا الخير من حسانِ الوجوه»[١]. وفي هذا إرشادٌ إلىٰ تصفُّح الوجوه، وتأمُّلها. وخطب رجلٌ امرأةً، فاستشار النَّبيَّ ﷺ في نكاحها، فقال: «**هل نظرت إليها؟**» فقال: لا، قال: «**اذهب فانظر إليها**»[٢]. ولو كان النَّظرُ حرامًا؛ لما أطلق له أن ينظر، فإنه لا يأمن الفتنة.

وأمَّا أقوال الأئمة؛ فحكىٰ السَّمعانيُّ[٣]: أنَّ الشافعي كتب إليه رجل في رقعة:

سـل المفتي المكيَّ هل في تزاوُرٍ ... ونـظـرةِ مُشتاقِ الـفـؤادِ جُناحُ؟

فأجابه الشافعي:

معاذَ إلهِ العـرشِ أن يُذْهِبَ التُّقى ... تـلاصـقُ أكـبـادٍ بـهـن جِـرَاحُ

قالوا: وقد جوَّز طائفةٌ من الفقهاء لمن خاف علىٰ نفسه في الصَّوم الواجب من شدَّة الشَّبَق أن تتشقَّق أُنْثَيَاه أن يجامع امرأته.

ولا ريبَ أنَّ الشَّريعةَ جاءت بالتزام الدُّخول في أدنىٰ المفسدتين؛ دفعًا لأعلاهما، وتفويت أدنىٰ المصلحتين؛ تحصيلًا لأعلاهما، فأينَ مفسدةُ النَّظرِ، والقبلةِ، والضمِّ من مفسدة المرض، والجنون، أو الهلاك جملةً؟! فهذا ما احتجَّت به هذه الفرقة، ونحن نذكر ما لها وما عليها في ذلك بحول الله وقوَّته.

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤٧٥٩)، وإسناده ضعيف جدًّا.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٤).

(٣) كما في «الواضح المبين» (ص٨٩).

ص: ١٩٠

الباب التاسع
في الجواب عمَّا احتجَّت به هذه الطَّائفة، وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج

وشُبَهُهُمُ التي ذكروها دائرةٌ بين ثلاثة أقسام:

أحدها: نُقولٌ صحيحةٌ لا حجَّة لهم فيها.

الثاني: نُقولٌ كاذبةٌ عمَّن نُسبت إليه من وضع الفُسَّاق، والفُجَّار.

الثالثُ: نُقولٌ مُجْمَلةٌ، محتملةٌ لخلاف ما ذهبوا إليه.

فأمَّا احتجاجُهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فهو نَظيرُ احتجاجهم بعينه علىٰ إباحة السَّماع الشَّيطانيِّ الفِسْقيِّ بقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]، قالوا: والقولُ عامٌّ، فحمَّلوا لفظَه ومعناه ما هو بريءٌ منه.

وإنَّما القولُ ها هنا ما أمرَهم الله باستماعه، وهو وَحْيُهُ الذي أنزلَه علَىٰ رسوله، وهو الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١].

فهذا هو القول الذي أُمروا باتِّباع أحسنِه، كما قال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] والنَّظر الذي أمَرَنا سبحانه به النظر المُؤَدِّي إلىٰ معرفته، والإيمان به، ومحبَّته، والاستدلالِ علىٰ صدق رُسُله فيما أخبروا به عنه

من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وثوابه، وعقابه لا النظرُ الذي يُوجب تعلُّق الناظر بالصُّورة التي يَحْرُمُ عليه الاستمتاع بها نظرًا ومباشرةً، فهذا النظر الذي أمرَ الله سبحانه صاحبه بغضِّ بصره، هذا مع أنَّ القومَ لم يُبْتَلَوْا بالمُرْدان، وهم كانوا أشرفَ نفوسًا، وأطهر قلوبًا من ذلك، فإذا أمرَهم بغضِّ أبصارِهم عن الصُّورة التي تُباح لهم في بعض الأحوال خشيةَ الافتتان، فكيف بالنظر إلىٰ صورةٍ لا تُباح بحال؟ ثم يُقال لهذه الطائفة: النظر الذي ندبَ الله إليه نظرٌ يُثاب عليه الناظر، وهو نظرٌ مُوافقٌ لأمره، يقصدُ به معرفة ربِّه ومحبَّته، لا النظرُ الشَّيطانيُّ.

وسُئل شيخُنا[1] عَمَّنْ يقول: النظر إلىٰ الوجه الحسن عبادةٌ، ويروي ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا؟ فأجابَ بأن قال: هذا كذبٌ باطلٌ، ومن روىٰ ذلك عن النَّبيِّ ﷺ أو ما يُشبهه؛ فقد كذبَ عليه ﷺ، فإنَّ هذا لم يَرْوِه أحدٌ من أهل الحديث، لا بإسنادٍ صحيح، ولا ضعيفٍ، بل هو من الموضوعات، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين، فإنَّه لم يقل أحدٌ: إنَّ النظر إلىٰ المرأة الأجنبية والصَّبيِّ الأمردِ عبادةٌ.

ومن زعمَ ذلك فإنَّه يُستتاب، فإن تابَ وإلا قُتل، فإنَّ النظرَ منه ما هو حرامٌ، ومنه ما هو مكروهٌ، ومنه ما هو مباحٌ، والله أعلم.

وأمَّا الحديث الآخر، وهو: «اطْلُبُوا الخَيْرَ منْ حِسَانِ الْوُجوه» فهذا وإن كان قد رُوي بإسنادٍ، إلا أنَّه باطلٌ، لم يصحَّ عن رسول الله ﷺ.

ولو صحَّ لم يكن فيه حُجَّةٌ لهذه الطائفة، فإنَّه إنَّما أمرَ بطلب الخير منهم لا بطلب وِصَالهم، ونيل المحرَّم منهم، فإنّ الوجه الجميل مَظِنَّةُ الفِعْل الجميل، فإنَّ الأخلاقَ في الغالب مناسبةٌ للخِلْقة، بينهما نسبٌ قريب.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٤١٠، ٢١/ ٢٤٣ - ٢٥٩).

وأمَّا أمرُ النَّبيِّ ﷺ للخاطب بأن ينظر إلىٰ المخطوبة؛ فذلك نظرٌ للحاجة، وهو مأمورٌ به أمْرَ استحبابٍ عند الجمهور، وأمْرَ إيجاب عند بعض أهل الظَّاهر، وهو من النَّظر المأْذون فيه لمصلحةٍ راجحةٍ، وهو دخولُ الزَّوج علىٰ بصيرةٍ، وأبعدُ من ندمه ونُفْرَته عن المرأة، فالنَّظرُ المباحُ أنواعٌ، هذا أحدُها، بخلاف النظر إلىٰ الصُّورة المحرَّمة.

فصل

هل أجاز الشافعي للعاشق الضم؟

وأما ما ذكره السمعانيُّ عن الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَمِن تحريف النَّاقل، والسَّائلُ لم يذكر لفظ الشَّافعيِّ، والبيتان هكذا هما:

سألتُ الفتى المكيَّ هل في تزاوُرٍ ... ونظرةِ مُشتاقِ الفؤاد جُناحُ؟
فقالَ مَعاذَ اللهِ أن يُذهبَ التُّقى ... تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جراحُ

فهذا السَّائل هو الذي ذكر السؤَال والجواب، وهو مجهولٌ لا يُعْرَف؛ هل هو ثقةٌ، أم لا؟ ثم إنَّ الجوابَ لا يَدُلُّ علىٰ مقصود هذه الفِرْقة بوجه ما، بل هو حجةٌ عليها، فإنَّه نهىٰ أن يُذهبَ التُّقىٰ تلاصُق هذه الأكباد، فكأنَّه قال: لا تتلاصق هذه الأكباد؛ لئلا يُذهبَ التُّقىٰ تلاصقُها، فالتَّلاصقُ المذكور فاعلٌ، والتُّقىٰ مفعولٌ، فكأنَّه قال: لا تفعل؛ لئلا يُذهب التلاصُق التُّقىٰ. وجوابٌ آخرُ: وهو أنَّ هذا التَّلاصُق إنَّما يكون غيرَ مُذْهبٍ للتُّقىٰ إذا كان في عِشْقٍ مُباحٍ، بل يُستحبُّ، كعشق الزوجة والأمة.

وأمَّا ما ذكرتُم من مسألة التزام أدنىٰ المفسدتين لدفع أعلاهما؛ فنحن لا ننكر هذه القاعدة، بل هي من أصحِّ قواعد الشريعة، ولكنَّ الشأن في إدخال هذه الصورة

فيها، ونحن نحاكمكم إلىٰ هذه القاعدة نفسها، فإنَّ احتمال مفسدة ألم الحبِّ مع غضِّ البصر، وعدم تقبيل المحبوب، وضمِّه، ونحو ذلك أقلّ من مفسدة النَّظر والتَّقبيل، فإنَّ هذه المفسدة تَجُرُّ إلىٰ هلاك القلب وفساد الدين، وغايةُ ما يُقَدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك سقمُ الجسد، أو الموتُ تفاديًا عن التعرُّض للحرام، فأين إحدىٰ المفسدتين من الأخرىٰ؟ علىٰ أنَّ النظر، والقُبلة، والضمَّ لا يمنع السُّقم والموت الحاصل بسبب الحبِّ، فإنَّ الْعِشْقَ يزيدُ بذلك، ولا يزول.

فما صبابَةُ مشتاقٍ على أمَلٍ ... من الوِصال كمشتاقٍ بلا أمَلِ

ولا ريب أنَّ محبَّة من طَمِعَ أقوىٰ من محبَّة من يئس من محبوبه، ولهذا قيل:

وأبرحُ ما يكونُ الحبُّ يومًا ... إذا دَنتِ الدِّيارُ من الدِّيارِ

وأمَّا مسألة مَنْ خاف تشقُّق أُنْثَيَيْه، وأنَّه يباح له الوَطْءُ في رمضان؛ فهذا ليس علىٰ إطلاقه، بل إنْ أمكنه إخراجُ مائه بغير الوَطءِ لم يجُزْ له الوَطءُ بلا نزاع، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح؛ فإنَّه يجري مجرىٰ الإفطار لعذر المرض، ثمَّ يقضي ذلك اليوم، والإفطار بالمرض لا يتوقَّف علىٰ خوف الهلاك، فكيف إذا خاف تلف عُضو من أعضاء القايل، بل هذا نظيرُ من اشتدَّ عطشه، وخاف إن لم يشرب أن يَحْدُثَ له داءٌ من الأدواء، أو يتلفَ عضوٌ من أعضائه، فإنَّه يجوز له الشربُ، ثم يقضي يومًا مكانه.

فإنْ قيل: فلو اتفق له ذلك، ولم يكن عنده إلاَّ أجنبيةٌ؛ هل يُباح له وَطْؤُها؛ لئلا تتلف أُنْثَيَاه؟

قيل: لا يُباح له ذلك.



الباب العاشر
في ذكر حقيقة العشق وأوصافه
وكلام النَّاس فيه

ص: ٢١٠

فالَّذي عليه الأطباء قاطبةً: أنَّه مرض وَسْوَاسي، يَجْلِبُهُ المرءُ إلىٰ نفسه بتسليط فكره علىٰ استحسانِ بعض الصُّور والشمائل، وسببُه النفسانيُّ: الاستحسانُ والفكر.

وقال بعضُ الفلاسفة: العشق طمعٌ يتولَّد في القلب، ويتحرَّك، ويَنْمي، ثم يَتربَّىٰ، وتجتمعُ إليه موادُّ من الحرص، وكلَّما قويَ؛ ازداد صاحبُه في الاهتياج واللَّجاج والتَّمادي في الطمع والحرص علىٰ الطَّلب، حتىٰ يؤديه ذلك إلىٰ الغمّ والقلق.

وقال أرسطاطاليس: العِشْقُ عمىٰ الحِسِّ عن إدراك عيوب المحبوب.

ومن هذا أخذ جرير قوله:

فلست بـراءٍ عيبَ ذي الـودِّ كلَّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيا

فعينُ الرِّضا عـن كلِّ عيبٍ كَليلَةٌ ... ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَساويا

وقال أرسطو: العشقُ جهلٌ عارضٌ، صادفَ قلبًا فارغًا لا شُغْل له من تجارةٍ وصناعةٍ.

وقال غيره هو سوءُ اختيارٍ صادفَ نفسًا فارغة.

قال قيس بن الملوَّح:

أتـاني هَواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوى ... فَـصَـادَفَ قلبًا خـاليًـا فتمكَّنَا

وقال بعضُهم: لم أرَ حقًّا أشبه بباطلٍ، ولا باطلًا أشبَهَ بحقٍّ من العِشْق، هزلُه جِدٌّ، وجِدُّه هزلٌ، وَأَوَّلُه لَعِبٌ، وآخرُه عَطَبٌ.

وقال الجاحظ: العِشْقُ اسمٌ لما فَضَل عن المحبَّة، كما أنَّ السَّرَف اسم لما جاوزَ الجود، والبُخلَ اسمٌ لِمَا جاوزَ الاقتصاد، فكلُّ عشقٍ يُسمَّىٰ حبًّا، وليس كل حبٍّ يُسمَّىٰ عِشْقًا، والمحبةُ جنسٌ، والعشقُ نوعٌ منها. ألا ترىٰ أنَّ كلَّ محبَّةٍ شوقٌ، وليس كلُّ شوق محبةً؟

وقال الأصمعيُّ: سألت أعرابيًّا عن العشق فقال: جلَّ والله عن أن يُرىٰ! وخَفِي عن أبصار الورىٰ، فهو في الصُّدور كامنٌ ككُمون النار في الحجر، إن قُدح؛ أورىٰ، وإن تُرك؛ تَوارىٰ.

وقال بعضُهم: العشقُ نوعٌ من الجنون، والجنون فنونٌ، فالعِشْق فنٌّ من فنونه. واحتجَّ بقول قيس:

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهوى فقلتُ لهم ... العِشْقُ أعظمُ مِمَّا بالمجانينِ

العِشْقُ لا يستفيقُ الدَّهرَ صاحبُه ... وإنَّما يُصْرَع المجنونُ في الحينِ

وقيل: العشق ملكٌ غشومٌ، مُسلَّطٌ ظلومٌ، دانت له القلوب، وانقادت له الألبابُ، وخضعت له النُّفوس. العقل أسيرُه، والنظرُ رسولُه، واللحظُ لفظه، دقيقُ المسلك، عسيرُ المَخْرَج.

وقيل: أوَّلُ العشق عَناء، وأوسطُه سُقْم، وآخرُه قتل.

الباب الحادي عشر

في العشق: هل هو اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار أو أمرٌ اختياريٌّ؟ واختلاف النَّاس في ذلك، وذكر الصَّواب فيه

ص: ٢١٨

فنقول: اختلف الناس في العشق: هل هو أمر اختياريٌّ أو اضطراريٌّ خارجٌ عن مقدور البشر؟

فقالت فرقة: هو اضطراريٌّ، وليس باختياريٍّ، قالوا: وهو بمنزلة محبَّة الظمآن للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا ممَّا لا يُمْلَكُ.

وقال أبو محمد بنُ حزم: قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين! إني رأيت امرأةً فعَشِقْتُها! فقال عمر: ذاك ممَّا لا يُملك.

وقال كامل في سَلْمىٰ:

يلومُونني في حُبِّ سَلْمَى كأنَّما ... يَرَوْنَ الهَوى شيئًا تَيَمَّمْتُه عَمْدَا

ألا إنَّما الحبُّ الذي صَدَع الحَشَا ... قضاءٌ من الرَّحمن يَبْلو به العَبْدَا

ويَدُلّ علىٰ ذلك من السُّنَّة ما رواه البخاريُّ في صحيحه[1] من قصَّة بَرِيرة: أنَّ زوجَها كان يمشي خلفها بعد فراقها له، وقد صارت أجنبيةً منه، ودموعُه تسيلُ علىٰ خدَّيه، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«يَا عبَّاسُ ألا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَة، ومن بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغيثًا؟»**، ثم قال لها: **«لو رَاجَعْتِيه»** فقالت: أتأمُرُني؟ فقال: **«إنَّما أنا شافِعٌ»** قالت:

(١) رقم (٥٢٨٣).

لا حاجةَ لي فيه. ولم يَنْهَهُ عن عشقها في هذه الحالة؛ إذ ذلك شيءٌ لا يُملكُ، ولا يدخلُ تحت الاختيار.

قالوا: وقد فسَّر كثيرٌ من السَّلَف قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] بالعشق. وهذا لم يُريدوا به التَّخصيص، وإنَّما أرادوا به التمثيلَ، وأنَّ العشق من تحميل ما لا يُطاق.

والمراد بالتَّحميل ها هنا التحميلُ القدَريُّ، لا الشَّرعيُّ الأمريُّ.

قالوا: وقد رأينا جماعةً من العُشَّاق يطوفون علىٰ مَنْ يدعو لهم أن يُعافِيَهم الله من العِشْق، ولو كان اختيارًا؛ لأزالوه عن نفوسهم.

وقالت فرقةٌ أُخرىٰ: بل هو اختياريٌّ تابعٌ لهوىٰ النفس وإرادتها، بل هو استحكامُ الهوىٰ الذي مدح الله مَنْ نهىٰ عنه نفسَه، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

فمحالٌ أن ينهىٰ الإنسانُ نفسَه عما لا يدخلُ تحت قدرته.

قالوا: والعشقُ حركةٌ اختياريةٌ للنَّفس إلىٰ نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخلُ تحت قدرة العبد.

قالوا: وقد ذمَّ الله ﷻ أصحاب المحبَّة الفاسدة الذي يُحبُّون من دونه أندادًا، ولو كانت المحبَّةُ اضطراريةً، لما ذُمُّوا علىٰ ذلك.

قالوا: ولأن المحبَّةَ إرادةٌ قويَّةٌ، والعبدُ يُحْمدُ، ويُذَمُّ علىٰ إرادتِه، ولهذا يُحْمَد مُريدُ الخير، وإن لم يفعلْه، ويُذَمّ مريدُ الشرِّ، وإن لم يفعلْه.

وقد ذمَّ الله تعالىٰ الذين يُحِبُّون أن تَشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا، وأخبرَ أنَّ لهم عذابًا أليمًا.

ولو كانت المحبَّةُ لا تُملك لم يتوعَّدْهم بالعذابِ علىٰ ما لا يدخلُ تحت قُدرتهم.

وفصل النِّزاع بين الفرقتين: أنَّ مبادئ العشق وأسبابَهُ اختياريةٌ داخلةٌ تحت التكليف، فإنَّ النظرَ والتفكُّر والتعرُّض للمحبَّة أمرٌ اختياريٌّ، فإذا أتىٰ بالأسباب كان تَرَتُّبُ المُسبَّبِ عليها بغير اختياره، كما قيل:

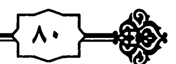
تَوَلَّعَ بالعِشْق حتى عَشِقْ فلما استقلَّ بهِ لَمْ يُطِقْ
رأى لُجَّةً ظنَّها مَوْجَةً فلمَّا تمكَّن منها غَرِقْ
ولما رأى أدْمُعًا تَسْتَهِلّ وأبصر أحشاءه تحترقْ
تمنَّى الإقالةَ مِنْ ذنبه فلم يستطعْها ولم يسْتفقْ

وهذا بمنزلة السُّكر مع شُرْب الخمر، فإنَّ تناوُلَ المُسكر اختياريٌّ، وما يتولَّد عنه من السُّكر اضطراريٌّ، فمتىٰ كان السببُ واقعًا باختياره لم يكن معذورًا فيما تولَّد عنه بغير اختياره، فمتىٰ كان السببُ محظورًا لم يكن السَّكرانُ معذورًا.

ولا ريبَ أنَّ متابعة النظر، واستدامةَ الفكر بمنزلة شُرب المُسكر، فهو يُلام علىٰ السَّبب، ولهذا إذا حصلَ العِشْقُ بسببٍ غير محظورٍ؛ لم يُلَمْ عليه صاحبُه، كمن كان يعشقُ امرأتَه، أو جاريته، ثم فارقها، وبقي عشقُها غير مفارقٍ له، فهذا لا يُلام علىٰ ذلك، كما تقدَّم في قصَّة بَرِيرَة ومُغِيث.

وكذلك إذا نظر نظرة فجَاءَةٍ، ثم صرفَ بصرَه، وقد تمكَّن العِشْقُ من قلبه بغير اختياره، علىٰ أنَّ عليه مُدافعتَه، وصرفَه عن قلبه بضدِّه، فإذا جاءَ أمرٌ يَغْلِبُه؛ فهناك لا يُلام بعد بذل الجهد في دفعه. ومِمَّا يُبيِّنُ ما قلناه: أنَّ سكرَ العشق أعظمُ من سُكر الخمر، كما قال تعالىٰ عن عُشَّاق الصُّور من قوم لوطٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وإذا كان أدنىٰ السُّكرَين لا يُعْذَر صاحبُه إذا تعاطَىٰ أسبابَه؛ فكيف يُعْذر صاحبُ السُّكر الأقوىٰ مع تعاطِي أسبابه؟ وإذ قد وصلنا إلىٰ هذا الموضع؛ فلنذكرْ بابًا في سَكْرةِ الحُبِّ وسببها.



الباب الثاني عشر
في سَكْرَةِ العُشَّاق

ص: ٢٢٧

ولابدَّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السُّكْرِ وسببه وتَولُّده، فنقول: السُّكر لذّةٌ يغيبُ معها العقلُ الذي يُعْلَم به القولُ، ويحصل معه التمييز. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فجعل الغاية التي يزول بها حكمُ السكر أن يعلم ما يقول، فمتىٰ لم يعلم ما يقولُ فهو في السُّكْر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بماذا يُعلم أنَّه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره.

ويُذْكر عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشىٰ سرَّه المكتوم.

وحرَّم الله سبحانه السُّكْرَ لشيئين ذكرهما في كتابه في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] فأخبر سبحانه: أنَّه يُوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل، ويمنعُ المصلحة التي لا تَتِمُّ إلا بالعقل.

وقد يكون سبب السُّكر ألمًا، كما يكونُ لذَّةً، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢].

والمقصودُ أنَّ السُّكْرَ يُوجب اللَّذة، ويمنعُ العلم، فمنه السُّكْرُ بالأطعمة والأشربة، فإنَّ صاحبَها يحصل له لذَّةٌ وسرورٌ بها، يحملُه علىٰ تناوُلها، لأنها تغيِّب عنه عقله، فتغيِّب عنه الهموم والغموم، والأحزان تلك الساعة، ولكن يغْلَطُ في ذلك، فإنَّها لا تزولُ، ولكن تتوارىٰ، فإذا صحا عادت أعظم ما كانت وأوفرَه، فيدعُوه عَوْدُها إلىٰ العَوْد، كما قال الشاعر:

وكأْسٍ شربتُ على لذَّةٍ   وأُخرى تداوَيتُ مِنْها بِها

ومن النَّاس من يقصدُ بها منفعة البدن، وهو غالطٌ، فإنَّه يترتب عليها من المضرَّة المتولِّدة عن السُّكْر ما هو أعظمُ من تلك المنفعة بكثير، واللَّذَّة الحاصلةُ بذكر الله والصَّلاة عاجلًا وآجلًا أعظمُ، وأبقىٰ، وأدفع للهموم والغموم والأحزان.

وتلك اللَّذَّة أجلبُ شيءٍ للهُموم والغُموم عاجلًا وآجلًا، ففي لذَّة ذكر الله، والإقبال عليه، والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشَّريفة العظيمة، السَّالمة عن المفاسد الدَّافعة للمضارِّ: غنىً وعِوَضٌ للإنسان - الذي هو إنسانٌ - عن تلك اللَّذَّة النَّاقصة القاصرة المانعة لما هو أكملُ منها، الجالبة لألمٍ أعظم منها.

حب الصور من أسباب السكر

فصل

ومن أسباب السُّكْر حبُّ الصُّوَر، فإنَّه إذا استحكم الحبُّ، وقوِيَ؛ أسكر المُحِبَّ، وأشعارُهم بذلك مشهورةٌ كثيرةٌ، ولا سيَّما إذا اتَّصلَ الجماعُ بذلك الحُبِّ، فإنَّ صاحبه ينقصُ تمييزه، أو يعدمُ في تلك الحالة، بحيث لا يميِّز، فإن انضاف ذلك السُّكر إلىٰ سُكْر الشراب، بحيث يجتمعُ عليه سُكْرُ الهوىٰ، وسُكْرُ الخمر، وسُكْرُ لذَّة الجِماع؛ فذلك غاية السُّكْر. ومنه ما يكون سببُه حبَّ المال، والرِّئاسة، وقوَّة الغضب، فإنَّ الغضب إذا قَوِيَ أوجبَ سكرًا يقرُب مِنْ سُكْرِ الخمر.

ويدخل ذلك في الإغلاق الذي أبطل النَّبيُّ ﷺ وقوع الطلاق فيه بقوله: «**لا طلاق في إغْلاق**» رواه أبو داود[1]، وقال: أظنُّه الغضب. وفسَّره الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أيضًا بالغضب.

ومن هذا قولُ الواجد لراحلته بعد يأْسه منها، وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال رسول الله ﷺ: «**أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفرحِ**»[2] ولم يكن بذلك كافرًا؛ لعدم قصْدِه.

وذكر النَّبيُّ ﷺ ذلك تحقيقًا لشدَّة الفرح؛ الذي أفضىٰ به إلىٰ ذلك.

---

(١) رقم (٢١٩٣). وأخرجه ابن ماجه (٢٠٤٦)، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

فصل

سماع الغناء من أقوى أسباب السكر

ومن أقوىٰ أسباب السكر الموجبة له: سماعُ الأصوات المطربة من جهتين: مِنْ جهة: أنَّها في نفسها تُوجب لذَّةً قويةً، ينغمر معها العقل، ومن جهة: أنَّها تُحرِّك النفسَ إلىٰ نحو محبوبها كائنًا ما كان، فيحصُل بتلك الحركة والشوقِ والطلبِ، مع التخيُّل للمحبوب، وإدناءِ صورته إلىٰ القلب واستيلائها علىٰ الفكرة لذَّةٌ عظيمةٌ تقهرُ العقل، فتجتمع لذَّةُ الألحان ولذَّة الأشجان، ولهذا يَقْرِنُ المعتنون بهذه اللذَّات سماعَ الألحان بالشراب كثيرًا؛ ليكمل لهم السُّكْر بالشراب، والعشقِ، والصوتِ المُطْرِبِ، فيجدون من لذَّة الوِصال، وسكرِه في هذه الحال ما لا يجدونه بدونها.

فالخمرُ شرابُ الأجسام، والعشق شراب النفوس، والألحانُ شراب الأرواح، ولاسيَّما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب، ووصفُ حال المُحِبِّ علىٰ مقتضىٰ الحال التي هو فيها، فيجتمع سماعُ الأصوات الطيِّبة، وإدراكُ المعاني المناسبة، وذلك أقوىٰ بكثيرٍ من اللَّذَّة الحاصلة بكل واحد منها علىٰ انفراده، فتستولي اللَّذَّة علىٰ النَّفس، والرُّوح، والبدن أتمَّ استيلاء، فيحدث غايةُ السُّكْر. فكيف يدَّعي العذر من تعاطىٰ هذه الأسباب، ويقول: إنَّ ما تولَّد عنها اضطراريٌّ غيرُ اختياريٍّ، وبالله التوفيق.

الباب الثالث عشر
في أنَّ اللذَّة تابعةٌ لِلْمَحَبَّة في الكمال والنُّقصان

ص: ٢٣٣

فكلَّما قَوِيَتِ المحبَّةُ قويت اللذَّةُ بإدراك المحبوب، وهذا البابُ من أجلِّ أبواب الكتاب، وأنفعِها، ونذكرُ فيه بيانَ معرفة اللذَّة، وأقسامها، ومراتبها، فنقول: أما اللذَّة ففُسِّرت بأنَّها إدراكُ المُلائم، كما أنَّ الألم إدراك المُنافي.

قال شيخنا: والصَّوابُ: أنْ يُقال: إدراكُ المُلائم يُسببُ اللذَّة، وإدراك المُنافي يُسبب الألم، فاللذَّة والألم يَنْشآن عن إدراك المُلائم والمُنافي، والإدراك سببٌ لهما، واللذَّة أظهر من كل ما يُعرَّف به، فإنها أمرٌ وجدانيٌّ، وإنما تُعْرَف بأسبابها وأحكامها. واللذَّة، والبهجةُ، والسرورُ، وقُرَّة العين، وطيب النَّفس، والنَّعيمُ ألفاظٌ مُتقاربةُ المعنىٰ، وهي أمرٌ مطلوبٌ في الجملة، بل ذلك مقصود كلِّ حيٍّ، وذلك أمرٌ ضروريٌّ مِنْ وجوده، وذلك في المقاصد والغايات بمنزلة الحِسِّ والعلوم البديهية في المبادئ والمقدّمات، فإنَّ كل حيٍّ له علمٌ وإحساسٌ، وله عملٌ وإرادةٌ، وعلمُ الإنسان لا يجوزُ أن يكون كلُّه نظريًّا استدلاليًّا؛ لاستحالة الدَّور والتسلسل، بل لابدَّ له مِنْ علمٍ أوَّليٍّ بديهيٍّ، يَبْدَهُ النَّفسَ، ويبتدئ فيها، فلذلك يُسمَّىٰ بديهيًّا وأوَّليًّا، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النَّفس، فيُسمَّىٰ ضروريًّا.

فإنَّ النفس تُضطرُّ إلىٰ العلم تارةً، وإلىٰ العمل أُخرىٰ، وكذلك العملُ الاختياريُّ المراديُّ له مُرادٌ، فذلك المرادُ إمَّا أن يُراد لنفسه، أو لشيءٍ آخر، ولا يجوزُ أن يكون كلُّ مرادٍ مرادًا لغيره؛ حذرًا من الدَّور والتَّسلسل، فلابدَّ من مرادٍ

مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه، فإذا حصل المطلوبُ المرادُ المحبوب؛ فاقترانُ اللذَّة، والنِّعمة، والفرح، والسُّرور، وقُرَّة العين به علىٰ قدر قوَّة محبته، وإرادته ورغبته فيه، وذلك أمرٌ ذَوْقِيٌّ وجديٌّ، ولهذا يغلِب علىٰ أهل الإرادة والعمل من السَّالكين اسمُ الذوق والوَجد؛ لما في وجود المراد المطلوب من الذَّوق والوجد الموجب للفرح، والسُّرور، والنَّعيم.

فها هنا ثلاثةُ أنواعٍ من الأسماء متقاربة المعاني:

أحدُها: الشَّهوةُ، والإرادةُ، والميل، والطلب، والمحبَّة، والرغبةُ، ونحوُها.

الثاني: الذَّوقُ، والوَجدُ، والوصولُ، والظَّفَرُ، والإدراكُ، والحصولُ، والنَّيْلُ، ونحوُها.

الثالث: اللذَّةُ، والفرَح، والنعيم، والسرور، وطيب النفس، وقرّة العين، ونحوُها.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمةٌ.

فصل

أعظم لذة هي لذة الدار الآخرة ونعيمها

وإذا كانت اللذَّةُ مطلوبةً لنفسها فهي إنَّما تُذَمُّ؛ إذا أعقبتْ ألمًا أعظمَ منها، أو منعت لذَّةً خيرًا منها، وتُحمَدُ؛ إذا أعانت علىٰ اللذَّة الدائمة المستقرة، وهي لذةُ الدار الآخرة ونعيمها؛ الذي هو أفضلُ نعيم وأجلُّه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦ - ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال العارفون بتفاوتِ مابين الأمرين لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢ - ٧٣].

والله سبحانه إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلَّها بأسرها فيها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ: أَعْدَدْتُ لعِبَادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ، بَلْه ما اطَّلَعْتُمْ عليه**»[١] أي: غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده النَّاصحُ لقومه، الشفيقُ عليهم؛ حيث قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨ - ٣٩] فأخبرهم أنَّ الدُّنيا متاعٌ يُتَمتعُ بها إلىٰ غيرها، والآخرة هي المستقرُّ والغاية.

فصل

اللذة الموصلة إلى رضوان الله تعالى محبوبة مرضية

وإذا عُرِفَ أنَّ لَذَّاتِ الدنيا ونعيمها متاعٌ، ووسيلةٌ إلىٰ لَذَّات الدَّار الآخرة، ولذلك خُلقت، كما قال النبي ﷺ: «**الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيْرُ مَتاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[٢]= **فكلُّ لذَّة أعانتْ على لَذَّات الدار الآخرة؛ فهي محبوبةٌ مَرْضِيَّةٌ للرَّب تعالى، فصاحبُها يلتذُّ بها من وجهين: من جهة تنعُّمه وقُرَّة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى**

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

مرضاة ربِّه، وإفضائها إلى لذَّة أكمل منها، فهذه هي اللذَّة التي ينبغي للعاقل أن يسعىٰ في تحصيلها، لا اللذَّة التي تُعْقِبُهُ غايةَ الألم، وتفوِّتُ عليه أعظمَ اللذَّات.

ولهذا يثابُ المؤمنُ علىٰ كلِّ ما يلتذُّ به من المباحات؛ إذا قصد به الإعانة، والتوصُّل إلىٰ لذَّة الآخرة، ونعيمها، فلا نسبة بين لذَّة الحرام ولذَّة صاحب الزَّوجة، أو الأمةِ الجميلة؛ التي يحبها، وعينُه قد قَرَّت بها، فإنَّه إذا باشرها، والتذَّ قلبُه، وبدنُه، ونفسُه بوصالها؛ أُثيب علىٰ تلك اللذة في مقابلة عقوبة صاحب اللذَّة المحرَّمة علىٰ لذَّته،، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ**». قَالُوا: يا رسول الله! يأْتي أحدُنا شهْوتَهُ ويكون لهُ فيها أَجْرٌ؟! قال: «**أرأيْتُمْ لَوْ وَضَعها في الحَرامِ أكانَ عليهِ وِزْرٌ؟**» قالوا: نعم. قال: «**فكذلك إذا وضعها في الحلال يكونُ لهُ أجرٌ**»[١].

واعلم أنَّ هذه اللذَّةَ تتضاعف، وتتزايد بحسب ما عند العبد من الإقبال علىٰ الله، وإخلاص العمل له، والرَّغبة في الدار الآخرة، فإنَّ الشهوة واللذاذة المنقسمة في الصُّور اجتمعت له في صورةٍ واحدة، والخوف والهمَّ والغمَّ الذي في اللَّذة المحرَّمة معدومٌ في لذَّته، فإذا اتفق له مع هذا صورةٌ جميلةٌ، ورُزق حُبَّها، ورُزقت حُبَّه، وانصرفت دواعي شهوته إليها، وقصر بصره عن النَّظر إلىٰ سواها، ونفسه عن التطلُّع إلىٰ غيرها، فلا مناسبة بين لذَّته ولذَّة صاحب الصورة المحرَّمة، وهذا أطيب نعيم يُنالُ من الدُّنيا، وجعله النبي ﷺ ثالث ثلاثة بها يُنال خيرُ الدُّنيا والآخرة، وهي: «**قلبٌ شاكرٌ، ولسانٌ ذاكرٌ، وزوجةٌ حسناءُ، إن نظر إليها؛ سرَّته، وإن غاب عنها، حفظته في نفسها وماله**»[٢]، والله المستعان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٥٦)، وابن ماجه (٣٠٩٤) وحسنه الترمذي.

وقال القاسم بن عبد الرحمن[1]: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأُ القرآن، فإذا فرغ قال: أين العُزّاب؟ فيقول: ادنوا مني، قولوا: اللهم ارزقني امرأةً إذا نظرتُ إليها سرتني، وإذا أمرتُها أطاعتني، وإذا غِبْت عنها حفظت غيبتي في نفسها ومالي.

والألمُ، والحزنُ، والهمُّ، والغمُّ ينشأُ من عدم العلم بالمحبوب النَّافع، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به، أو من عدم إدراكه والظَّفر به مع محبته، وإرادته، وهذا من أعظم الألم.

ولهذا يكون ألمُ الإنسان في البرزخ وفي دار الحيوان بفوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدُّنيا من ثلاثة أوجه:

أحدُها: معرفتُه هناك بكمال ما فاته، ومقداره.

الثاني: شدَّةُ حاجته إليه، وشوقُ نفسه إليه، مع أنَّه قد حيل بينه وبينه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

الثالث: حصولُ ضدِّه المؤلم له.

فليتأمل العاقلُ هذا الموضع، ولِيُنْزِل نفسه منزلة من قد فاته أعظمُ محبوب، وأنفعُه، وهو أفقرُ شيءٍ، وأحوجُهُ إليه فواتًا لا يُرْجىٰ تدارُكُه. وحصل علىٰ ضِدِّه، فيا لها من مصيبةٍ ما أوجعَها! وحالةٍ ما أفْظعها! فأين هذه الحال من حالة من يلتذُّ في الدُّنيا بكل ما يقصد به وجه الله ﷻ من الأكل، والشُّرب، واللِّباس، والنكاح، وشفاء الغيظ بقهر العدو، وجهادٍ في سبيله؟! فضلًا عمَّا يلتذُّ به من معرفة ربه، وحبِّه له، وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، والإقبال عليه، وإخلاص العمل له، والرِّضا

---

(١) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص٩٩).

به، وعنه، والتفويض إليه، وفرح القلب وسروره بقربه، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، كما في الحديث الذي صحَّحه ابن حِبَّان، والحاكم: «**وأسألُك لذَّة النَّظرِ إلىٰ وجْهِكَ، والشوق إلىٰ لِقَائِكَ**»(١).

وهذه اللذَّةُ لا تزال في الدُّنيا في زيادةٍ مع تنغيصها بالعدوِّ الباطن من الشيطان، والهوىٰ، والنَّفس، والدُّنيا، والعدوِّ الظاهر، فكيف إذا تجرَّدت الروح، وفارقت دار الأحزان والآفات، واتَّصلت بالرفيق الأعلىٰ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

فإذا أفضىٰ إلىٰ دار النَّعيم؛ فهناك من أنواع اللَّذة، والبهجة، والسُّرور ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فبؤسًا، وتعسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة؛ التي لا يَهُزُّها الشوقُ إلىٰ ذلك طربًا، ولا تَتَّقِدُ نارُ إرادتها لذلك رغبًا، ولا تبعد عمَّا يَصُدُّ عن ذلك رهبًا، فبصائرُها كما قيل:

خفافيشُ أعشاها النَّهارُ بضوئه ... ولاءَمَها قِطْعٌ من اللَّيل مظلمُ

تجول حول الحُشِّ؛ إذا جالت النفوس العلويَّةُ حول العرش، وتندسُّ في الأحجار؛ إذا طارت النُّفوس الزكيَّة إلىٰ أعلىٰ الأوكار.

فلم تَرَ أمثال الرِّجالِ تَفاوَتُوا ... إلى الفَضْلِ حتَّى عُدَّ أَلفٌ بواحِدِ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠).

اللذة الحقيقة لا يعقبها ألم

فصل

وكلُّ لذَّةٍ أعقبت ألمًا، أو منعت لذَّةً أكمل منها؛ فليست بلذَّةٍ في الحقيقة، وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، فأيُّ لذَّة لآكل طعامٍ شهيٍّ مسمومٍ يُقطِّع أمعاءَه عن قريب؟

وهذه هي لذَّات الكُفَّار والفُسَّاق بعلوِّهم في الأرض، وفسادهم، وفرحهم فيها بغير الحق، ومرحهم، وذلك مثل لذَّة الذين اتَّخذوا من دون الله أولياء يُحِبُّونهم كحبِّ الله، فنالوا بهم مودّةَ بَيْنِهِمْ في الحياة الدُّنيا، ثم استحالت تلك اللذَّة أعظمَ ألمٍ وأمرَّه.

ومن ذلك لذَّةُ العقائد الفاسدة، والفرحُ بها، ولذَّةُ غلبة أهل الجور، والظلم، والعدوان، والزِّنىٰ، والسرقة، وشرب المسكرات؛ وقد أخبر الله ﷻ: أنَّه لم يُمكِّنهم من ذلك لخيرٍ يريده بهم، إنَّما هو استدراج منه ليُنيلَهم به أعظم الألم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

اللذة التي لا توصل لدار القرار باطلة

فصل

وأمَّا اللذَّة التي لا تُعقب ألمًا في دار القرار، ولا تُوصل إلىٰ لذَّةٍ هناك؛ فهي لذَّةٌ باطلةٌ؛ إذ لا منفعة فيها ولا مضرَّة، وزمنُها يسيرٌ، ليس لتمتُّع النفس بها قدر، وهي لا بد أن تشغل عما هو خيرٌ وأنفعُ منها في العاجلة والآجلة؛ وإن لم تشغل عن أصل اللذَّة في الآخرة، وهذا القسم هو الذي عناه النبيُّ ﷺ بقوله: «**كلُّ لهْوٍ يلْهُو به الرَّجُل فهو باطِلٌ إلا رَمْيَهُ بقوسهِ، وتأْدِيبَهُ فرَسَهُ، ومُلاعبَتَهُ أهْلَهُ؛ فإنَّهُنَّ من الحَقِّ**» رواه مسلم[1].

---

(١) الذي أخرجه مسلم (١٩١٨) من حديث عقبة بن عامر بلفظ: «ستفتح عليكم أرضون،

ولهذا كانت لذَّة اللَّعب بالدفِّ في العُرس جائزةً؛ فإنها تُعين علىٰ النكاح، كما تُعين لذّةُ الرمي بالقوس وتأْديبِ الفرس علىٰ الجهاد، وكلاهما محبوبٌ لله. فما أعانَ علىٰ حصول محبوبه؛ فهو من الحقِّ، ولهذا عدّ ملاعبة الرجل امرأته من الحقِّ؛ لإعانتها علىٰ مقاصد النكاح الذي يُحبُّه الله ﷻ، وما لم يُعِنْ علىٰ محبوب الربِّ تعالىٰ؛ فهو باطلٌ، لا فائدة فيه، ولكن إذا لم تكن فيه مضرَّةٌ راجحةٌ؛ لم يَحْرُم، ولم يُنْه عنه، ولكن إذا صدَّ عن ذكر الله، وعن الصَّلاة؛ صارَ مكروهًا بغيضًا للربِّ ﷻ مَقِيتًا عنده، إمَّا بأصله، وإما بالتَّجاوُز فيه.

وكلُّ ما صدَّ عن اللذَّة المطلوبة؛ فهو وبالٌ علىٰ صاحبه، فإنَّه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه، ويَجْلِبُ له اللذَّةَ المطلوبة الباقية؛ لكان خيرًا له، وأنفع.

ولمَّا كانت النفوس الضَّعيفةُ كنفوس النساء والصِّبيان، لا تنقاد إلى أسباب اللذَّة العظمى إلاَّ بإعطائها شيئًا من لذة اللهو واللَّعب، بحيث لو فطمتْ عنه كل الفطام طلبت ما هو شرٌّ لها منه، رخِّص لها من ذلك ما لم يُرخَّصْ فيه لغيرها، وهذا كما دخل عمر بن الخطاب ﷺ علىٰ النبي ﷺ وعنده جَوارٍ يَضربْنَ بالدُّفِّ، فأسكتهنَّ لدخوله، وقال: «**هذا رجُلٌ لا يُحِبُّ الْباطِل**»[1] فأخبر: أنَّ ذلك باطل، ولم يمنعهنَّ منه؛ لما يترتب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويتركُنَ به مفسدةً أرجح من مفسدته، وأيضًا: فيحصلُ لهم من التَّألُّمِ بتركه مفسدةٌ هي أعظم من مفسدته، فتمكينُهم من ذلك من باب الرَّحمة، والشَّفقة، والإحسان، كما مكَّن النَّبيُّ ﷺ أبا

ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه». والحديث الذي ذكره المؤلف أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٦/ ٢٨، ٢٢٢ - ٢٢٣)، وابن ماجه (٢٨١١)، وهو حديث صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥). وإسناده ضعيف.

عُمَيرٍ من اللعب بالعصفور بحضرته(١)، ومكَّنَ الجاريتين من الغناء بحضرته(٢)، ومكَّن عائشة ﵂ من النظر إلىٰ الحَبَشة وهم يلعبون في المسجد(٣)، ومكَّن تلك المرأة أن تضربَ علىٰ رأسه بالدُّف(٤)، ونظائر ذلك.

أقسام اللذات ثلاثة

فصل

إذا عُرف هذا، **فأقسامُ اللذّات ثلاثةٌ: لذَّةٌ جُثمانيةٌ، ولذة خياليةٌ وَهْميةٌ، ولذَّةٌ عقليةٌ رُوحانيةٌ.**

فاللذَّة الجثمانيةُ: لذَّةُ الأكل، والشُّرب، والجماع، وهذه اللذَّة يشتركُ فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيمُ، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذَّة؛ لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنَّها لو كانت كمالًا لكان أفضلُ الإنسان، وأشرفُهم، وأكملُهم أكثرَهم أكلًا، وشربًا، وجماعًا، وأيضًا: لو كانت كمالًا؛ لكان نصيبُ رُسُل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكملَ من نصيب أعدائه. فلمَّا كان الأمرُ بالضدّ؛ تبيَّن أنَّها ليست في نفسها كمالًا، وإنَّما تكون كمالًا إذا تضمَّنت إعانةً علىٰ اللذَّة الدائمة العظمىٰ، كما تقدَّم.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٤٩)، ومسلم (٨٩٢).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣١٢).

فصل

وأمَّا اللذَّة الوهميَّةُ الخيالية: فلذَّةُ الرِّئاسة، والتعاظُم علىٰ الخلق، والفخر، والاستطالة عليهم.

وهذه اللذَّة وإن كان طُلّابُها أشرف نفوسًا من طلَّاب اللذَّة الأولىٰ؛ فإن آلامَها وما تُوجبه من المفاسد والمضار أعظمُ من التذاذ النَّفس بها، فإنَّ صاحبَها منتصبٌ لمعاداة كلِّ منْ تعاظم وترأَس عليه. ولها شروطٌ وحقوقٌ تُفوِّت علىٰ صاحبها كثيرًا من لذاته الحسِّيَّة، ولا يتمُّ إلا بتحمُّل مشاقّ وآلام أعظمَ منها. فليست هذه في الحقيقة بلذَّةٍ؛ وإن فرحت بها النفسُ، وسُرَّت بحصولها.

وقد قيل: إنَّه لا حقيقة للذَّة في الدُّنيا، وإنَّما غايتُها دفعُ آلامٍ، كما يُدفع ألمُ الجوع، والعطش، وألمُ الشهوة، بالأكل، والشرب، والجماع، وكذلك يُدفع ألمُ الخمول وسقوطِ القَدْرِ عند الناس بالرِّئاسة والجاه.

والتحقيقُ: أنَّ اللذَّة أمرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضادِّ.

فصل

وأمَّا اللذَّة العقليةُ الرُّوحانيةُ: فهي كلذَّة المعرفة، والعلم، والاتصاف بصفات الكمال: من الكرم، والجود، والعفَّة، والشَّجاعة، والصبر، والحلْمِ، والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذَّات، وهو لذَّةُ النَّفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمَّت اللذَّة بذلك إلى لذَّة معرفة الله تعالى، ومحبَّته، وعبادته وحده لا شريك له، والرِّضا به؛ عوضًا من كلِّ شيءٍ - ولا يُتعوَّض بغيره عنه -

فصاحبُ هذه اللذَّة في جنَّةٍ عاجلةٍ نسْبتُها إلى لذَّات الدنيا، كنسبة لذَّة الجنَّة إلى لذَّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والرُّوح ألذُّ، ولا أطيبُ، ولا أحلى، ولا أنعمُ من محبَّة الله، والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرَّةٍ من هذه اللَّذة لا يُعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا؛ وكذلك كان أدنى مثقال ذرَّةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنعُ دخولها؟

قال بعض العارفين: من قرَّت عينهُ بالله؛ قرَّت به كلُّ عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله؛ تقطَّعت نفسه حسرات على الدنيا، ويكفي في فضل هذه اللذَّة وشرفها: أنَّها تُخرج من القلب ألمَ الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنَّه ليتألَّم بأعظم ما يلتذُّ به أهلُها، ويفِرُّ منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضعٌ الحاكمُ فيه الذوقُ، لا مجرَّدُ لسان العلم.

وكان بعضُ العارفين يقول: مساكين أهل الدُّنيا، خرجوا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيبَ نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبَّةُ الله، والأنسُ به، والشَّوقُ إلى لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أطيبُ ما في الدُّنيا: معرفتُه، ومحبَّتُه، وألذُّ ما في الآخرة: رؤيتُه، وسماعُ كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: والله إنَّه ليَمُرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذه الحال إنهَّم لفي عيش طيِّب. وأنت ترى محبَّة من في محبَّتِه عذاب القلب والرُّوح؛ كيف تُوجب لصاحبها لذَّةً يتمنَّى: أنَّه لا يُفارقه حبُّه؟

كما قال شاعرُ الحماسة:

تشـكَّى المحبُّـون الصَّبابَـةَ ليتني ... تحمَّلْتُ ما يَلْقَوْنَ منْ بينهم وَحدِي

فكانـتْ لقلبي لـذَّةُ الحـبِّ كلُّها ... فلم يَلْقَها قبلي مُـحِبٌّ ولا بَعدِي

قالت رابعة: شَغلُوا قلوبهم بحبِّ الدُّنيا عن الله، ولو تركوها؛ لجالت في الملكوت، ثمَّ رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

وقال سَلْم الخوّاص[١]: تركتموه، وأقبل بعضُكم علىٰ بعض، ولو أقبلتم عليه؛ لرأيتُم العجائب.

وقال بعض السَّلف[٢]: ما مِنْ عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يُبصر بهما أمرَ الدُّنيا، وعينان في قلبه يُبصر بهما أمرَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا؛ فتح عينيه اللَّتينِ في قلبه، فأبصرَ بهما من اللذَّةِ والنعيم ما لا خطر له، مِمَّا وعَدَ به من لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك؛ تركه علىٰ ما هو عليه، ثمَّ قرأ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبَّة غير الله، المعرِضِ عن ذكره من العقوبة؛ إلا صدؤهُ، وقسوته، وتعطُّله عمَّا خُلِق له؛ لكفىٰ بذلك عقوبة.

وقال رجلٌ للحسن[٣]: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي! قال: أذِبْه بالذِّكر.

وأبعدُ القلوب من الله القلبُ القاسي، ولا يُذهبُ قساوته إلا حبٌّ مقلقٌ، أو خوفٌ مزعج.

---

(١) أخرج عنه الخرائطي (ص٤٩).

(٢) هو خالد بن معدان، أخرج عنه الخرائطي (ص٥٢ - ٥٣).

(٣) أخرجه الخرائطي (ص٥٥).

فإن قيل: ما السبب الذي لأجله يلتذُّ المحبُّ بحبّه، وإنْ لم يظفر بحبه؟

قيل: الحبُّ يُوجب حركة النفس، وشدَّة طلبها، والنفسُ خُلقت متحركة بالطَّبع، كحركة النار، فالحبُّ حركتُها الطبيعيةُ، **فكلُّ من أحبَّ شيئًا من الأشياء؛ وجد في حبه لذَّة وروحًا، فإذا خلا عن الحُبِّ مطلقًا تعطَّلت النفسُ عن حركتها، وثَقُلت، وكسلتْ، وفارقها خفةُ النشاط.**

ولهذا تجد الكُسالى أكثر الناس همًّا، وغمًّا، وحزنًا، ليس لهم فرحٌ، ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النَّشاط، والجدِّ في العمل أيِّ عمل كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هم عالمون بحسن عواقبه، وحلاوة غايته؛ كان التذاذُهم بحبِّه، ونشاطُهم فيه أقوىٰ. وبالله التوفيق.

الباب الرابع عشر
فيمنْ مدح العِشْقَ وتمنَّاه، وَغَبَطَ صاحبَه على ما أُوتِيَهُ مِنْ مُناه

ص: ٢٥١

هذا موضعٌ انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان للشخص الواحد فيه مجموع الحالتين. فقسمٌ مدحوا العشق، وتمنَّوْه، ورغبوا فيه، وزعموا أن من لم يذُق طعمه؛ لم يذقْ طعم العيش. قالوا: وقد تبيَّن أنَّ كمالَ اللذَّة تابعٌ لكمال الحبِّ، فأعظمُ الناس لذَّةً بالشيء أكثرُهم محبةً له، وقد تقدم تقريرُه.

قالوا: وقد حبَّبَ الله ﷻ إلىٰ رُسُله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء، وقد أخبر الله ﷻ: أنه خلق زوجته منه؛ ليسكن إليها. قالوا: وحبُّه لها هو الذي حمله علىٰ موافقتها في الأكل من الشجرة.

وقد ثبت في الصحيح[1] من حديث الشعبيِّ عن عمرو بن العاص ﵁ قال: بعثني رسول الله ﷺ علىٰ جيش وفيهم أبو بكر، وعمر ﵄، فلما رجعت قلت: يا رسول الله! من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «**وما تُريد؟**» قلت: أُحبُّ أن أعلم. قال: «**عائشة**» قلت: إنما أعني من الرجال، قال: «**أبوها**».

وفي الصحيح[2] عن عائشة ﵂ قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إليه، فدخلت وهو مضطجعٌ معي في مِرْطي، فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قُحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ:

---

(١) البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٢) البخاري (٢٥٨١) ومسلم (٢٤٤٢).

«**ألست تُحِبِّين ما أُحِبُّ؟**» قالت: بلىٰ! قال: «**فأَحِبِّي هذه**».

وثبت في الصحيح[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسِمُ بين نسائه، فيعدلُ، ويقول: «**اللهمَّ هذا فعلي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك، ولا أملك**» يُريد ﷺ: أنه يُطيق العدل بينهنَّ في النفقة عليهنَّ، والقسم بينهنَّ، وأمَّا التسوية بينهنَّ في المحبَّة؛ فليست إليه، ولا يملكها.

وقال ابن سيرين[٢]: سألت عبيدة عن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فقال: يعني: الحب، والجماع.

وقال ابن عباس[٣]: لا تستطيع أن تعدل بينهنَّ في الشَّهوة، ولو حرصتَ.

قال أبو محمد بن حزم[٤]: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهْدِيِّين كثيرٌ.

قال الخرائطي[٥]: واشترىٰ عبد الله بن عمرَ جاريةً روميَّةً، فكان يُحِبُّها حبًّا شديدًا، فوقعت ذات يوم عن بغلةٍ له، فجعل يمسحُ التراب عن وجهها، ويُفدِّيها، وكانت تقول له: أنت قالون، تعني: جيد، ثم إنها هربت منه، فوجدَ عليها وجدًا شديدًا، وقال:

قد كنتُ أحسِبُني قالونَ فانصرفتْ ... فاليومَ أحسب أنِّي غيرُ قالونِ

---

(١) لم يروه البخاري ولا مسلم، بل أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٧/ ٦٤)، وابن ماجه (١٩٧١).

(٢) أخرجه الخرائطي (ص٤٣).

(٣) أخرجه الخرائطي (ص٤٣).

(٤) «طوق الحمامة» (ص٣٥).

(٥) لم أجد النص في «اعتلال القلوب». وانظر «الواضح المبين» (ص٢٩).

وقصة مُغيث وعشقِهِ بَرِيرة، حتىٰ إنه كان يطوف وراءَها، ودموعُه تسيلُ علىٰ خدّيه في الصَّحيح[١].

قالوا: ولولا لطافةُ الحبِّ ولذَّته لما تمنَّاه المُتَمنُّون.

قالوا: والعشقُ المباحُ مما يُؤجر عليه العُشّاقُ، كما قال شريك بن عبد الله[٢] - وقد سُئل عن العُشّاق - فقال: أشدُّهم حُبًّا أعظمُهم أجرًا. وصدق والله إذا كان المعشوق ممَّنْ يُحِبُّ الله للعاشق قربَه ووصلَه، وقالت امرأة:

لـن يقبل اللهُ مـن معشـوقةٍ عملًا ... يومًا وعاشقُها لَهْفَانُ مَهْجُورُ

ليسـتْ بمأْجورةٍ في قتلِ عاشـقِها ... لكنَّ عاشِقَها في ذاك مـأْجـورُ

ونحن نقول: متىٰ باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذي هو بعلُها؛ لعنتها الملائكة حتىٰ تُصْبِحَ.

قالوا: والعشقُ يُصفِّي الهمَّ، ويهذّب العقل، ويبعثُ علىٰ حسن اللباس، وطيب المطعم، ومكارم الأخلاق، ويُعلي الهمَّة، ويحملُ علىٰ طيب الرائحة، وكرم العشرة، وحفظ الأدب والمُروءة.

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى ... فـأنـت وعَـيْـرٌ في الـفـلاة سـواءٌ

وقال آخر:

وما ذاق طعم العيش من لم يكن له ... حبيبٌ إليـه يطمئنُّ ويسكُنُ

---

(١) سبق تخريجها (ص٧٦).

(٢) انظر: «الواضح المبين» (ص٢٢).

قالوا: ولم يكمُل أحدٌ قطُّ إلا من عشقُه لأهل الكمال وتشبُّهه بهم، فالعالم يبلغُ في العلم بحسب عشقه له، وكذلك صاحبُ كلِّ صناعةٍ وحرفةٍ.

ويكفي أنَّ العاشق يرتاحُ لكريم الأخلاق، والأفعال، والشِّيم؛ لِتُحْمَدَ شمائلُه عند معشوقه، كما قال:

ويرتـاحُ للمعروفِ في طلبِ العُلا لِتُحْمَدَ يومًا عند ليلى شمائلُه

قالت هذه الفرقة: وغايةُ ما يقدَّر في أمر العشق: أنَّه يقتُل صاحبَه، كما هو معروف عن جماعة من العُشَّاق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنَّه قال: «من عَشِقَ فكَتَم، وعفَّ، وصبر، فمات؛ فهُو شهيدٌ»[1].

قلت: وهذا حديثٌ باطلٌ علىٰ رسول الله ﷺ قطعًا، لا يُشْبِهُ كلامه، وقد صحَّ عنه: أنَّه عَدَّ الشهداء ستة، فلم يذكر فيهم قتيل العِشْق، ولا يُمكن أن يكون كلُّ قتيل بالعشق شهيدًا، فإنَّه قد يعشق عشقًا يستحقُّ عليه العقوبة.

(١) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٤٩).

الباب الخامس عشر
فيمن ذمَّ العِشْقَ، وتبرَّم به، وما احتجَّ به كلُّ فريقٍ على صحَّة مذهبه

ص: ٢٧١

قال الله تعالىٰ إخبارًا عن المؤمنين: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فأثنىٰ عليهم سبحانه بهذا الدُّعاء؛ الذي سألوه فيه ألاَّ يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به، وقد فُسِّر ذلك بالعشق، وليس المُرادُ اختصاصه به، بل المُراد: أنَّ العشق ممَّا لا طاقة للعبد به. وقال مكحول: هو شدة الغُلْمة.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا ينبغي للمرءِ أنْ يُذِلّ نفسه**»(١).

قال الإمام أحمدُ: تفسيرُه أن يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق، وهذا مطابق لحال العاشق، فإنَّه أذَلُّ الناس لمعشوقه، ولما يُحَصِّل به رضاه، والحبُّ مبناه علىٰ الذُّلّ، والخضوع للمحبوب، كما قيل:

مساكينُ أهلُ العشقِ حتَّى قبورُهم   عليها تـرابُ الـذُّلِّ بين المَقابرِ

قالوا: وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشْق، ولعبتْ به أمواجهُ، فهو إلىٰ الهلاك أدنىٰ منه إلىٰ السَّلامة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦). وإسناده ضعيف.

قال الخرائطي[1]: أنشدني بعض أصحابنا:

الحبُّ أوَّلهُ شيءٌ يهيمُ به ... قلبُ المحبِّ فيَلْقَى الموتَ كاللَّعِب

يكون مبدؤه منْ نظرةٍ عرَضَتْ ... ومَزْحَةٍ أَشْعَلَتْ في القَلْبِ كاللَّهَبِ

كالنَّارِ مبدؤها من قدْحةٍ فإذا ... تضرَّمتْ أحرقتْ مُسْتَجْمَعَ الحطَب

قالوا: وكم من عاشقٍ أتلف في معشوقه مالَه، وعِرْضَه، ونفسَه، وضيَّع أهله، ومصالحَ دينه ودنياه!

قالوا: والعشق هو الدَّاء الدَّويُّ؛ الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحرٌ؛ مَنْ رَكبَه غَرِق، فإنه لا ساحلَ له، ولا نجاةَ منه، قال العبّاس بن الأحنف:

ويحَ المُحبِّين ما أشقى نفوسَهُمُ ... إنْ كان مثلُ الذي بي بالمحبّينا

يشْقَوْنَ في هذه الدُّنيا بِعِشْقِهمِ ... لا يُرْزقونَ به دُنيا ولا دينا

وقال آخر:

العشقُ مَشْغَلَةٌ عن كلِّ صالحةٍ ... وسَكْرَةُ العشْقِ تَنْفي لَذَّة الوَسَنِ

قالوا: والعشق يترك المَلِكَ مملوكًا، والسُّلطانَ عبدًا، كما قال الرشيد[2]- وقد عشق ثلاثَ جوارٍ من جواريه - ويقال: إنه المأمون -:

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني ... وحَلَلْنَ منْ قلبي بكلِّ مَكانِ

---

(١) «اعتلال القلوب» (ص٣٢٤ - ٣٢٥).

(٢) أخرجه الخرائطي (ص٣٢٣).

مـا لـي تُطاوعنـي البرِيَّـةُ كلُّهـا وأُطيـعُـهـنَّ وهـنَّ في عِصْيـاني
مـا ذاكَ إلا أنَّ سُـلْطَانَ الهَـوى - وبه قَوينَ - أعزُّ من سُلطاني

قالوا: وكم مِمَّن هرب من الحبِّ إلىٰ مظانِّ التَّلَف؛ ليتخلَّصَ من التَّلَف بالتَّلَف.

قالوا: ورأينا الدَّاخل فيه يتمنَّىٰ منه الخلاص، ولات حين مناص.

قالوا: وكم أكبَّتْ فتنةُ العِشْق رؤُوسًا علىٰ مناخرها في الجحيم، وأسلمتهم إلىٰ مقاساة العذاب الأليم، وجرَّعتهم بين أطباق النَّار كؤوس الحميم، وكم أخرجت مَنْ شاء الله من العلم والدِّين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالتْ من نِعْمَةٍ، وأحلَّتْ منْ نقْمَة، وكم أضرمت منْ نارِ حسراتٍ احترقت فيها الأكباد، وأذهبت قدْرًا كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد، وكم جلبت منْ جهْد البلاء، ودَرْك الشَّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

ويكفي اللبيبَ موعظة واستبصارًا ما قصَّه الله ﷻ عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوىٰ المذموم تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ ﷻ بهوىٰ إبليس الحاملِ له علىٰ التكَبُّر عن طاعة الله ﷻ في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوىٰ نفسه، وإعجابُه بها علىٰ أنْ عصىٰ أمره، وتكبَّر علىٰ طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوىٰ آدم حين رغبَ في الخلود في الجنَّة، وحملَهُ هواه علىٰ أنْ أكَل من الشَّجرة التي نُهي عنها، وكان الحاملُ له علىٰ ذلك هوىٰ النفس ومحبَّتها للخلود، فكان عاقبةُ ذلك الهوىٰ والشَّهوة إخراجه منها إلىٰ دار التَّعب والنَّصَب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحوَّاء، فحمله حبُّه لها أن أطاعها، ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوُّه من طريقها؟ ودخل عليه من بابها. فأوَّل فتنةٍ كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفَّار؛ الذين أشركوا به ما لم ينزِّل به سلطانًا، وابتدعوا في دينه ما لم يشرعه، وحرَّموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبَّدوا له بالفواحش وزعموا أنَّه أمرهم بها؛ واتخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحاملُ لهم علىٰ ذلك كلِّه الهوىٰ والحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذَّبوا كتُبَه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم دونه، حتىٰ خسروا الدُّنيا والآخرة.

ثم ذكر ﷻ قصة قوم نوح، وما أصارهم إليه الهوىٰ من الغرق في الدُّنيا، ودخول النَّار في الآخرة.

ثم ذكر قصَّة عادٍ، وما أفضىٰ إليه بهم الهوىٰ من الهلاك الفظيع، والعقوبة المستمرة.

ثم قصَّة قوم صالح كذلك، ثم قصة العُشَّاق، أئمة الفُسَّاق، وناكحي الذكران، وتاركي النِّسوان، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه علىٰ أُمَّةٍ من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفًا لإخوانهم اللُّوطيَّة من المُتقدِّمين والمتأخِّرين، ولما تجرؤوا علىٰ هذه المعصية، وتمرَّدوا، ونهجوا لإخوانهم طريقها، وقاموا بأمرها، وقعدوا؛ ضجَّت الملائكةُ إلىٰ الله من ذلك ضجيجًا، وعجَّت الأرض إلىٰ ربِّها من هذا الأمر عجيجًا، وهربت الملائكة إلىٰ أقطار السموات، وشكتهم إلىٰ الله جميعُ المخلوقات، وهو ﷻ قد حكم أنه لا يأْخذُ الظالمين إلا بعد إقامة الحُجَّة عليهم، والتقدُّم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذَّن رسول الله بالدعوة علىٰ رؤوس الملأ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهُرِهم في كلِّ حاضرٍ وباد، وقال وكان في قوله لهم

من أعظم الناصحين: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا، وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] فأجاب العُشَّاق جواب من أُركِس في هواه وغيِّه، فقلبُه بعشقه مفتون، وقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فلمَّا أن حان الوقت المعلوم، وجاء ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرَّحمن ﷻ لتمام الإنعام والامتحان إلىٰ نبيه لوطٍ ملائكةً في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصُّور، وجاءوه في صورة الأضياف النُّزول بذي الصَّدرِ الرَّحيب، فـ ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

وجاء الصَّريخ إلىٰ اللوطيّة: أنَّ لوطًا قد نزل به شبابٌ لم يَنْظُر إلىٰ مثل حُسْنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأىٰ مثلهم الرَّاءون، فنادىٰ اللُّوطيَّة بعضهم بعضًا أنْ هَلُمُّوا إلىٰ منزل لوط، ففيه قضاءُ الشهوات، ونَيْلُ أكثر اللَّذَّات ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨].

فلمَّا دخلوا إليه، وهجموا عليه، قال لهم وهو كظيمٌ من الهمِّ والغمِّ، وقلبُه بالحزن عميد: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

فلما سمع اللُّوطية مقالته؛ أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فقال لهم لوطٌ مقالةَ

المُضْطَهَد الوحيد: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فلمَّا رأت رسلُ الله ما يقاسي نبيُّه من اللوطيَّة؛ كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] فسُرَّ نبيُّ الله سرور المحب وأتاه الفرج بغتةً على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

ولما أبو ا إلا مُراودته عن أضيافه، ولم يرعَوْا حقَّ الجار؛ ضرب جبريل بجناحه على أوجههم، فطمس منهم الأعين، وأعمى الأبصار، فخرجوا من عنده عُمْيانًا يتحسَّسون، ويقولون: ستعلم غدًا ما يَحِلُّ بك أيُّها المجنون!

فلمَّا انشقَّ عمود الصُّبح جاء النداء منْ عند ربِّ الأرباب: أن اخسف بالأمَّة اللوطيَّة، وأَذِقهم أليم العذاب، فاقتلع القويُّ الأمينُ جبريل مدائنهم على ريشةٍ من جناحه، ورفعها في الجوِّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، وصياح دِيكَتِهِمْ، ثم قلبها، فجعل عاليها سافلها، وأُتبعوا بحجارةٍ من سجِّيلٍ، وهو الطين المستحجِر الشديد.

وخوَّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] فهذه عاقبة اللوطيَّة عُشَّاقِ الصُّوَر، وهم السَّلف، وإخوانُهم بعدهم على الأثر.

وكذلك قومُ شعيب، إنَّما حملهم على بخس المِكيال والميزان فرطُ محبَّتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيِّهم، حتى أصابهم العذاب.

وكذلك قوم فرعون، حملهم الهوىٰ، والشَّهوةُ، وعشقُ الرئاسة علىٰ تكذيب موسىٰ، حتىٰ آل بهم الأمر إلىٰ ما آل. وكذلك أهل السبت؛ الذين مُسخوا قردةً، إنَّما أُتُوا من جهة محبَّة الحيتان، وشهوة أكلها، والحِرْص عليها. وكذلك الذي آتاه الربُّ ﷻ آياته ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر أنَّ ذلك إنما حصل له بإيتاء الربِّ له لا بتحصيله هو. ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ ولم يقل: فسلخناه، بل أضاف الانسلاخ إليه، وعبَّر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخلِّيه عنها بالكلِّية، وهذا شأنُ الكافر.

وأمَّا المؤمن - ولو عصىٰ الله ﷻ ما عصاه - فإنَّه لا ينسلخ من الإيمان بالكلية.

ثم قال: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ولم يقل: فتبعه. فإن في «أتبعه» إعلامًا بأنَّه أدركه، ولحِقه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: لحقوهم، ووصلوا إليهم. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ ففي ذلك دليلٌ علىٰ أنَّ مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فإن هذا قد أخبر الله سبحانه: أنَّه آتاه آياته، ولم يرفعه بها.

فالرفعة بالعلم قدرٌ زائدٌ علىٰ مجرّد تعليمه، ثم أخبر سبحانه عن السَّبب الذي منعه أن يُرفع بها، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وقوله: ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سكن إليها، ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أرضيَّة سفليةً، لا سماويةً عُلْويةً، وبحسب ما يُخْلد العبد إلىٰ الأرض يهبط من السَّماء.

ثم ذكر سبحانه مَثَل المُتَّبع لهواه كمثل الكلب الذي لا يفارقه اللَّهْثُ في حالتَي تركِه والحمل عليه، فهكذا هذا لا يفارقُه اللهثُ علىٰ الدُّنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصودُ: أنَّ هذه السورة من أوّلها إلىٰ آخرها في ذكر حال أهل الهوىٰ والشَّهوات، وما آل إليه أمرُهم، فالعشقُ والهوىٰ أصلُ كلِّ بليَّة.

قالوا: ويكفي من مضرَّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق، وذلك موجودٌ في كلِّ زمان.

فهذا بعضُ ما احتجَّت به هذه الفرقة لقولها. ونحن نعقدُ للحكم بين الطائفتين بابًا مستقلًّا بعون الله تعالىٰ.

ص: ٢٩٤

الباب السَّادس عشر
في الحُكْم بين الفريقين وفصل النِّزاع بين الطائفتين

فنقول: العشق لا يُحْمدَ مطلقًا، ولا يُذَمُّ مطلقًا، وإنَّما يُحْمَد ويُذَمُّ باعتبار متعلَّقه، فإنَّ الإرادة تابعةٌ لمرادها، والحبُّ تابعٌ للمحبوب، فمتىٰ كان المحبوبُ ممَّا يُحَبُّ لذاته، أو وسيلةً تُوصِله إلىٰ ما يُحَبُّ لذاته؛ لم تُذَمَّ المبالغةُ في محبَّته، بل تُحْمَدُ، وصلاحُ حالِ المُحبِّ لذلك بحسب قوَّة محبته.

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوىٰ حبِّه كلَّها لله تعالىٰ وحده، بحيث يحبُّ الله بكلِّ قلبه، ورُوحه، وجوارحه، فيُوَحِّد محبوبَه، ويوحِّد حبَّه، وسيأتي - إن شاء الله تعالىٰ - في باب: توحيد المحبوب: أن المحبة لا تصحُّ إلا بذلك، فتوحيدُ المحبوب ألاَّ يتعدَّد محبوبُه، وتوحيدُ الحبِّ ألاَّ يبقىٰ في قلبه بقيةُ حبٍّ، حتىٰ يبذلَها له، فهذا الحبّ وإن سمي: عشقًا، فهو غايةُ صلاح العبد، ونعيمه، وقرَّةِ عينه.

وليس لقلبه صلاحٌ، ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن تكون محبتُه لغير الله تابعةً لمحبة الله، فلا يُحبُّ إلا الله، كما في الحديث الصحيح[(١)]: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ بِهِنَّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسُولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما، ومن كان يُحب المرءَ لا يُحِبّهُ إلاَّ لله، ومنْ كان يكرهُ أن يرجع في الكُفرِ بعد إذ أنْقذَهُ الله منهُ، كما يكره أن يُلقَىٰ في النَّار»**.

فأخبر أنَّ العبد لا يجدُ حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحبَّ إليه ممَّا سواه،

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).

ومحبَّته رسوله هي من محبته، ومحبَّة المرء إن كانت لله؛ فهي من محبَّة الله، وإنْ كانت لغير الله؛ فهي مُنقصةٌ لمحبَّة الله، مُضْعِفةٌ لها، وتصدُق هذه المحبَّة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلىٰ محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهيته لإلقائه في النَّار أو أشدَّ.

ولا ريب أنَّ هذا من أعظم المحبة، فإنَّ الإنسان لا يقدِّم علىٰ محبَّة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدَّم محبَّة الإيمان بالله علىٰ نفسه، بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النَّار؛ لاختار أن يُلقىٰ في النَّار، ولا يكفر؛ كان الله أحبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبَّةُ فوق ما يجده سائر العُشَّاق والمُحبِّين من محبَّة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبَّة، كما لا مثل لمن تعلَّقتْ به، وهي محبَّةٌ تقتضي تقديم المحبوب فيها علىٰ النفس، والمال، والولد، وتقتضي كمال الذُّل، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والطاعةِ، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبَّة مخلوقٍ، ولو كان المخلوقُ من كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة؛ كان مشركًا شركًا لا يَغفِرهُ الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] والصحيح أن معنىٰ الآية: أنّ الذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من أهل الأنداد لأندادهم، كما تقدَّم بيانه: أنَّ محبَّة المؤمنين لربهم لا يُماثلها محبَّةُ مخلوقٍ أصلًا، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكلُّ أذىً في محبة غيره؛ فهو نعيمٌ في محبته، وكلُّ مكروه في محبة غيره؛ فهو قُرّة عين في محبته.

والعشقُ إذا تعلَّق بما يحبُّه الله ورسوله، كان عشقًا ممدوحًا مثابًا عليه، وذلك أنواع:

أحدُها: محبَّةُ القرآن بحيث يغْنَىٰ بسماعه عن سماع غيره، ويَهيم قلبُه في معانيه، ومراد المتكلِّم سبحانه منه، وعلىٰ قدر محبَّة الله تكون محبَّة كلامه، فمن أحبَّ محبوبًا؛ أحبّ حديثه، والحديث عنه، كما قيل:

إن كنت تزعُمُ حبِّي فَلِمْ هجرتَ كتابي؟
أمَا تأمَّلت مَا فِيه من لذيذ خطابي؟!

وكذلك محبَّةُ ذكرهِ ﷺ من علامة محبَّته، فإنَّ المحبَّ لا يشبعُ منْ ذكر محبوبه، بل لا ينساه، فيحتاجُ إلىٰ من يُذكِّرُه به. وكذلك من يحبُّ سماعَ أوصافِه، وأفعاله، وأحكامه، فعشقُ هذا كلِّه من أنفع العِشْق، وهو غايةُ سعادة العاشق، وكذلك عشقُ العلم النَّافع، وعشق أوصافِ الكمال من الكرم، والجود، والعِفَّة، والشَّجاعة، والصَّبر، ومكارم الأخلاق، فإن هذه الصفات لو صُوِّرت صُورًا؛ لكانت من أجمل الصُّور، وأبهاها، ولو صُوِّر العلم صورة؛ لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر، ولكنَّ عشق هذه الصِّفات إنَّما يُناسبُ الأنفس الشريفة الزكيَّة، كما أن محبَّة الله، ورسوله، وكلامه، ودينه إنَّما تناسبُ الأرواح العُلْويَّة، السَّمائيَّة الزكيّة، لا الأرواح الأرضيَّة الدَّنيَّة، فإذا أردت أن تعرِف قيمة العبد وقدره؛ فانظر إلىٰ محبوبه ومُراده، واعلم أنَّ العشق المحمود لا يعرِضُ فيه شيءٌ من الآفات المذكورة.

بقي ها هنا قسمٌ آخرُ، وهو عشقٌ محمودٌ، يترتَّب عليه مُفارقة المعشوق، كمن يعشقُ امرأته، أو أمته، فيفارقُها بموتٍ أو غيره، فيَذهبُ المعشوقُ، ويبقىٰ العِشْقُ كما هو، فهذا نوعٌ من الابتلاء، إن صبرَ صاحبُه، واحتسب؛ نال ثواب الصَّابرين، وإن سَخِط، وجزع؛ فاته معشوقُه وثوابُه، وإن قابل هذه البلوىٰ بالرِّضا والتسليم،

فدرجتُه فوق درجة الصبر. وأعلىٰ من ذلك أن يقابلها بالشُّكر نظرًا إلىٰ حسن اختيار الله له؛ فإنَّه ما يقضي الله للمؤمن قضاءً إلاَّ كان خيرًا له، فإذا علم أنَّ هذا القضاء خيرٌ له؛ اقتضىٰ ذلك شكرَه لله علىٰ ذلك الخير الذي قضاه له، وإنْ لم يعلم كونه خيرًا له، فليسلِّم للصَّادق المصدوق في خبره المؤكَّد باليمين، حيث يقول: «**والَّذي نَفْسي بيَدِهِ لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له، إن أصابَتْهُ سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر، فكان خيرًا لهُ، وليس ذلك إلا للمُؤمن**»[1].

وإيمانُ العبد بأمرِه أن يعتقد أن ذلك القضاءَ خيرٌ له، وذلك يقتضي شكر من قضاه وقدَّره، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

ص: ٢٩٩

الباب السابع عشر
في استحباب تخيُّر الصورة الجميلة للوِصال الذي يحبُّه الله ورسوله

قال الله تعالىٰ عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزَّوجات والإماء، وما حرَّم عليهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨] أي: لا يصبرُ عن النساء، كما ذكر الثوريُّ عن ابن طاوس عن أبيه ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. قال: إذا نظر إلىٰ النِّساء لم يصبر. وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السلف.

ولمَّا كان العبدُ له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالةُ جهلٍ بما يَحِلُّ له ويحرمُ، وحالةُ تقصيرٍ وتفريط، وحالةُ ضعفٍ وقلَّة صبرٍ؛ قابل سبحانه جهل عبد ه بالبيان والهدىٰ، وتقصيرَه وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلَّة صبره بالتَّخفيف.

وفي كتاب «الزُّهد»[1]: عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة، وحُبِّب إليَّ النِّسَاءُ، والطِّيبُ، الجائعُ يشبعُ، والظَّمآنُ يَرْوىٰ، وأنا لا أشبع من حُبِّ الصلاةِ والنِّساء**».

(١) لم أجده في المطبوع. وقد روىٰ الشطر الأول منه النسائي (٧/ ٥٦١). وحسنه الحافظ في التلخيص (٣/ ١١٦).

وفي الصحيحين[١] من حديث أنس ﷺ قال: قدِم رسول الله ﷺ خيبر، فلما افتتح الله عليه الحِصن، ذُكر له جمالُ صفيَّة بنت حُيَيٍّ، وقد قُتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها رسولُ الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتىٰ بلغَا سدَّ الرَّوحاء، فبنىٰ بها، ثم صنع حَيْسًا في نِطْع صغيرٍ، ثم قال رسول الله ﷺ: «**آذنْ من حولك**» فكانت تلك وليمةَ رسول الله ﷺ علىٰ صفية، ثم خرجنا إلىٰ المدينة، فرأيتُ رسول الله ﷺ يُحَوِّي لها وراءه بعباءةٍ، ثم يجلس عند بعيره فيضعُ ركبته، فتضعُ صفيةُ رجلها عند ركبته حتىٰ تركب.

وقال جرير بن حازم[٢]، عن يعلىٰ بن حكيم، عن سعيد بن جُبير قال: كان عمرُ بن الخطَّاب ﷺ إذا أمسىٰ؛ أخذ دِرَّته، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأىٰ شيئًا يُنكره؛ أنكرَه، فبينا هو ذات ليلة يعُسُّ؛ إذ مرَّ بامرأةٍ علىٰ سطْحٍ، وهي تقول:

تطاول هذا اللَّيـلُ واخْضَلَّ جانبُه ... وأرَّقَـنـي ألَّا خـليـلٌ أُلاعـبُـهْ

فـوالله لـولا الله لا ربَّ غيـرُه ... لَحُرِّك من هذا السَّريرِ جَوانبُهْ

مخافـةُ رَبِّـي والحيـاءُ يكفُّنـي ... وأُكـرِمُ بعلي أنْ تُـنـالَ مراكبُهْ

ثم تنفَّست الصُّعَداء، وقالت: لهان علىٰ عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة، فضرب باب الدَّار، فقالت: من هذا الذي يأْتي إلىٰ امرأة مُغِيبَةٍ هذه السَّاعة؟ فقال: افتحي! فأبتْ، فلمَّا أكثر عليها؛ قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين؛ لعاقبَك، فلما رأىٰ عفافها؛ قال: افتحي، فأنا أميرُ المؤمنين، قالت: كذبت، ما أنت أمير المؤمنين!

---

(١) البخاري (٣٧١، ٤٢١١)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) أخرجه الخرائطي (ص١٨٣ - ١٨٤).

فرفع بها صوته، وجهر لها، فعرفتْ أنَّه هو، ففتحت له، فقال: هِيهِ! كيف قلتِ؟ فأعادتْ عليه ما قالت، فقال: أين زوجُكِ؟ قالت: في بَعْثِ كذا، وكذا، فبعث إلىٰ عامل ذلك الجند: أنْ سَرِّحْ فلان بن فلان، فلمَّا قَدِمَ عليه؛ قال: اذهب إلىٰ أهلك. ثم دخل علىٰ حَفْصة ابنتِه، فقال: أي بُنَيَّة! كم تصبِرُ المرأةُ عن زوجها؟ قالت: شهرًا، واثنين، وثلاثة، وفي الرابع يَنْفَد الصَّبرُ، فجعل ذلك أجلًا للبَعْث.

وهذا مطابقٌ لجعل الله ﷻ مُدة الإيلاء أربعةَ أشهرٍ، فإنَّه ﷻ علم أنَّ صبر المرأة يضعُف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوَّةُ صبرها أكثر من هذه المدَّة، فجعلها أجلًا للمُولي، وخيَّرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه، وإن شاءتْ فسختْ نكاحه، فإذا مضت الأربعةُ أشهر عِيْلَ صبرُها.

قال الشاعر:

ولما دعوتُ الصَّبْـرَ بعدك والبُكا ... أجابَ البُكا طوعًا ولم يُجِبِ الصبرُ



الباب الثَّامن عشر
في أنَّ دواء المُحبِّين في كمال الوصال
الذي أباحه ربُّ العالمين

ص: ٣٠٩

وقد جعل الله ﷻ لكلِّ داءٍ دواء، ويسَّر الوصول إلىٰ ذلك الدواء شرعًا وقدرًا، فمن أراد التَّداوي بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدر، وأتىٰ الأمر من بابه؛ صادف الشِّفاء، ومن طلب الدَّواء بما منعه منه شرعًا - وإن امتحنه به قدرًا - فقد أخطأ طريق المُداواة، وكان كالمتداوي من داءٍ بداءٍ أعظم منه، وقد تقدَّم حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النكاح**»[1].

وقد اتفق رأْيُ العقلاء من الأطباء وغيرهم في مواضعة الأدوية: أنَّ شفاء هذا الدَّاءِ في التقاءِ الزَّوجين والتصاق البَدَنَيْنِ.

وقد روىٰ مسلم في صحيحه[2]: من حديث أبي الزُّبير عن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ امرأةً، فأتىٰ زينبَ، فقضىٰ حاجتَه منها، وقال: «**إنَّ المَرْأةَ تُقْبِلُ في صُورةِ شيطانٍ، وتُدْبِرُ في صُورة شيطان، فإذا رأىٰ أحدُكم امْرَأةً، فأَعْجَبَتْهُ، فلْيَأْتِ أهْلَهُ؛ فإنَّ ذلك يَرُدُّ ما في نَفْسِهِ**».

وفي الصَّحيح[3]: أنَّ سليمان بن داود عليه السلام طاف في ليلةٍ واحدةٍ علىٰ تسعين امرأة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧). وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٢٤).

(٢) برقم (١٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٣٢)، ومسلم (٤٥٢٣).

وفي الصَّحيحين[1]: أنَّ رسول الله ﷺ كان يطوفُ علىٰ نسائه في الليلة الواحدة وهنَّ تسع نسوةٍ، وربما كان يطوفُ عليهنَّ بغسلٍ واحد، وربما كان يغتسلُ عند كلِّ واحدةٍ منهنَّ.

وقد اختلفَ الفقهاءُ: هل يجبُ علىٰ الزَّوج مجامعةُ امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك، فإنَّه حقٌّ له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأْجرَ دارًا، إن شاء سكنَها، وإن شاء تركَها.

وهذا من أضعف الأقوالِ، والقرآنُ والسُّنَّةُ والعُرْفُ والقياسُ يرُدُّه، أما القرآن، فإنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فأخبر أنَّ للمرأة من الحقِّ مثل الذي عليها، فإذا كان الجماعُ حقًّا للزَّوج عليها؛ فهو حقٌّ لها علىٰ الزَّوج بنصِّ القرآن.

وقال طائفةٌ: يجب عليه وَطْؤُها في العُمْر مرّةً واحدةً؛ ليستقرَّ لها بذلك الصَّداق. وهذا من جنس القول الأوَّل، وهو باطلٌ من وجهٍ آخر، فإنَّ المقصود إنَّما هو المعاشرةُ بالمعروف، والصَّداقُ دخل في العقْد تعظيمًا لحُرْمته، وفرقًا بينه وبين السِّفاح، فوجوبُ المقصود بالنّكاح أقوىٰ من وجوب الصَّداق.

وقالت طائفةٌ ثالثةٌ: يجبُ عليه أن يطأها في كلِّ أربعة أشهر مرَّة، واحتجُّوا علىٰ ذلك بأنَّ الله ﷻ أباحَ للمولي تَربُّص أربعة أشهر، وخيَّر المرأة بعد ذلك، إنْ شاءت أن تقيمَ عنده، وإن شاءت أن تفارِقه. فلو كان لها حقٌّ في الوَطءِ أكثر من ذلك؛ لم يجعلْ للزَّوج تركَه في تلك المدَّة.

---

(١) البخاري (٢٦٨)، ومسلم (٣٠٩).

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللَّذين قبله؛ فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها. وأما جعلُ مدَّة الإيلاء أربعة أشهر؛ فنظرًا منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلىٰ ترك وطءِ امرأته مدَّة لعارضٍ منْ سفرٍ، أو تأْديبٍ، أو راحةِ نفس، أو اشتغال بمهم، فجعل الله ﷻ له أجلًا أربعة أشهر، ولا يلزم من ذلك أن يكون الْوَطءُ مؤقتًا في كلِّ أربعة أشهر مرَّة.

وقالت طائفة أُخرىٰ: بل يجبُ عليه أن يَطَأَها بالمعروف، كما ينفق عليها، ويكسوها، ويُعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدةُ المعاشرة ومقصودُها، وقد أمر الله ﷻ أن يعاشرَها بالمعروف، فالوَطْءُ داخلٌ في هذه المعاشرة ولابدَّ. قالوا: وعليه أن يُشبعها وَطْأً إذا أمكنه ذلك، كما عليه أن يُشبعَها قوتًا. وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يرجِّح هذا القول ويختاره.

وقد حضَّ النبي ﷺ علىٰ استعمال هذا الدواء، ورغَّب فيه، وعلَّق عليه الأجرَ، وجعله صدقةً لفاعله، فقال: «**وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدَقَةٌ**»(١).

ومن تراجم النَّسائي علىٰ هذا: الترغيب في المُباضعة، ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذَّة، وكمال الإحسان إلىٰ الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفَّةُ الرُّوح، وذهابُ كثافتها وغِلَظها، وخفَّةُ الجسم، واعتدالُ المزاج، وجلبُ الصِّحة، ودفع الموادِّ الرديئة.

ولذلك كان أحبَّ شيءٍ إلىٰ الشيطان أن يُفرّق بين الرجل وبين حبيبه؛ ليتوصل إلىٰ تعويض كلٍّ منهما عن صاحبه بالحرام، كما في السنن(٢) عنه ﷺ: «**أَبْغضُ الحَلال إلىٰ الله الطَّلاق**».

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨). والحديث ضعيف، انظر: الإرواء (٢٠٤٠).

وفي صحيح مسلم[١] من حديث جابرٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ إبليس ينصبُ عرشه علىٰ الماء، ثُمَّ يَبُثُّ سراياهُ في النَّاس، فأقرَبُهم منهُ منزلةً أعْظَمُهُمْ فتنةً، فيقولُ أحدُهُم: ما زلتُ به حتَّىٰ زنىٰ، فيقولُ: يَتُوبُ، فيقُول الآخرُ: ما زلتُ به حتىٰ فرَّقتُ بينهُ وبين أهله، فيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُه، ويقولُ: نعمَ أنت! نِعمَ أنت!**».

وقد أرشد النبي ﷺ الشباب الذين هم مظنَّة العشق إلىٰ أنفع أدويتهم. ففي الصحيحين[٢]: من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب! من استطاع منكمُ الباءَة؛ فليتزوجْ، فإنَّهُ أغضُّ للبَصر، وأحْصَنُ للْفَرْج**».

وفي لفظٍ آخر ذكره أبو عبيد[٣]: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله عن النبي ﷺ: «**عليكُم بالباءة...**» وذكر الحديث، وبين اللفظين فرقٌ، فإن الأوّل يقتضي أمر العزب بالتزويج، والثاني يقتضي أمر المتزوِّج بالباءة، والباءة: اسمٌ من أسماء الوطء، وقوله: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج**» فُسِّرت الباءة بالوَطء، وفُسِّرت بمؤن النكاح، ولا ينافي التفسير الأوَّل؛ إذ المعنىٰ علىٰ هذا: مُؤَنُ الباءة ثم قال: «**ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ**» فأرشدهم إلىٰ الدَّواء الشافي؛ الذي وُضِع لهذا الأمر.

ثم نقلهم عنه عند العجز إلىٰ البدل وهو الصَّومُ، فإنَّه يكسرُ شهوة النَّفس، ويُضيِّق عليها مجاري الشهوة، فإنَّ هذه الشَّهوة تقوىٰ بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمِّيَّةُ الغذاء، وكيفيتُه يزيدان في توليدها، والصَّومُ يُضيِّق عليها ذلك، فيَصيرُ بمنزلة وِجَاء الفحْل، وقلَّ من أَدْمن الصَّومَ إلا وماتت شهوتُه، أو ضعُفت جدًّا، والصَّومُ

---

(١) رقم (٢٨١٣).

(٢) البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٣) أخرجه الخرائطي (ص٨٥) عنه.

المشروع يُعَدِّلها، واعتدالُها حسنةٌ بين سيئتين، ووسطٌ بين طرفين مذمومين، وهما العُنَّة والغُلْمة الشَّديدة المُفْرِطة، وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال:

كلا طَرَفي قَصدِ الأمور ذميمُ

و«خيرُ الأمور أوساطها» والأخلاقُ الفاضلة كلُّها وسطٌ بين طرفي إفراط وتفريط، وكذلك الدِّين المستقيم وسطٌ بين انحرافين، وكذلك السُّنَّة وسطٌ بين بِدْعتين، وكذلك الصوابُ في مسائل النِّزاع إذا شئت أن تحظَى به؛ فهو القولُ الوسط بين الطرفين المتباعدين، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة، فإنَّا لم نقصد له، وبالله التوفيق.



ص: ٣٢٠

الباب التاسع عشر
في ذكر فضيلة الجمال
وميل النفوس إليه على كلِّ حال

اعلم أنَّ الجمال ينقسمُ قسمين: ظاهر وباطن، والجمال هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم، والعقل، والجود، والعفَّة، والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبد ه وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح[١]: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم، وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**».

وهذا الجمال الباطن يُزيِّن الصورة الظاهرة، وإن لم تكن ذات جمالٍ، فيكسو صاحبه من الجمال، والمهابة، والحلاوة بحسب ما اكتسبت روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يُعطىٰ مهابة، وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه ومن خالطه أحبه. وهذا أمرٌ مشهودٌ بالعيان، فإنك ترىٰ الرجل الصالح، الحسن، ذا الأخلاق الجميلة من أحلىٰ الناس صورة، وإن كان أسود، أو غير جميل، ولاسيَّما إذا رُزق حظًّا من صلاة الليل، فإنَّها تُنوّر الوجه، وتحسِّنُه.

وقد كان بعضُ النساء تكثرُ صلاة الليل، فقيل لها في ذلك، فقالت: إنها تحسِّنُ الوجه، وأنا أحبُّ أن يحسن وجهي. ومما يدلُّ علىٰ أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر: أن القلوب لا تنفكُّ عن تعظيم صاحبه، ومحبته، والميل إليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

فصل

الجمال الظاهر هي الزينة التي خص الله تعالى بها بعض خلقه

وأما الجمال الظاهر؛ فزينةٌ خصَّ الله بها بعض الصُّور عن بعض، وهي من زيادة الخلق؛ التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] قالوا: هو الصوت الحسن، والصُّورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة علىٰ محبته كما هي مفطورةٌ علىٰ استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح[1] عنه ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر**» قالوا: يا رسول الله! الرجل يُحبُّ أن تكون نعله حسنة، وثوبه حسنًا؛ أفذلك من الكبر؟ فقال: «**لا، إن الله جميل يحبُّ الجمال. الكِبْرُ بطرُ الحقِّ، وغمط الناس**». فبطر الحقِّ: جحدُه، ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظرُ إليهم بعين الازدراء، والاحتقار، والاستصغار لهم، ولا بأس بهذا إذا كان لله، وعلامتُه: أن يكون لنفسه أشدَّ ازدراءً واستصغارًا منه لهم. فأمَّا إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده، فهذا الذي لا يدخل صاحبُه الجنَّة.

فصل

الجمال الباطن من أعظم نعم الله على عبده

وكما أنَّ الجمال الباطن من أعظم نعم الله علىٰ عبده؛ فالجمالُ الظاهر نعمةٌ منه أيضًا علىٰ عبده، يُوجب شكرًا، فإن شكره بتقواه وصيانته؛ ازداد جمالًا علىٰ جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه؛ قلبه له شَيْنًا ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعودُ تلك المحاسنُ وحشةً، وقبحًا، وشينًا، وينفر عنه من رآه، فكلُّ منْ

(١) أخرجه مسلم (٩١).

لم يتَّقِ الله في حسنه وجماله؛ انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبحُ الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كلَّ يوم في المرآة، فإن رأىٰ صورته حسنةً؛ لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحةً؛ لم يجمعْ بين قُبح الصورة، وقُبح الفعل.

ولمَّا كان الجمال من حيث هو محبوبًا للنفوس، معظمًا في القلوب؛ لم يبعث الله نبيًّا إلا جميل الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال عليٌّ بن أبي طالب.

وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهًا، كما قال البراء بن عازب وقد سُئل: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر(١).

وفي صفته ﷺ: كأنَّ الشمس تجري في وجهه، يقول واصفُه: لم أرَ قبله، ولا بعده مثله(٢).

وفي الصحيح(٣) عنه ﷺ: أنه رأىٰ يوسف ليلة الإسراء، وقد أُعطي شطر الحُسن.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير(٤): دخل رجلٌ علىٰ معاوية غمصًا، يعني: رمص العينين، فحطَّ من عطائه وقال: ما يمنعُ أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم وجهه؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٤٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٤) أخرجه الخرائطي (ص١٦٠).

حقيقة الجمال لا يدرك إلا بالوصف

فصل

وهذا فصل في ذكر حقيقة الحُسْنِ والجمال ما هي؟ وهذا أمرٌ لا يُدْرَكُ إلا بالوصف، وقد قيل: إنَّه تناسُب الخِلْقة، واعتدالُها، واستواؤها، وربَّ صُورةٍ متناسبة الخِلْقة، وليست في الحُسن هناك، وقد قيل: الحُسْنُ في الوجه، والملاحةُ في العينين. وقيل: الحُسْنُ أمرٌ مركَّبٌ من أشياء: وضاءة، وصباحة، وحسنُ تشكيل، و تخطيطٍ، ودموثة في البشرة، وقيل: الحسنُ معنىً لا تناله العبارة، ولا يُحيط به الوصفُ، وإنَّما للناس منه أوصافٌ أمكن التعبيرُ عنها.

وقد كان رسول الله ﷺ في الذُّرْوة العُليا منه، ولقي بعضُ الصَّحابة راهبًا، فقال: صف لي محمدًا كأنِّي أنظرُ إليه، فإنِّي رأيتُ صفته في التوراة والإنجيل، فقال: لم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير، فوق الرَّبعة، أبيضَ اللون مُشْرَبًا بالحمرة، جَعْدًا ليس بالقطط، جُمَّتُه إلىٰ شحمة أُذنه، صَلْتَ الجبين، واضحَ الخَدِّ، أدعَج العينين، أقنىٰ الأنف، مفلَّج الثنايا، كأنَّ عنقه إبريقُ فضَّة، ووجهه كدارة القمر. فأسلم الراهب.

وفي صفة هند بن أبي هالة له ﷺ: لم يكن بالطويل المُمَغَّطِ ولا بالقصير المتردِّد، كان رَبْعَةً من الرِّجال، ولم يكن بالجَعْد القطط، ولا بالسَّبط، ولم يكن بالمُطهَّم ولا بالمُكَلْثَم، وكان في الوجه تدوير، أبيضُ مُشْرَب، أدعج العينين، أهدَبُ الأشفار، جليلُ المُشاش والكتدِ، شَثْن الكفين والقدمين، دقيقُ المسْرُبة، إذا مشىٰ تقلَّع كأنما ينحطُّ من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، كأن الشمس تجري في وجهه[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩، ١١).

وكان ﷺ مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبَّةُ، والمهابةُ، فمن وقعت عليه عيناه؛ أحبَّه، وهابه، وكمَّل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهرًا وباطنًا. وكان أحسنَ خلقِ الله خَلقًا وخُلقًا، وأجملَهم صورةً ومعنىٰ. وهكذا كان يوسفُ الصِّديق ﷺ، ولهذا قالت امرأةُ العزيز للنِّسوة لمَّا أرتهُنَّ إياه؛ ليعذُرْنَها في محبَّته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هذا هو الذي فُتنت به، وشُغِفْتُ بحبِّه، فمن يلومني علىٰ محبته، وهذا حسن منظره. ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: ومع هذا الجمال، فباطنُه أحسنُ من ظاهره، فإنَّه في غاية العفَّة، والنَّزاهة، والبُعد عن الخنا، والمحبُّ وإن عِيبَ محبوبه؛ فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه، ومدحه.

ويتعلَّق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]. **فجمَّل ظواهرهم بالنَّضْرة، وبواطنهم بالسُّرور، ومثله قوله:** ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ -٢٣] **فإنه لا شيء أشهى إليهم، وأقرُّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النَّظر إليه، فنضَّر وجوههم بالحسن، ونعَّم قلوبهم بالنظر إليه.**

وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ **فهذا زينة الظاهر، ثم قال:** ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] **أي: مطهرًا لبواطنهم من كل أذىً. فهذا زينة الباطن، ويشبهه قوله تعالى:** ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] **فهذا زينةُ الظاهر، ثم قال:** ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] **فهذا زينةُ الباطن،** وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالىٰ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًا﴾ [فصلت: ١٢] فزيَّن ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشيطان.

وقريبٌ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]

فذكر الزَّاد الظاهر، والزاد الباطن، وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلىٰ زينة ألفاظه، وفصاحته، وبلاغته الظاهرة.

ومنه قوله تعالىٰ لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩] فقابل بين الجوع والعُري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضَّحْي دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُري الباطن، وذُلُّه، والعُرْي جوعُ الظاهر، وذُلُّه. فقابل بين ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأُ: حرُّ الباطن، والضحيُ: حرُّ الظاهر، فقابل بينهما.

وقيل: الحسنُ ما استنطق أفواه النَّاظرين بالتسبيح والتهليل، كما قال عليُّ بن الجهم:

طلعتْ فقال الناظرون إلى ... تصويرها ما أعظم الله

ودنتْ فلما سلَّمتْ خجلت ... والتفَّ بالتفّاح خدَّاها

وكأن دِعْصَ الرَّمل أسفلُها ... وكأنَّ غُصْن البانِ أعْلاها

ولي من أبيات:

يا صورة البدر ولا والَّذي ... صوَّر ليس البدرُ يحكيكِ

مُنِّي على العين ولا تبخلي ... بنظرة فالعينُ تفديك

وإن تحرَّجت لهذا فكم ... قد سبح الرحمن رائيك

هذا بهذا وارتجي أجر من ... إن غبتِ عنه ظلَّ يبكيك

قال ابن شُبْرُمة: كفاك من الحسن أنَّه مشتقٌّ من الحسنة.

فصل

فيا أيُّها العاشقُ سمعُه قبل طَرْفه، فإنَّ الأُذن تعشقُ قبل العين أحيانًا، وجيش المحبَّة قد يدخلُ المدينة من باب السمع، كما يدخلُها من باب البصر، والمؤمنون يشتاقون إلىٰ الجنة وما رأوها، ولو رأوها؛ لكانوا أشدَّ لها شوقًا، والصَّرُورة يكاد قلبُه يذوبُ شوقًا إلىٰ رؤية البيت الحرام، فإنْ شاقتك هذه الصفات، وأخذتْ بقلبك هذه المحاسن:

فاسمُ بعينيك إلى نسوةٍ ... مهُورُهنَّ العملُ الصالحُ

وحدِّثِ النَّفس بعشق الأُلى ... في عِشْقِهِنَّ المتْجَرُ الرَّابح

واعْملْ على الوصلِ فقد أمكنتْ ... أسبابُه ووقتُها رائحُ

فصل

صفات الحور العين

وقد وصف الله سبحانه نساء الجنَّة بأحسنِ الصِّفات، وحلَّاهنَّ بأحسن الحُليِّ، وشوَّق الخُطَّاب إليهن، حتىٰ كأنَّهم يرونهنَّ رؤية العين.

وقد وصفهنَّ تعالىٰ بأنهنَّ كواعب، وهي جمع كاعِبٍ، وهي المرأة التي قد تكعَّب ثديُها، واستدار، ولم يتدَلَّ إلىٰ أسفل، وهذا من أحسن خلق النِّساء، وهو ملازمٌ لسنِّ الشباب.

ووصفهنَّ بالحُور، وهو حُسْنُ ألوانِهنَّ وبياضُهُ، قالت عائشة[1] رضي الله عنها: البياض نصفُ الحسن.

(١) أخرج عنها الخرائطي (ص١٦٥).

والعِينُ: جمعُ عَيْنَاء، وهي المرأةُ الواسعة العين مع شدَّة سوادها، وصفاء بياضها، وطولِ أهدابها وسوادها.

ووصفهنَّ بأنهنَّ خيْراتٌ حسان، وهو جمع خيْرة، وأصلها خيِّرة بالتَّشديد، كطَيِّبة، ثم خُفِّف الحرف، وهي التي قد جمعت المحاسن ظاهرًا وباطنًا، فكمل خَلْقها، وخُلُقها، فهنَّ خيراتُ الأخلاق، حسانُ الوجوه.

ووصفهنَّ بالطَّهارة، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] طَهُرْنَ من الحيض والبول والنَّجوِ وكلِّ أذًى يكون في نساء الدُّنيا، وطهُرت بواطنُهنَّ من الغيرة، وأذى الأزواج، وتجنِّيهنَّ عليهم، وإرادة غيرهم.

ووصفهنَّ بأنَّهنَّ مَقْصُوراتٌ في الخيام، أي: ممنوعاتٌ من التبرُّج، والتبذل لغير أزواجهنَّ، بل قد قُصِرْنَ على أزواجهنَّ، لا يخرجن من منازلهم، وقُصِرْن عليهم، فلا يُرِدن سواهم.

ووصفهنَّ سبحانه بأنهنَّ قاصراتُ الطَّرْف، وهذه الصِّفةُ أكمل من الأولى، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأوليين، فالمرأة منهنَّ قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له، ورضاها به، فلا يتجاوزُ طرفُها عنه إلى غيره، كما قيل:

أذودُ سَوَامَ الطَّرْفِ عنكَ وماله ... على أحدٍ إلا عليك طريقُ

وكذلك حال المقصورات أيضًا، ولكن أولئك مقصوراتٌ، وهؤلاء قاصرات.

ووصفهنَّ سبحانه بقوله: ﴿أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٦ - ٣٧] وذلك لفضل وطءِ البكر، وحلاوته، ولذاذته على وطء الثَّيِّب.

قالت عائشة: يا رسول الله! لو مررت بشجرة قد رُعي منها، وشجرةٍ لم يُرْعَ

منها؛ ففي أيِّهما كنت تُرتِع بعيرك؟ قال: «**في التي لم يُرع منها**»[١] يعني: أنه لم يتزوَّج بكرًا غيرها.

وصحَّ عنه: أنَّه قال لجابر لما تزوَّج امرأة ثيبًا: «**هلَّا بكرًا تُلاعبُها وتُلاعبك؟**»[٢].

فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأوَّل وطْءٍ، فتعود ثيِّبًا، قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ المقصود من وطء البكر أنَّها لم تذُق أحدًا قبل وطئها، فتُزْرع محبته في قلبها، وذلك أكملُ لدوام العشرة، فهذا بالنسبة إليها، وأمَّا بالنسبة إلىٰ الواطئ؛ فإنَّه يَرْعىٰ روضةً أُنفًا، لم يرْعَها أحدٌ قبله، وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦] ثم بعد هذا تستمرُّ له لذّةُ الوطءِ حال زوال البكارة.

والثاني: أنه قد رُوي: «**أنَّ أهل الجنة كلما وطئ أحدهم امرأةً؛ عادت بكرًا، كما كانت، فكلَّما أتاها؛ وجدها بكرًا**»[٣].

وأما العُرُبُ: فجمعُ عروب، وهي التي جمعت إلىٰ حلاوة الصُّورة حسن التأتي، والتبعُّل، والتحبُّب إلىٰ الزوج بدَلِّها، وحديثها، وحلاوة منطقها، وحسن حركاتها.

قال البخاريُّ في صحيحه[٤]: وأمَّا الأتراب: فجمع تِرْب، يقال: فلانٌ تِرْبي: إذا كنتما في سنٍّ واحدةٍ، فهنَّ مستوياتٌ في سنِّ الشباب، لم يُقصِّرْ بهنَّ الصغر، ولم يُزْرِبهنَّ الكِبَرُ، بل سنُّهن سنُّ الشباب لأكمل الشبان.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩، ٥١٩٠)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣، ٥٠٧٩)، ومسلم (٧١٥).

(٣) سيأتي الحديث قريبًا (ص١٣٣).

(٤) لم أجده فيه.

وشبههنَّ تعالىٰ باللُّؤْلُؤ المكنون، وبالبيض المكنون، وبالياقوت والمرجان، فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه، وحسن بياضه، ونعومة ملمسه، وخذ من البيض المكنون - وهو المصون؛ الذي لم تنله الأيدي - اعتدال بياضه، وشوْبه بما يُحسِّنهُ من قليل صُفرةٍ، بخلاف الأبيض الأمهق، المتجاوز في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه في صفائه، وإشرابه بيسيرٍ من الحمرة.

فصل

فاسمع الآن وصفهنَّ بخبر الصادق المصدوق، فإن مالت النفسُ وحدَّثتك بالخِطبة، وإلا فالإيمان مدخول. فروىٰ مسلمٌ في صحيحه[١] من حديث أيُّوب عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجالُ أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم: «**إنَّ أوَّل زُمرةٍ يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر ليلةَ البدر، والتي تليها علىٰ أضوأ كوكب دُرِّي في السماء إضاءةً، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان يُرىٰ مُخُّ سُوقِهما من وراء اللَّحم، وما في الجنَّة عَزَبٌ**».

وفي الصَّحيحين[٢] من حديث هَمَّام بن مُنبِّه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوَّلُ زُمْرةٍ تلِجُ الجنَّة صُورُهُم علىٰ صورة القمر ليلة البدْر، لا يبصُقُون فيها، ولا يمتخِطُون فيها، ولا يتغوَّطُون فيها، آنيتُهُم وأمشاطُهُمُ الذَّهبُ والفضَّةُ، ومجامِرُهُم الألُوَّة، ورشحُهُم المِسْك، ولكلِّ واحد منهم زوجتان، يُرىٰ مخُّ ساقِهما من وراء اللَّحْم من الحُسن، لا اختلاف بينهُم ولا تباغُض، قُلُوبهم علىٰ**

---

(١) رقم (٢٨٣٤). وأخرجه أيضًا البخاري (٣٣٢٧).

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤).

قلب واحدٍ، يُسبِّحون الله بكرةً وعشيةً».

وفي صحيح البخاري[١] من حديث أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لغَدْوةٌ في سبيل الله، أوْ روْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوس أحدِكُم، أو موضع قِيْدِه** - يعني: سوطه - **خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولو اطَّلعت امرأةٌ من نساء الجنَّة إلىٰ الأرض؛ لملأت ما بينهما ريحًا، وأضاءتْ ما بينهما، ولنصيفُها علىٰ رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها»**.

فصل

فإن أردت سماع غنائهنَّ؛ فاسمع خبره الآن، ففي معجم الطَّبراني[٢] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أزْواج أهْلِ الجنَّة ليُغنِّين أزْواجَهنُ بأحْسَن أصْوَاتٍ، ما سمعها أحدٌ قطُّ، إن ممَّا يُغنِّينَ به: نحنُ الخيِّراتُ الحِسَانُ، أزواجُ قوم كرام، ينْظُرُون بقُرَّة أعيانٍ، وإنَّ مما يُغنِّين به: نحنُ الخالداتُ، فلا نمُتْنَهْ، نحنُ الآمناتُ، فلا نخفْنَهْ، نحنُ المُقيماتُ، فلا نظعَنَّهْ»**.

وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]: إنه السماع الطيبُ، ولا ريب أنه من الحبرة.

وفي سنن ابن ماجه[٣] من حديث أُسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل مُشمِّرٌ للجنة! فإن الجنة لا خطر لها، هي وربِّ الكعبة نُورٌ يتلألأُ، وريحانةٌ تهتزُّ،**

(١) رقم (٢٧٩٢، ٢٧٩٦، ٦٥٦٨). وأخرجه أيضًا مسلم (١٨٨٠).

(٢) الصغير (٧٣٤)، والأوسط (٤٩١٤). ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي (١٠/ ٤١٩).

(٣) رقم (٤٣٣٢). وهو حديث ضعيف.

وقصرٌ مشيدٌ، ونهرٌ مطّرد، وثمرةٌ نضيجة، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ، وحُلَلٌ كثيرةٌ، ومقامٌ في أبَدٍ في دارٍ سليمةٍ، وفاكهة وخُضرةٍ، وحبْرةٍ ونعمةٍ، في محلَّةٍ عالية بهيَّةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله! نحنُ المشمِّرون لها، قال: «**قولوا: إن شاء الله**». فقال القوم: إن شاء الله.

فصل

فهذا وصفُهنَّ وحسنُهنَّ، فاسمع الآن لذَّةَ وصالهنَّ، وشأنه، ففي صحيح مسلم[١] من حديث أبي موسىٰ الأشعريِّ عن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنَّة لخيمة من لُؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طولُها سِتُّون ميلًا، للمؤمن فيها أهلُون يطوف عليهم المؤمن فلا يرىٰ بعضُهُم بعضًا**» ورواه البخاري[٢] وقال: ثلاثون ميلاً.

وفي جامع الترمذي[٣] من حديث أنسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يُعْطىٰ المؤمنُ في الجنة قوَّة كذا وكذا من النساء**» قلت: يا رسول الله! ويطيقُ ذلك؟ قال: «**يُعْطىٰ قوة مئة**». قال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ.

وفي معجم الطَّبراني[٤] من حديث أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله! هل نَصِلُ إلىٰ نسائنا في الجنة؟ فقال: «**إنَّ الرجل ليصلُ في اليوم إلىٰ مئة عذراء**» وفي لفظٍ: قلنا: يا رسول الله! نُفضي إلىٰ نسائنا في الجنة؟ فقال: «**إي والذي نفسي بيده! إنَّ الرجل ليُفْضي في الغداة الواحدة إلىٰ مئة امرأة عذراء**». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: ورجالُ هذا الحديث عندي علىٰ شرط الصَّحيح.

---

(١) رقم (٢٨٣٨).
(٢) رقم (٤٨٧٩).
(٣) رقم (٢٥٣٩).
(٤) الصغير (٧٩٥)، والأوسط (٧٢٢).

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة، عن أبي هريرة أنه قال: أنطأُ في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم والذي نفسي بيده! دحْمًا دحْمًا، وإذا قام عنها رجعتْ مُطَهَّرة بكرًا**»[١].

نظم الشيخ شمس الدين المؤلف

فيا خاطب الحُور الحسان وطالبًا ... لـوصـالـهـنَّ بـجـنَّـة الـحـيـوان

لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلتَ ما تحوي من الأثمان

أو كنت تدري أين مسكنها جعلـ ... ـت السَّعي منك لها على الأجفان

أسـرِعْ وحُثَّ السَّير جُهدك إنما ... مـسـراك هـذا سـاعـةٌ لـزمـان

فاعشق وحدّثْ بالوصال النفس وابـْ ... ذُلْ مهرَها ما دُمْـت ذا إمكان

واجعل صيامـك دون لقياها ويو ... م الوَصْل يوم الفطر من رمضان

واجعل نعوت جمالها الحادي وسِرْ ... نحو الحبيب ولست بالمُتواني

فاسـمع إذًا أوصافهـا ووصالهـا ... واجعل حديثك ربة الإحسان

من قاصرات الطَّرْفِ لا تبغي سوى ... محبوبها مـن سـائـر الـشُّـبَّـانِ

قصَـرتْ عليـه طرفها من حُسْـنِهِ ... والـطَّـرْفُ منـه مُـطـلـقٌ بـأمـان

ويحار منه الطرفُ في الحسن الذي ... قد أُعطيت فالطرفُ كالحيران

---

(١) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٣). وإسناده حسن.

ويقـولُ لمَّـا أن يُشـاهد حُسـنها سبحان مُعطي الحُسن والإحسان
والطرف يشربُ من كؤوس جمالها فـتـراه مثل الـشَّـارب الـنَّـشْـوانِ
كمُلـتْ خلائقُها وأُكمِل حسـنُها كالبدْر ليل الـسِّـتِّ بعد ثمانِ
حُمْـر الخُـدود ثُغورُهـنَّ لآلِيءٌ سـودُ العـيون فـواتـرُ الأجـفـانِ
والبـرقُ يبـدو حين يبسـمُ ثغرُها فيضيءُ سقف القصرِ بالجُدْرانِ
ريانـة الأعطـاف مـنْ ماء الشَّـبا ب فغصنُها بالماء ذو جريان
والقدُّ منهـا كالقضيـب اللَّدْنِ في حُسن القوام كأوسط القُضبانِ
والمِعْصمـان فإن تشـأْ شـبِّهْهما بـسـبيـكـتـين عـلـيـهـمـا كـفَّـانِ
كالزُّبْـدِ لينًـا في نعومـة ملْمَـسٍ أصـــدافُ درٍّ دُوِّرت بــوزانِ
أقدامُهـا مـنْ فضَّـةٍ قـد رُكِّبـتْ مـنْ فـوقـهـا سـاقـان مـلـتـفَّـانِ
والسَّـاقُ مثـلُ العـاج ملمـومٌ به مـخُّ الـعِـظـام تـنـالُـه الـعـينـانِ
والرِّيحُ مسْـكٌ والجُسـومُ نواعمٌ والـلـونُ كالياقوت والمرْجانِ
وكلامُهـا يسـبي العقـول بنغمـةٍ زادتْ على الأوتـار والعيدانِ
وهـي العرُوب بشـكلها وبِدلِّـها وتـحـبُّـبٍ لـلـزَّوْجِ كـلَّ أوانِ
أتـرابُ سِـنٍّ واحـدٍ متماثـلٍ سـنِّ الـشَّـبـاب لأجمل الـشُّـبَّـانِ
بكرٌ فلم يأْخذ بكارتها سـوى الـ محبوب منْ إنسٍ ولا من جان

يُعْطى المُجامعُ قُوّة المئةِ التي اجـ ـتمعت لأقوى واحد الإنسانِ

ولقد أتانا أنَّه يغْشى بيو م واحدٍ مئةً من النِّسوانِ

فاجمعْ قُواك لما هُناك وغُضَّ منـ ـك الطَّرْف واصبرْ ساعةً لزمانِ

ما هاهنا والله ما يَسوَى قُلا مة ظُفْرِ واحدةٍ من النِّسوانِ

ونصِيفُها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها إذا كانت من الأثمان

لا تؤثرِ الأدنى على الأعلى فإنْ تفعلْ رجعْتَ بذلَّةٍ وهوانِ

يا عاشقًا هانت عليه نفسُه إذْ باعها غبْنًا بكل هوانِ

أترى يليقُ بعاقلٍ بيعُ الذي يبقى - وهذا وصفُه - بالفاني؟!

الباب العشرون
في علامات المحبَّة وشواهدها

ص: ٣٦٦

وقبل الخوض في ذلك لابدَّ من ذكر أقسام النفوس ومحابِّها، فنقول:

النفوس ثلاثة: نفسٌ سماويةٌ عُلوية، فمحبتها منصرفةٌ إلى المعارف، واكتساب الفضائل، والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفةٌ بما يقرِّبها من الرفيق الأعلى، وذلك قُوْتُها، وغذاؤُها، ودواؤُها، واشتغالُها بغيره هو داؤُها.

ونفسٌ سبعيةٌ غضبيةٌ، فمحبتُها منصرفةٌ إلى القهر، والبغي، والعلوِّ في الأرض، والتكبُّر، والرِّئاسة على الناس بالباطل، فلذَّتها في ذلك، وشغفُها به.

ونفسٌ حيوانيةٌ شهوانيةٌ، فمحبَّتها منصرفةٌ إلى المأكل، والمشرب، والمنكح، وربما جمعت الأمرين، فانصرفت محبَّتُها إلىٰ العلوِّ في الأرض، والفساد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]. وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والحبُّ في هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأيُّ نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعها؛ استحسنتهُ ومالتْ إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم يأخذها فيه لومةُ لائم، وكلُّ قسم من هذه الأقسام يرون أنَّ ما هم فيه أولىٰ بالإيثار، وأنَّ الاشتغال بغيره، والإقبال علىٰ سواه غبنٌ، وفوات حظٍّ، فالنَّفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلىٰ مناسبةٌ طبيعية بها مالت إلىٰ أوصافهم، وأخلاقهم، وأعمالهم.

فالملائكةُ أولياء هذا النوع في الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

فالملَك يتولَّىٰ من يناسبه بالنُّصح له، والإرشاد، والتَّثبيت، والتعليم، وإلقاء الصواب علىٰ لسانه، ودفع عدوِّه عنه، والاستغفار له إذا زلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضِّه علىٰ التصديق بالوعد، وتحذيره من الرُّكون إلىٰ الدُّنيا، وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسُه في الوحدة، ووليُّه، ومعلِّمه، ومثبِّتُه، ومسكِّن جَأْشِه، ومرغِّبه في الخير، ومُحذِّره من الشرِّ، يستغفر له إن أَساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر الله؛ بات معه في شعاره، فإن قصده عدوٌّ له بسوءٍ وهو نائمٌ؛ دفعه عنه.

فصل

والشياطين أولياء النوع الثاني، يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات. قال الله تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣] وقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩ - ١٢١]، وقال

تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فهذا النوعُ بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبةٌ طبعية، بها مالت إلىٰ أوصافهم، وأخلاقهم، وأعمالهم، فالشياطينُ تتولاهم بضدِّ ما تتولىٰ به الملائكة من ناسبهم، فتؤُزُّهم إلىٰ المعاصي أزًّا، وتزعجهم إليها إزعاجًا، لا يستقرُّون معه، ويزينون لهم القبائح، ويخففونها علىٰ قلوبهم، ويحلونها في نفوسهم، ويثقلون عليهم الطاعات، ويُثبِّطونهم عنها، ويقبِّحُونها في أعينهم، ويلقون علىٰ ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام، وما لا يفيد، ويزيِّنونه في أسماع من يسمعه منهم، يبيتُون معهم حيث باتوا، ويقيلون معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

فصل

وأما النوع الثالث؛ فهم أشباه الحيوان، ونفوسهم أرضيةٌ سفليةٌ، لا تبالي بغير شهواتها، ولا تريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة فعلامات المحبة قائمةٌ في حقّ كل نوع بحسب محبوبه ومراده، فمن تلك العلامات يُعرف من أيِّ هذه الأقسام هو، فنذكر فصولًا من علامات المحبة التي يُستدلُّ بها عليها:

فمنها: إدمانُ النظر إلىٰ الشيء، وإقبال العين عليه، فإنَّ العين باب القلب، وهي المعبِّرةُ عن ضمائره، والكاشفة لأسراره، وهي أبلغ في ذلك من اللسان؛ لأن دلالتها حاليةٌ بغير اختيار صاحبها، ودلالةُ اللسان لفظيةٌ تابعةٌ لقصده، فترىٰ ناظر المحب يدور مع محبوبه كيفما دار، ويجول معه في النواحي والأقطار.

فصل

ومنها: إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه، ورميه بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم، وهو يُحِدُّ النَّظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلىٰ الأرض.

قال الله تعالىٰ مخبرًا عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وهذا غايةُ الأدب، فإن البصر لم يزغ يمينًا ولا شمالًا، ولا طمح متجاوزًا إلىٰ ما هو رائيه ومقبلٌ عليه، كالمُتشارف إلىٰ ما وراء ذلك.

ولهذا اشتدَّ نهي النبي ﷺ للمصلِّي أن يَرفع بصره إلىٰ السماء، وتوعَّدهم علىٰ ذلك بخطف أبصارهم؛ إذ هذا من كمال الأدب مع مَنِ المصلي واقفٌ بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرَّأس، مطرقًا إلىٰ الأرض، ولولا أن رب العالمين سبحانه فوق سمواته علىٰ عرشه؛ لم يكن فرقٌ بين النظر إلىٰ فوق أو إلىٰ أسفل.

فصل

ومنها: كثرةُ ذكر المحبوب، واللهجُ بذكره وحديثه، فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكرهِ بقلبه، ولسانه. ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره علىٰ جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوفَ ما يكونون، فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] والمحبون يفتخرون بذكر أحبابهم وقت المخاوف، وملاقاة الأعداء، كما قال قائلهم:

ولقد ذكرتك والرماحُ كأنَّها ... أشطانُ بئرٍ في لبان الأدهم

فوددْتُ تقبيل السُّيوف لأنها ... برقت كبارق ثغرك المتبسِّم

وفي بعض الآثار الإلهية: «إنَّ عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنه»[1].

فعلامةُ المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرَّغب والرهب، قال بعضُ المحبين في محبوبه:

يذكِّرنِيك الخيرُ والشَّرُّ والذي ... أخافُ وأرجو والَّذي أتوقَّعُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٠) وضعفه.

ومن الذكر الدالِّ على صدق المحبة سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحبِّ ولسانه عند أول يقظته من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه، كما قال قائلهم:

آخرُ شيءٍ أنتِ في كلِّ هجْعةٍ ... وأوَّلُ شيءٍ أنتِ وقتَ هُبوبي

وذكر المحبوب لا يكون علىٰ نسيانٍ مستحكم، فإنَّ ذكره بالقوَّة في نفس المحبِّ، ولكن لضيق المحلِّ يرد عليه ما يُغيِّب ذكره، فإذا زال الوارد؛ عاد الذِّكر كما كان.

وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبِس المحبُّ لسانه على ذكره، ثمَّ يحبسُ قلبه على لسانه، ثم يحبسُ قلبَه ولسانه على شهودِ مذكوره. وكما أن الذِّكر من نتائج الحبِّ، فالحبُّ أيضًا من نتائج الذكر، فكلٌّ منهما يُثْمرُ الآخر، وزرعُ المحبَّة إنَّما يُسْقَى بماء الذِّكر، وأفضلُ الذِّكر ما صدر عن المحبَّة.

فصل

ومن علاماتها: الانقيادُ لأمر المحبوب، وإيثارُه علىٰ مراد المُحبِّ، بل يتَّحدُ مرادُ المُحبِّ والمحبوب.

والمحبُّون ثلاثة أقسام: منهم منْ يُريد من المحبوب، ومنهم من يُريد المحبوبَ، ومنهم من يُريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبِّين، وزهدُ هذا أعلىٰ أنواع الزُّهد، فإنَّه قد زهد في كل إرادةٍ تُخالف مُراد محبوبه، وبين هذا وبين الزُّهد في الدُّنيا أعظمُ ممَّا بين السماء والأرض.

والزُّهد خمسةُ أقسام: زهدٌ في الدُّنيا، وزهدٌ في النَّفس، وزهدٌ في الجاه

والرِّئاسة، وزهدٌ فيما سوى المحبوب، وزهدٌ في كلِّ إرادةٍ تخُالف مُراد المحبوب، وهذا إنَّما يحصلُ بكمال المُتابعة لرسول الحبيب.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبَّتهم له، وكونُ العبد محبوبًا لله أعلىٰ من كونه محبًّا له، فليس الشأْنُ أن تحبَّ الله، ولكن الشأن أن يُحبَّك الله، فالطاعةُ للمحبوب عنوانُ محبته، كما قيل:

تعصـي الإلـه وأنـت تزعـمُ حبَّه هـذا مُـحـالٌ في القـياس بديعُ

لـو كان حبُّـك صادقًـا لأطعتـه إنَّ المُحبَّ لمن يُحِبُّ مُطيعُ

فصل

ومن علاماتها: قلةُ صبر المحب عن المحبوب، بل ينصرف صبرُه إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبرُ المحب، وأما الصبرُ عنه؛ فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره قال:

والصبرُ يُـحمَد في المواطن كلِّها وعـن الحـبـيـب فـإنـه لا يُحمَد

فصل

ومنها: الإقبالُ علىٰ حديثه، وإلقاءُ سمعه كلِّه إليه، بحيث يفرغُ لحديثه سمعه، وقلبُه، وإن ظهر منه إقبالٌ علىٰ غيره؛ فهو إقبالٌ مستعارٌ، يستبينُ فيه التكلُّف لمن يرمُقُه، كما قال:

وأُديـمُ لَـحْظَ مُحدِّثِـي ليـرى   أن قـد فهمتُ وعندكم عقلي

فإن أعوزه حديثُه بنفسه؛ فأحبُّ شيء إليه الحديث عنه، ولاسيَّما إذا حدَّث عنه بكلامه، فإنَّه يقوم مقام خطابه، كما قال القائل: المحبُّون لا شيء ألذُّ لقلوبهم من سماع كلام محبوبهم، وفيه غاية مطلوبهم، ولهذا لم يكن شيءٌ ألذّ لأهل المحبَّة من سماع القرآن، وقد ثبت في الصحيح[1] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرأْ عليَّ**» قلت: أقرأُ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «**إنِّي أُحِبُّ أنْ أسمعهُ من غيري**» فقرأْت عليه من أوَّل سورة النِّساء حتىٰ إذا بلغت قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك**» فرفعت رأْسي فإذا عيناه تذْرِفان!

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا؛ أمروا قارئًا يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب إذا دخل عليه أبو موسىٰ؛ يقول: يا أبا موسىٰ! ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأُ أبو موسىٰ، وربما بكىٰ عمر.

ومرَّ رسولُ الله ﷺ بأبي موسىٰ وهو يُصلِّي من الليل، فأعجبته قراءتُه، فوقف، واستمع لها، فلما غدا علىٰ رسول الله ﷺ قال: «**لقد مررتُ بك البارحة؛ وأنت**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٤٩، ٥٠٥٠، ٥٠٥٦)، ومسلم (٨٠٠).

تقرأُ، فوقفت، واستمعتُ لقراءتك» فقال: لو أعلمُ أنَّك كنت تسمعُ؛ لحبَّرته لك تحبيرًا[(١)].

والله سبحانه وهو الذي تكلم بالقرآن يأذن، ويستمعُ للقارئ الحسن الصَّوت منْ محبَّته لسماع كلامه منه، كما قال ﷺ: «**لله أشدُّ أذنًا إلىٰ القارئ الحسن الصَّوتِ من صاحب القيْنَةِ إلىٰ قيْنَتِهِ**»[(٢)]. والأذَنُ - بفتح الهمزة والذَّال - مصدر أذِن يأْذنُ: إذا استمع.

فصل

ومنها: محبَّةُ دار المحبوب وبيته، حتىٰ محبَّةُ الموضع الذي حلَّ به، وهذا هو السرُّ الذي لأجله عكفت القلوب علىٰ محبَّة الكعبة البيت الحرام، حتىٰ استطاب المحبون في الوصول إليها هجرَ الأوطان والأحباب. ولذَّ لهم فيها السَّفرُ الذي هو قطعةٌ من العذاب، فركبوا الأخطار، وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في الوصول غاية المشاق، ولو أمكنهم لسَعَوا إليها علىٰ الجفون والأحداق.

نعم أسعى إليك على جفوني ... وإن بَعُدت لمسراك الطريق

وسرُّ هذه المحبة هي إضافةُ الربِّ سبحانه له إلىٰ نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦].

لما انتسبتُ إليك صرت معظمًا ... وعلوتُ قدرًا دون من لم ينتسبْ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠). وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٧١).

وكلُّ ما نُسِب إلىٰ المحبوب فهو محبوب ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. ومن فهم معنىٰ هذا؛ فهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقول عبده ورسوله ﷺ: «**لبَّيك، وسعديك، والخير في يديك، والشرُّ ليس إليك**»(١).

وإذا كان من يحبُّ مخلوقًا مثله؛ يحبُّ داره، كما قال:

أمُرُّ على الدِّيارِ ديار ليلى ... أقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الدِّيارِ شغفْنَ قلبي ... ولكن حبُّ منْ سكن الدِّيارا

فكيف بمن ليس كمثله شيء، ومن ليس كمثل محبَّته محبَّة؟!

فصل

ومنها: الإسراع إليه في السير، وحَثُّ الركاب نحوه، وطيُّ المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدُّنوِّ منه، وقطعُ كل قاطع يقطعُ عنه، واطراحُ الأشغال الشَّاغلة عنه، والزُّهد فيها، والرغبةُ عنها، والاستهانةُ بكلِّ ما يكون سببًا لغضبه ومقته، وإن جلَّ، والرغبةُ في كل ما يدني إليه.

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

فصل

ومنها: محبةُ أحباب المحبوب، وجيرانه، وخدمه، وما يتعلق به، حتىٰ حرفته، وصناعته، وآنيته، وطعامه، وشرابه، وكان أنسُ بن مالك يحبُّ الدُّبَّاء كثيرًا، لما رأىٰ رسول الله ﷺ يتتبعها من جوانب الصحفة[١].

فصل

ومنها: قِصَرُ الطريق حين يزوره ويوافي إليه، كأنها تطوىٰ له، وطولها إذا انصرف عنه، وإن كانت قصيرة، قال:

وكنت إذا ما جئتُ ليلى أزورُها ... أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ودَّ جليسُها ... إذا حدَّثت أُحدوثة لو تُعيدُها

فصل

ومنها: انجلاء همومه وغمومه إذا رأىٰ محبوبه أو زاره، وعودها إذا فارقه، كما قال:

يزور فتنجلي عنِّي هُمومي ... لأنَّ جلاء حُزني في يديه

ويمضي بالمسرَّة حين يمضي ... لأنَّ حَوالتي فيها عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).

ومن المعلوم: أنه ليس للمحب فرحةٌ، ولا سرورٌ، ولا نعيمٌ إلا بمحبوبه، وبمفارقة محبوبه عذابُه الآجل، والعاجل.

فصل

ومنها: البهتُ والرَّوعة التي تحصلُ عند مواجهة الحبيب، أو عند سماع ذكره، ولاسيَّما إذا رآه فجاءةً، أو طلع عليه بغتةً، كما قال:

فما هو إلَّا أن أراها فجاءةً فأُبْهتَ حتى ما أكادُ أُجيبُ

فأرجعُ عن رأْيي الذي كان أولًا وأذكرُ ما أعددتُ حين تغيبُ

فصل

ومنها: غيرتُه لمحبوبه وعلىٰ محبوبه، فالغيرة له: أن يكره ما يكرهُ، ويغار إذا عُصي محبوبُه، وانْتُهِك حقُّه، وضُيِّع أمرُه، فهذه غيرة المحب حقًّا، والدِّينُ كلُّه تحت هذه الغيرة.

فأقوىٰ الناس دينًا أعظمُهم غيرةً، وقد قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح[1]: «**أتعجبُون من غيرة سعدٍ، لأنا أغْيَرُ منه، والله أغيرُ منِّي!**».

فمحبُّ الله ورسوله يغار لله ورسوله علىٰ قدر محبَّته وإجلاله، وإذا خلا قلبُه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبة أخلىٰ، وإن زعم أنَّه من المُحبِّين، فكذب

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

من ادَّعىٰ محبَّة محبوبٍ من الناس، وهو يرىٰ غيره ينتهكُ حُرمة محبوبه، ويسعىٰ في أذاه ومساخطه، ويستهين بحقِّه، ويستخفُّ بأمره، وهو لا يغار لذلك، بل قلبه باردٌ، فكيف يصحُّ لعبدٍ أن يدَّعي محبَّة الله؛ وهو لا يغارُ لمحارمه إذا انْتُهِكت، ولا لحقوقه إذا ضُيِّعت.

وأقلُّ الأقسام أن يغار له من نفسه، وهواه، وشيطانه، فيغار لمحبوبه من تفريطه في حقِّه، وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترحَّلتْ هذه الغيرةُ من القلب؛ ترحَّلتْ منه المحبَّةُ، بل ترحَّل منه الدِّين، وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصلُ الجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وهي الحاملة علىٰ ذلك، فإن خلتْ من القلب لم يُجاهد، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربِّه، ولذلك جعل سبحانه علامة محبَّته ومحبوبيه الجهاد، فقال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فصل

وأما الغيرة علىٰ المحبوب فإنما تُحمَدُ حيث يُحمَد الاختصاص بالمحبوب، ويُذمُّ الاشتراك فيه شرعًا، وعقلًا، كغيرة الإنسان علىٰ زوجته، وأمته، والشيء الذي يختصُّ هو به، فيغارُ من تعرُّض غيره لذكره، ومشاركته له فيه.

وهذه الغيرة تختص بالمخلوق، ولا تتصور في حق الخالق، بل المحب لربه

يحبُّ أن الناس كلهم يحبونه، ويذكرونه، ويعبدونه، ويحمدونه، ولا شيء أقرَّ لعينه من ذلك، بل هو يدعو إلىٰ ذلك بقوله، وعمله.

فصل

ومنها: بذلُ المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة، وللمحب في هذا ثلاثةُ أحوال: أحدها: بذله ذلك تكلفًا، ومشقَّةً، وهذا في أوَّل الأمر، فإذا قويت المحبةُ، بذله رضًا وطوعًا، فإذا تمكنت من القلب غاية التَّمكن، بذله سؤالًا وتضرُّعًا، كأنَّه يأخذُه من المحبوب حتىٰ إنه ليبذُل نفسه دون محبوبه، كما كان الصحابة يقونَ رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم، حتىٰ يصرَّعوا حوله:

ولـي فـؤادٌ إذا لـجَّ الغـرامُ بـه ... هـام اشتياقًا إلـى لُقْيا مُعذِّبه

يفديـك بالنفس صبٌّ لو يكون له ... أعـزُّ مـن نفسه شـيءٌ فـداك به

ومن آثر محبوبه بنفسه فهو له بماله أشدُّ إيثارًا، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦] ولا يتمُّ لهم مقام الإيمان حتىٰ يكون الرسول أحبَّ إليهم من أنفسهم فضلًا عن أبنائهم وآبائهم، كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده، ووالده، والنَّاس أجمعين**»(١) وقال له عمر: والله يا رسول الله! لأنت أحبُّ إليَّ منْ كل شيء إلاَّ من نفسي. فقال: «**لا يا عُمَرُ! حتَّىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**» قال: فوالله لأنت

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

الآن أحب إليّ من نفسي! فقال: «**الآن يا عُمر!**»[(١)].

فإذا كان هذا شأن محبة عبد ه ورسوله؛ فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعًا وقدرًا، وإن وجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله؛ فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه، فحمله محبةُ غرضه علىٰ أن بذل فيه نفسه وماله، وليست محبتُه لذلك المحبوب لذاته، بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مثل، ولمحبته مثل، وأما محبة الله؛ فليس لها مثلٌ، ولا للمحبوب مثل، ولهذا حكَّم الصحابة رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم، فقالوا: هذه أموالنا بين يديك، فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسُنا بين يديك، لو استعرضت بنا البحر لخُضْناه، نقاتل من بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك.

فصل

ومنها: سروره بما يُسرُّ به محبوبه كائنًا ما كان، وإن كرهتهُ نفسه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعًا، ويحبه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحبُّ مع محبوبه، يسره ما يرضىٰ به محبوبه؛ وإن كان كريهًا لنفسه. وأما من كان واقفًا مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولةٌ.

قال أحمد بن الحسين:

يا مَنْ يعزُّ علينا أنْ نُفارقهم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ

إن كان سرَّكُم ما قال حاسِدُنا ... فما لجُرْحٍ إذا أرْضاكُمُ ألمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٤، ٦٢٦٤، ٦٦٣٢).

ولعمرُ الله أكثر هذه دعاوي لا حقيقة لها، والصادقُ منهم يخبر عن عزمه وإرادته، لا عن حاله وصفته، وكل من أحبَّ مع الله شيئًا سواه، سيبدو له إذا انكشف الغطاءُ: أنَّه إنما كان مغرورًا، مخدوعًا بأُمنيَّةٍ ظفرت نفسه بها مدَّة حياته، ثم انقطعتْ، وأعقبتِ الحسرة والنَّدامة. قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

فالأسبابُ التي تقطعت بهم هي: الوصل، والعلائق، والمودَّاتُ التي كانت لغير الله، وفي غير ذات الله، وهي التي تقدم إليها سبحانه فجعلها هباءً منثورًا، **فكلُّ محبةٍ لغيره فهي عذابٌ على صاحبها، وحسرةٌ عليه إلا محبتّه، ومحبةَ ما يدعو إلى محبتّه، ويُعينُ على طاعته، ومرضاته، فهذه التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر.**

فصل

ومنها: حبُّ الوحدة، والأنس بالخلوة، والتفرُّد عن الناس، وكأنَّ المحبة قد ثبتت علىٰ ذلك، **فلا شيء أحلى للمحبِّ الصادق من خلوته، وتفرُّده، فإنَّه إن ظفر بمحبوبه أحبَّ خلوته به، وكره من يدخُل بينهما غاية الكراهة.**

ولهذا السرِّ - والله أعلم - أمر النبي ﷺ بردِّ المارّ بين يدي المُصلِّي حتىٰ أمر بقتاله، وأخبرَ أنَّه لو يدري ما عليه من الإثم؛ لكان وقوفُه أربعين خيرًا له من مروره بين يديه[1]. ولا يجدُ ألم المرور وشدَّته إلا قلب حاضرٌ بين يدي محبوبه،

(١) أخرجه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٥٠٧).

مقبلٌ عليه، قد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فمرورُ المارِّ بينه وبين ربِّه بمنزلة دخول البغيض بين المحب ومحبوبه، وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوق، ولا يُنكره.

وقال ابن مسعود: مرور المارِّ بين يدي المُصلِّي يُذهب نصف أجره، ذكره الإمام أحمد.

وأيضًا فإنَّ المحب يستأنس بذكر محبوبه، وكونه في قلبه لا يُفارقه، فهو أنيسُه، وجليسه، لا يستأنسُ بسواه، فهو مستوحشٌ ممَّن يَشْغَلُهُ عنه. وحدَّثني تقيُّ الدِّين بن شُقير، قال: خرج شيخُ الإسلام ابن تيمية يومًا، فخرجتُ خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء، وانفرد عن الناس بحيثُ لا يراه أحد؛ سمعته يتمثَّل بقول الشاعر:

وأخرُج من بين البيوت لعلَّني ... أحدِّث عنك القلب بالسِّرِّ خاليا

فخلوةُ المحب بمحبوبه هي غاية أُمنيَّته، فإن ظفر بها؛ وإلَّا خلا به في سرِّه، وأوحشه ذلك من الأغيار.

وكان قيسُ بن المُلوَّح إذا رأىٰ إنسانًا هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه؛ ذكر له ليلىٰ وحديثها، فيأنَسُ به، ويسكنُ إليه.

وينبغي للمحبِّ أن يكون من الناس كما قال يوسف لإخوته، وقد طلب منهم أخاهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠].

فصل

ومنها: استكانةُ المحبِّ لمحبوبه، وخضوعُه، وذلُّه له، والحبُّ مبنيٌّ علىٰ الذُّلِّ، ولا يأنف العزيزُ الذي لا يَذِلُّ لشيءٍ من ذلِّه لمحبوبه، ولا يعُدُّه نقصًا ولا عيبًا، بل كثيرٌ منهم يَعُدُّ ذُلَّه عِزًّا، كما قيل:

يَلـذُّ لـه ذلُّ الهـوى وخضوعـه ... ولولا الهوى ما لذَّ للعاقلِ الذُّلُّ

ومتىٰ استحكم الذُّل والحب صار عبوديةً، فيصيرُ قلبُ المحب معبدًا لمحبوبه، وهذه المرتبة لا تليقُ أن تتعلَّق بمخلوقٍ، ولا تصلح إلا لله وحده.

فصل

ومنها: امتدادُ النفَس، وتردُّد الأنفاس، وتصاعدُها، وهذا نوعان:

أحدهما: ما يُقارنه حزنٌ ولهفٌ، والثاني: ما يكون سببه طربًا ولذَّةً.

فصل

ومنها: هجرُه كل سبب يُقصيه من محبوبه، ويبغضه المحبوب، وارتياحه لكل سبب يدنيه منه، ويستحمدهُ عنده إذا بلغه عنه. وفي هذا الباب عجائب للمحبين، فكثيرٌ منهم هجر طعامًا، أو لباسًا، أو أرضًا، أو صناعةً، أو حالةً من الحالات كان محبوبه يمقُتها، فلم يعد إليها أبدًا، ولم تطاوعه نفسه بفعلها ألبتة، وكثيرٌ منهم حمله الحب علىٰ اكتساب المعالي، والفضائل، وغيرها مما يعلم أن

المحبوب يُعظِّمه، ويحبُّه، وهذا نوعان أيضًا:

أحدهما: أن يكون المحبوب مُؤثرًا لذلك محبًّا له، فالمحب يبذُل جهده فيه، لينال منه أعلاه، إن أمكنه، فإن كان المحبوب مشغوفًا بجمع المال، أثَّر ذلك في مُحبّه شغفًا أشدَّ من شغفه، وإن كان مشغوفًا بالعلم، اجتهد المحبُّ في طلبه أشدَّ من اجتهاده، وإن كان مشغوفًا بحرفةٍ، أو صناعةٍ، حرص المحبُّ علىٰ تعلُّمها؛ إن وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، وإن كان مشغوفًا بالنَّوادر، والحكايات الحِسان، والأخبار المستحسنة بالغ المحبُّ في تحفُّظها.

فالمحبَّة النافعة أن تقع علىٰ عشِيق كامل يحملك عشقه علىٰ طلب الكمال، والبليَّةُ كلُّ البليَّة أن تُبتَلىٰ بمحبَّة فارغٍ بطَّال صفرٍ من كل خير، فيحمِلُك حبُّه علىٰ التشبُّه به.

والثاني: أن يكون المحبوب فارغًا من محبة ذلك وإيثاره، ولكنَّ المحبَّة تستخرجُ منْ قلب المُحِبِّ عزمًا، وإرادة، وحرصًا علىٰ ما يعظُم به في عين المحبوب وقلبه، فتجده من أحرص الناس علىٰ ذلك بحسب استعداده، كما قيل:

ويرتــاحُ للمعروف في طلب العُلا لتُحْمَدَ يومًا عند ليلى شمائلُهُ

وهذا قد يكون له سببٌ آخرُ، وهو معاداةُ الناس له، وتنقُّصهم إيَّاه، وازدراؤُهم به، فيحمله الانتخاء لنفسه، والغيرةُ لها، ومحبتُها علىٰ المنافسة في المعالي، واكتساب الحمد، وهذا من شرف النَّفس وعزَّتها كما قيل:

مــن كان يشــكرُ للصَّديــق فإنَّني أحبُو بصالحِ شُكْرِي الأعـداءَ

هم صيَّروا طلــب المعالي ديدني حتَّى وطـئْـتُ بنعلي الـجـوْزاءَ

ولربما انتفع الفتى بعدوِّه   والسمُّ أحيانًا يكونُ شفاءَ

وقال الآخر:

عُداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنَّةٌ   فلا أعدم الرحمنُ عنِّي الأعاديا

همُ بحثوا عن زَلَّتي فاجتنبتُها   وهم نافسُوني فاكتسبتُ المعاليا

فصل

ومنها: الاتفاق الواقع بين المحبّ والمحبوب ولاسيَّما إذا كانت المحبَّةُ محبَّة مشاكَلَةٍ، ومناسبةٍ، فكثيرًا ما يمرضُ المحبُّ بمرض محبوبه. ويتحرَّك بحركته، ولا يشعرُ أحدُهما بالآخر، ويتكلَّم المحبوب بكلام، يتكلم المحب به بعينه اتفاقًا، فانظر إلىٰ قول النبي ﷺ لعُمَرَ بن الخطاب، يوم الحُدَيْبِيَة لما قال له: ألسنا علىٰ الحقِّ، وعدوُّنا علىٰ الباطل؟ قال: «بلىٰ»، قال: فعلام نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟ فقال: «**إنِّي رسولُ الله، وهو ناصري، ولستُ أعْصِيه**» فقال: ألم تكن تحدِّثنا أنَّا نأتي البيت، فنُطوِّفُ به؟ فقال: «**قُلتُ لك إنَّك تأتيه العامَ؟**» قال: لا، قال: «**فإنَّك آتيه، ومُطوِّفٌ به**». ثم جاء أبا بكرٍ الصديق فقال له: يا أبا بكر! ألسنا علىٰ الحقِّ وعدوُّنا علىٰ الباطل؟ قال: بلىٰ! قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا؟ فقال: إنه رسول الله، وهو ناصره، وليس يعصيه، قال: ألم يكن يحدِّثنا أنَّا نأتي البيت، فنطوِّف به؟ قال: بلىٰ، أقال لك: إنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: إنك آتيه ومطوِّفٌ به، فأجاب علىٰ جواب النبي ﷺ حرفًا بحرف من غير تواطُؤٍ، ولا تشاعُرٍ،

بل موافقة محبٍّ لمحبوب. هكذا وقع في صحيح البخاري[1].

والمقصودُ إنَّما هو ذكر الاتفاق بين المحبِّ والمحبوب، وهذا الذي جرىٰ للصِّدِّيق من أحسن الموافقة، ومن هذا موافقة عمر بن الخطاب لربِّه في عدَّة أُمورٍ قالها، فنزل بها الوحيُ كما قالها.

وتقوىٰ هذه الموافقة حتىٰ يعلم المُحبُّ بكثير من أحوال محبوبه، وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلُّق الهمَّة به، وتوجُّه القلب إليه، واتِّحاد مراده بمراده، وربما اقتضىٰ ذلك اتِّفاقهما في المرض، والصِّحة، والفرح، والحزن، والخُلُق، فإنْ كان مع ذلك بينهما تشابهٌ في الخلق الظاهر؛ فهو الغاية في الاتفاق، ولنقتصر من العلامات علىٰ هذا القدر، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٩٤، ٢٧٣١).



الباب الحادي والعشرون
في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التَّشريك بينه وبين غيره فيه

ص: ٤٠٣

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها، فإن قِوَىٰ الحب متىٰ انصرفت إلىٰ جهة، لم يبق فيها متسع لغيرها، ومن أمثال الناس: «ليس في القلب حُبَّان، ولا في السماءِ ربَّان».

متىٰ تقسَّمت قوة الحب بين عدة محالَّ ضعُفت لا محالة، وتأمَّل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ - ٣] كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره، ونهيه محبةً له، وخشيةً، ورجاءً، فإن التقوىٰ لا تتمُّ إلا بذلك، وباتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوىٰ ذلك واتباع المنزل خاصةً، وبالتوكل عليه، وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده، وثقته به، وسكونه إليه دون غيره.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] فأنت تجد تحت هذا اللفظ: أن القلب ليس له إلَّا وجهةٌ واحدةٌ، إذا مال بها إلىٰ جهة؛ لم يملْ بها إلىٰ غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله، ويتَّبع أمره، ويتوكَّل عليه بأحدهما، والآخرُ لغيره، بل ليس له إلا قلبٌ واحدٌ، فإن لم يفرد بالتوكل، والمحبة، والتقوىٰ ربَّه، وإلَّا انصرف ذلك إلىٰ غيره. ثم استطرد من ذلك إلىٰ أنه

سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أُمه، واستطرد منه إلىٰ أنه لم يجعل دعيَّه ابنه؛ فانظر ما أحسن هذا التأصيل، وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقولُ والألباب، وله نظائر في القرآن عديدةٌ.

والمقصود: أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره علىٰ من يزعم أنه يعشق أكثر من واحدٍ، وقال في ذلك شعرًا.

وقد اختلف الناسُ في هذه المسألة، فقالت طائفة: ليس للقلب إلَّا وجهةٌ واحدةٌ، إذا توجَّه إليها؛ لم يمكنه التوجُّه إلىٰ غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معًا؛ فلا يكون فيه حُبَّان، وكان الشَّيخُ إبراهيم الرَّقيُّ ﵀ يميل إلىٰ هذا.

وقالت طائفةٌ: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجَّه إلىٰ أحدهما، ولا يشغله عن توجُّهه إلىٰ الآخر.

قالوا: **والقلب حاملٌ، فما حمَّلته تحمَّل، فإذا حمَّلته الأثقال؛ حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلبُ الواسعُ يجتمع فيه التوجُّه إلى الله سبحانه، وإلى أمره، وإلى مصالح عباده، ولا يشغله واحدٌ من ذلك عن الآخر، فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجهٌ في الصلاة إلى ربه، وإلى مراعاة أحوال من يُصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبي، فيخفف الصلاة خشية أن يشُقَّ على أُمه**[1]، أفلا ترىٰ قلبه الواسع الكريم، كيف اتَّسع للأمرين؟ ولا يُظَن: أن هذا من خصائص النُّبوة، فهذا عمر بن الخطاب كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتَّسع قلبه للصلاة والجهاد في آنٍ واحدٍ، وهذا بحسب سعة القلب، وضيقه، وقوته، وضعفه، قالوا: وكمال العبودية أن يتَّسع قلب العبد لشهود معبوده. ومراعاة آداب

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩، ٧١٠)، ومسلم (٤٧٠).

عبوديته فلا يشغله أحدُ الأمرين عن الآخر. قالوا: وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملًا للسُّلطان مثلًا بين يديه، وهو ناظر إليه يشاهده؛ فإنَّ قلبه يتسع لمراعاة عمله، وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه، ورؤيته له، بل هذا شأْن كلِّ محبٍّ يعمل لمحبوبه عملًا بين يديه، أو في غيبته.

قالوا: وهذا رسول الله ﷺ بكىٰ يوم موت ابنه إبراهيم[1]، فكان بكاؤه رحمة له، فاتسع قلبه لرحمة الولد، وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، لكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك، فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله سبحانه قضىٰ بقضاء، فأحببتُ أن أرضىٰ بقضائه.

ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ تفاوتًا لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ.

ولا يُنكر هذا، فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغنّي إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغِلَظِ أكبادهم، وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلىٰ هذا القول، وهو كما ترىٰ قوَّته، وحجَّته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحدًا، ويستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما، كلُّ ذات منهما مستغنيةٌ عن الأُخرىٰ من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربَّانِ متكافئان مستقلَّان، فليس الذي يُحَبُّ لذاته إلا الإله الحق، الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ بذاته إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

وأما ما يُحَبُّ لأجله سبحانه فيتعدَّد، ولا تكون محبة العبد له شاغلةً له عن محبة ربِّه، ولا يشركه معه في الحب، فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته، وأحبهن إليه عائشة وكان يحب أباها، ويحبُّ عمر وكان يحب أصحابه، وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبُّه كلُّه لله، وقوىٰ حبه جميعها منصرفةٌ إليه سبحانه.

فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه.

فالمحبَّة له وفيه من تمام محبته وموجباتها، لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحبُّ، ومحبة ما يعين علىٰ حبه، ويوصل إلىٰ رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به علىٰ مرضاة ربه، ويتوصل به إلىٰ حبه وقربه؟! وأما المحبة مع الله؛ فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأصلُ الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالَوا عليها، وعادَوا عليها، وتألهوها، وقالوا: هذه آلهةٌ صغار تقربنا إلىٰ الإله الأعظم. ففرقٌ بين محبة الله أصلًا، والمحبة له تبعًا، والمحبة معه شركًا. وعليك بتحقيق هذا الموضع، فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

فليتدبَّر اللبيب هذا الباب، فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

الباب الثاني والعشرون
فِي غَيْرَةِ المُحبِّين على أحبابهم

ص: ٤١١

لمَّا كان هذا الباب متصلًا بباب إفراد المحبوب بالمحبة، ومن موجباته، فإن الغيرة بحسب قوة المحبة، وقوَّتها بحسب إفراد المحبوب؛ حسُن ذكره بعده.

وأصل الغيرة: الحميَّةُ، والأنفةُ، والغيرة نوعان: غيرةٌ للمحبوب، وغيرة عليه، فالغيرة له فهي الحمية له، والغضب له إذا استهين بحقه، وانتُقصت حرمته، وناله مكروه من عدوه، فيغضب له المحب ويحمىٰ وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلىٰ التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقًّا، وهي غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به، واستحل محارمه، وعصىٰ أمره.

وهذه الغيرة هي التي تحمل علىٰ بذل نفس المحب، وماله، وعرضه لمحبوبه حتىٰ يزول ما يكرهه، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفةٌ يكرهها محبوبه، ويمقته عليها، أو يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغارُ له بعد ذلك أن يكون في غيره صفةٌ يكرهها ويبغضها.

فالدينُ كلُّه في هذه الغيرة، بل هي الدين، وما جاهد مؤمنٌ نفسه، وعدوَّه، ولا أمر بمعروف، ولا نهىٰ عن منكر إلَّا بهذه الغيرة، ومتىٰ خلت من القلب؛ خلا من الدين، فالمؤمن يغارُ لربه من نفسه، ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب. والغيرة تصفي القلب، وتـخرج خبثه، كما يخرج الكير خبث الحديد.

الغيرة على المحبوب نوعان

فصل

وأمَّا الغيرة علىٰ المحبوب فهي غيرة أنفة المحب، وحميتُه أن يشاركه في محبوبه سواه، وهذه أيضًا نوعان: غيرةُ المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرةُ المحبوب علىٰ محبه أن يحبَّ معه غيره.

والغيرةُ من صفات الرب ﷻ، والأصل فيها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن غيرته تعالىٰ لعبده وعليه: حميتُه مما يضره في آخرته، كما في الترمذي[١] وغيره مرفوعًا: «**إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب**».

وفي الصحيحين[٢]: أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: «**والله يا أُمَّة مُحمَّدٍ! ما أحدٌ أغيرَ من الله أن يزني عبدهُ، أو تزْنِي أمَتُهُ**».

وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سرٌّ بديع، قد نبهنا عليه في باب: غضِّ البصر، وأنه يورث نورًا في القلب.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الأمر به، وبين ذكر آية النور، فجمع سبحانه بين نور القلب بغض البصر، وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلُّق أحدهما بالآخر، فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس، وذكر أحدهما مع الآخر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٧)، وصححه ابن حبان (٢٤٧٤).

(٢) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

وفي الصحيحين(١) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس شيءٌ أغيرَ من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه، ولا أحد أحبَّ إليه العُذْرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرُّسُل**».

وفي الصحيح(٢)من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يغارُ، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرَّم عليه**».

فصل

الغيرة المحمودة والمذمومة

وغيرةُ العبد علىٰ محبوبه نوعان: غيرةٌ ممدوحةٌ، يحبُّها الله، وغيرةٌ مذمومة، يكرهها الله، فالَّتي يحبُّها الله: أن يغار عند قيام الرِّيبة، والَّتي يكرهها: أن يغار من غير ريبةٍ، بل من مجرَّد سوء الظن، وهذه الغيرة تُفْسدُ المحبة، وتوقع العداوة بين المحبِّ ومحبوبه.

وفي الصحيح(٣) عنه ﷺ: «**إن من الغيرة ما يحبُّ الله، ومنها ما يكرهُ اللهُ، فالغيرة التي يُحبُّها الله: الغيرة في الريبة، والغيرة التي يكرهها الله: الغيرة في غير ريبة**».

وفي الصحيح(٤) عنه ﷺ قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟! لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ منِّي**».

---

(١) البخاري (٤٦٣٤، ٤٦٣٧، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٣) لم يخرجه البخاري ولا مسلم، وأخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/ ٧٨)، وابن ماجه (١٩٩٦).

(٤) سبق تخريجه (ص١٤٧).

وفي الصحيح(١) من حديث حميد، عن أنس قال: أهدىٰ بعضُ نساء النبي ﷺ له قصعة فيها ثَرِيدٌ، وهو في بيت بعض نسائه، فضربت يد الخادم، فانكسرت القصعة، فجعل النبي ﷺ يأخذ الثَّريد ويردُّه في القصعة، ويقول: «**كلوا، غارت أُمُّكم**»، ثم انتظر حتىٰ جاءت قصعةٌ صحيحة، فأعطاها التي كُسرتْ قصعتُها.

وقالت عائشة: ما غِرتُ علىٰ امرأةٍ قطُّ ما غرتُ علىٰ خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إيَّاها، ولقد ذكرها يومًا، فقلت: ما تصنع بعجوز حمراء الشِّدْقَيْن، وقد أبدلك الله خيرًا منها؟ فقال: «**والله ما أبدَلني الله خيرًا منها!**»(٢).

غيرة الله تعالى على قلب عبده

فصل

والله سبحانه يغار علىٰ قلب عبده أن يكون مُعطلًا من حبه وخوفه، ورجائه، وأن يكون فيه غيره، فإنه سبحانه خلقه لنفسه، واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهيِّ: «**ابنَ آدم خلقتُك لنفسي، وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتُك له**»، وفي أثر آخر: «**خلقتُك لنفسي فلا تلعبْ، وتكفَّلتُ لك برزقك فلا تتعبْ، يا ابن آدم اطلبني تجدْني، فإنْ وجدتَّني؛ وجدت كل شيء، وإن فُتُّك؛ فاتك كل شيء، وأنا خيرٌ لك من كل شيء**».

ويغارُ علىٰ لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار علىٰ جوارحه أن تتعطَّل من طاعته، وتشتغل بمعصيته، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ علىٰ قلبه، ولسانه، وجوارحه، وهو لا يغارُ عليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨١، ٥٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢١، ٣٨٢٤)، ومسلم (٢٤٣٧).

وإذا أراد الله بعبده خيرًا، سلَّط على قلبه - إذا أعرض عنه، واشتغل بحبِّ غيره - أنواع العذاب، حتى يرجع قلبُه إليه، وإذا اشتغلتْ جوارحُه بغير طاعته؛ ابتلاها بأنواع البلاء.

وهذا من غيرته سبحانه علىٰ عبده، وكما أنَّه سبحانه يغار علىٰ عبده المؤمن، فهو يغارُ له، ولحُرمته، فلا يُمكِّن المفسد أن يتوصَّل إلىٰ حُرمته؛ غيرةً منه لعبده، فإنَّه ﷻ يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحريمهم، وأموالهم، يتولَّىٰ سبحانه الدفع عن ذلك كلِّه غيرةً منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم، ومن غيرهم. والله تعالىٰ يغار علىٰ إمائه وعبيده من المفسدين شرعًا وقدرًا، ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش، وشرع عليها أعظم القربات، وأشنع القتلات؛ لشدَّة غيرته علىٰ إمائه وعبيده.

فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعًا؛ أجراها سبحانه قدرًا.

غيرة الله تعالى على توحيده

فصل

ومن غيْرَته سبحانه: غيرتُه علىٰ توحيده، ودينه، وكلامه أن يحظىٰ به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه؛ غيرةً عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، ولذلك ثبَّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله، واللَّحاق به؛ غيرةً عليه، كما قال: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٧] فغار سبحانه علىٰ نبيه

وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون، فيسعوا بينهم بالفتنة، فثبَّطهم، وأقعدهم عنهم. وسمع الشِّبليُّ قارئًا يقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فقال: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجابُ الغيرة، ولا أحدٌ أغير من الله، يعني: أنَّه سبحانه لم يجعل الكفَّار أهلًا لمعرفته.

وهاهنا نوع من غيرة الربِّ تعالى لطيفٌ، لا تهتدي إليه العقول، وهو: أنَّ العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصَّفاء والأُنس، والوجود، فيساكنُه، ويطمئنُّ إليه، وتلتذُّ به نفسه، ويشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحقُّ، فيخليه منه، ويرُدُّه حينئذٍ إليه بالفقر، والذِّلَّة، والمسكنة، ويُشهده غاية فقره، وإعدامه، وأنَّه ليس معه من نفسه شيء ألبَتَّة، فتعود عزَّةُ ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلَّةً، ومسكنةً، وفقرًا، وفاقةً، وذرَّةٌ من هذا أحبُّ إليه سبحانه، وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء، والأنس المجرّد عن شهود اليقين، وعن شهود الفقر، والذلّة، والمسكنة. وهذا بابٌ لا يتسع له قلبُ كلِّ واحد.

فصل

الغيرة على دقيق العلم

ومن الغيرة: الغيرة على دقيق العلم، وما لا يُدركه فهم السامع أن يُذكر له، ولهذه الغيرة قال عليُّ بن أبي طالب: حدِّثُوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسولُه؟

وقال ابن مسعود: ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُه عقولُهم إلَّا كان لبعضهم فتنةً. فالعالمُ يغارُ على علمه أن يَبْذُلَه لغير أهله، أو يضعه في غير محلّه.

فالمسألة الدَّقيقة اللطيفة التي تُبْذَلُ لغير أهلها، كالمرأة الحسناء التي تُهْدَىٰ إلىٰ ضريرٍ مُقْعَد، كما قيل:

خَوْدٌ تُزَفّ إلىٰ ضَريرٍ مُقْعَدِ

من أقسام الغيرة المذمومة

فصل

وهاهنا أقسامٌ أُخرُ من الغيرة مذمومة، منها: غيرةٌ يحمل عليها سوءُ الظَّنِّ، فيؤذي بها المُحبُّ محبوبه، ويُغْري قلبه عليه بالغضب، وهذه الغيرةُ يكرهُها الله؛ إذا كانت في غير ريبةٍ.

ومنها: غيرةٌ تحمله علىٰ عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقُّه، كما ذُكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبيهم.

من أعجب الغيرة غيرة المحبُّ من نفسه

فصل

وقد يغار المحبُّ علىٰ محبوبه من نفسه، وهذا من أعجب الغيرة، وله أسباب:

منها: خشيةُ أن يكون مفتاحًا لغيره.

ومنها: أن يحمله فرطُ الغيرة علىٰ أن يُنزِّل نفسه منزلة الأجنبي، فيغار علىٰ المحبوب من نفسه، ولا يُنكرُ هذا، فإن في المحبة عجائب.

ومنها: شدةُ الموافقة للحبيب، والحبيبُ يكره أن تنسب محبته إليه، وأن يذكر ذلك، فهو لموافقته لمحبوبه يغارُ عليه من نفسه، كما يسرُّه هجرُ محبوبه إذا علم أنَّ فيه مراده، قال الشاعر:

سُـرِرتُ بهجـرك لمَّـا علمــ ... ـــتُ أنَّ لقلبك فيـه سُــرورا

ولـولا سـرورُك مـا سـرَّني ... ولا كنـتُ يـومًـا عليه صبُورا

فصل

وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثةُ أنواع: غيرةُ العبد لربِّه أن تُنْتهك محارمُهُ، وتُضيَّع حدودُه، وغيرتُه على قلبه أن يسكن إلى غيره، وأن يأْنس بسواه، وغيرتُه على حُرْمته أن يتطلَّع إليها غيره. فالغيرةُ التي يحبُّها الله ورسولُه دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما من خُدَع الشيطان، وإما بلوى من الله، كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوَّج عليها.



الباب الثالث والعشرون
في عفاف المُحبِّين مع أحبابهم

ص: ٤٤٠

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧] ولما نزلت هذه الآيات على النبي ﷺ قال: «**قد أُنْزِلَتْ عليَّ عشرُ آياتٍ من أقامَهُنَّ دخل الجنة**»[1]. ثم قرأ هذه الآيات.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩ - ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠ - ٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وفي المسند وغيره[2] مرفوعًا: «**ثلاثة حقٌّ علىٰ الله عونُهمْ: المُتزَوِّجُ يُريدُ العفاف، والمُكاتبُ يُريدُ الأداء...**» وذكر الثالث.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٢). وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن ماجه (٢٥١٨).

فصل

وقد ذكر الله سبحانه عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًّا، والشباب مركب الشهوة. وكان عزبًا، ليس عنده ما يعوِّضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع. وكان في صورة المملوك، والعبدُ لا يأنفُ مما يأنفُ منه الحرُّ. وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليست كذلك، وكانت هي المطالبة، فتزول بذلك كُلْفةُ تعرُّض الرَّجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامَّةُ والمراودةُ التي يزولُ معها ظنُّ الامتحان والاختبار؛ ليعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سُلطانها وبيتها، بحيث تعرف بحال وقت الإمكان ومكانه الذي لا تنالُه العيونُ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب؛ لتأمن هجوم الدَّاخل على بغتة، وأتته بالرَّغبة، والرَّهبة، ومع هذا كلِّه فعفَّ لله، ولم يُطعْها، وقدَّم حقَّ الله، وحقَّ سيدها على ذلك كلِّه، وهذا أمر لو ابْتُليَ به سواه؛ لم يُعْلَم كيف كانت تكون حالُه.

فإنْ قيل: فقد همَّ بها.

قيل عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يَهُمَّ بها، بل لولا أن رأىٰ برهان ربِّه لهَمَّ. هذا قولُ بعضهم في تقدير الآية.

والثاني - وهو الصواب -: أن همَّه كان همَّ خطرات، فتركه لله، فأثابه الله عليه، وهمُّها كان همَّ إصرارٍ بذلت معه جُهْدَها، فلم تصلْ إليه، فلم يستوِ الهَمَّان.

قال الإمامُ أحمد: الهمُّ همَّان: همُّ خطراتٍ، وهمُّ إصرارٍ، فهمُّ الخطرات لا يُؤاخذ به، وهمُّ الإصرار يُؤاخذ به.

فصل
العفة عن
المحارم

فصل

وفي الصحيحين[1] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعةٌ يُظلهمُ الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَّق بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا علىٰ ذلك، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال، فقال: إني أخافُ الله ربَّ العالمين، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ، فأخفاها حتَّىٰ لا تعلم شمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

وفي الصحيح[2]: من حديث أبي هريرة وابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بينا ثلاثةٌ يمشون؛ إذ أخذتْهُمُ السَّماءُ، فأووا إلىٰ غارٍ في الجبل، فانحطَّتْ عليهم صخرةٌ من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظرُوا أعمالًا صالحة عملتُمُوها، فادْعوا الله بها، فقال بعضُهُم: اللهم إنك تعلم: أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وامرأةٌ وصبيانٌ، وكنتُ أرْعىٰ عليهم، فإذا رُحتْ عليهم حلبْتُ، فبدأتُ بوالديَّ أسقيهما قبل بنيَّ، وأنه نأىٰ بي الشجر، فلم آت حتىٰ أمسيتُ فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب فجئت فقمت عند رؤوسهما أكره أن أُوقظهما من نومهما، وأن أبدأ بالصبية قبلهما، والصِّبية يتضاغون عند قدمي، فلم أزل كذلك حتىٰ طلع**

---

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) البخاري (٢٢١٥، ٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر. أما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار والطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٤٢ - ١٤٣).

الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرُج عنا فُرجةً نرىٰ منها السماء! ففرج الله لهم فُرجةً.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنةُ عمٍّ فأحببتُها كأشدِّ ما يُحبُّ الرِّجالُ النِّساءَ، فطلبتُ إليها نفسها، فأبتْ حتَّىٰ آتيها بمئة دينار، فسعيتُ حتىٰ جمعتُ مئة دينار، فجئتُها بها، فلما قعدتُ بين رجليها؛ قالت: يا عبد الله! اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتم إلاَّ بحقه، فقُمتُ عنها، وتركتُ المئة دينار، فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فافْرُج لنا من هذه الصخرة! ففرج الله لهم فرجةً.

فقال الآخر: اللهم إني كنت استأْجرتُ أجيرًا بفرق من أرُزٍّ، فلمَّا قضىٰ عمله؛ قال: أعطِني حقِّي، فأعطيتُهُ، فأبىٰ أن يأْخُذَه، فزرعتُه، ونمَّيتُه حتىٰ اشتريتُ له بقرًا ورِعاءَها، فجاءني بعد حين، فقال: يا هذا! اتق الله، ولا تظلمني، وأعطني حقي! فقلت: اذهب إلىٰ تلك البقر ورعائها، فهو لك، فقال: اتَّقِ الله، ولا تهزأْ بي! فقلتُ: لا أستهزئُ بك، فخُذ ذلك، فأخذها، وذهب، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرجْ عَنَّا ما بقي من الصَّخْرة! ففرج الله عنهم، وخرجوا يمشُون».

وقال عبيد الله بن موسىٰ[1]: عن ابن عمر قال: لقد سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرَّةً، أو مرَّتين - حتىٰ عدَّ سبع مرات - ما حدَّثت به، ولكن سمعتُه أكثر من ذلك، قال: «كان ذو الكِفْل من بني إسرائيل قلَّما يتورَّعُ من ذنب عمله، فأتتهُ امرأةٌ، فأعطاها ستِّين دينارًا علىٰ أن يطأَها، فلمَّا قعد منها مقعد الرَّجُل من امرأته أُرْعِدَتْ، وبكت، فقال: ما يُبْكيك، أكرَهْتُك؟ قالتْ: لا، ولكن هذا عملٌ لم أعملْهُ قطُّ! قال: فتفعلين هذا، ولم تفْعَليه قطُّ؟! قالتْ: حملتْني عليه الحاجةُ،

---

(١) أخرج من طريقه الخرائطي (٧٧-٧٨). وأخرجه الترمذي (٢٤٩٨).

فنزل ثمَّ قال: اذْهبي والدَّنانيرُ لك، ثم قال: والله لا يَعصي ذو الكفل أبدًا، فمات من ليْلَتِهِ، فأصبح مكتوبًا علىٰ بابه: غفر الله لذي الكفْلِ».

وفي مسند أحمد(١) من حديث عُقْبَةَ بن عامر الجُهنيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجب ربُّك من الشَّابّ ليستْ لهُ صبْوةٌ»**.

وذكر المبرِّد(٢) عن أبي كامل، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النَّخَعيِّ، قال: كان بالكوفة فتًىٰ جميلُ الوجه، شديدُ التعبُّد والاجتهاد، فنزل في جوار قوم من النَّخع، فنظر إلىٰ جارية منهنَّ جميلةٍ، فهويَها، وهامَ بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به، فأرسل يخطُبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسمَّاةٌ لابن عمٍّ لها، فلما اشتدَّ عليهما ما يقاسيان منْ ألم الهوىٰ؛ أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدَّةُ محبَّتك لي، وقد اشتدَّ بلائي بك، فإنْ شئت زرتُك، وإن شئت سهّلت لك أنْ تأتيني إلىٰ منزلي، فقال للرسول: ولا واحدةً منْ هاتين الخُلَّتين، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥] أخاف نارًا لا يخبو سعيرُها، ولا يَخْمُدُ لهيبُها. فلمَّا أبلغها الرَّسولُ قوله؛ قالت: وأراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحدٌ أحقَّ بهذا من أحدٍ، وإنَّ العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدُّنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبَّد، وهي مع ذلك تذوبُ، وتنْحلُ حُبًّا للفتىٰ، وشوقًا إليه حتىٰ ماتت منْ ذلك، فكان الفتىٰ يأتي قبرها، فيبكي عنده، ويدعو لها، فغلبته عينُه ذات يوم علىٰ قبرها، فرآها في منامه في أحسن منظرٍ، فقال: كيف أنتِ، وما لقيتِ بعدي؟ فقالت:

نعـمَ المحبَّةُ يـا سُـؤْلي محبتُكم ... حـبٌّ يقودُ إلـى خيرٍ وإحسـانِ

---

(١) ٤/ ١٥١. وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه عنه الخرائطي (ص٧٨ - ٧٩).

فقال: علىٰ ذلك إلىٰ ما صرتِ؟ فقالت:

إلـى نعيـمٍ وعَيْـشٍ لا زوال لـه　　في جنَّة الخُلْدِ ملكٌ ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك، فإني لستُ أنساكِ، فقالت: ولا أنا والله أنساك! ولقد سألتُ مولاي ومولاك أن يجمع بيننا، فأَعِنِّي علىٰ ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متىٰ أراك؟ قالت: ستأْتينا عنْ قريبٍ، فترانا، فلم يعش الفتىٰ بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتىٰ مات.

وقال عباس الدُّوري[1]: كان بعضُ أصحابنا يقول: **كان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثَّل بهذين البيتين:**

تفنـى اللَّـذاذةُ ممَّنْ نـالَ صفوتها　　منَ الحـرام ويبقى الـوزر والعارُ

تبقـى عواقـبُ سـوءٍ في مغبَّتهـا　　لا خيرَ في لـذَّةٍ منْ بعدها النَّارُ

وقال الحسين بن مُطير:

ونفسـك أكـرِمْ عـن أمـورٍ كثيرةٍ　　فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها

ولا تقرَبِ المَرْعـى الحرام فإنَّما　　حـلاوتُـه تَفْنَى ويبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد: الفُتُوَّةُ: تركُ ما تهوىٰ لما تخشىٰ.

وقال مَخْرَمةُ بن عثمان[2]: نُبِّئت أنَّ فتًىٰ من العُبَّاد هَوِيَ جاريةً من أهل البصرة، فبعث إليها يخطبها، فامتنعتْ، وقالت: إن أردت غير ذلك؛ فعلتُ، فأرسل إليها: سبحان الله! أدعوكِ إلىٰ ما لا إثم فيه، وتدعينني إلىٰ ما لا يَصْلُح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي، فإن شئت فتقدَّم، وإن شئت فتأَخَّر، فأَنشأَ يقول:

---

(١) أخرج عنه الخرائطي (ص٩٠).

(٢) أخرجه الخرائطي (٩٢ - ٩٣).

وأسألُـها الحـلالَ وَتَـدْعُ قلبـي ... إلـى مـا لا أريـدُ مـنَ الـحَـرَامِ

كداعـي آلِ فِرْعَـونٍ إليـه ... وَهُـمْ يَـدْعُـوْنَـهُ نـحـو الأثـام

فظَـلَّ منعَّمًـا في الْخُلْـد يَسْـعَى ... وظلُّوا في الجحيم وفي السَّقامِ

فلمَّا علمتْ أنه قد امتنع من الفاحشة؛ أرسلتْ إليه: أنا بين يديْك علىٰ الذي تُحِبُّ.

فأرسل إليها: لا حاجةَ لنا فِيمنْ دعوناه إلىٰ الطَّاعة، فدعانا إلىٰ المَعْصِية ثم أنشد:

ولا خيـرَ فِيْمَـن لا يُراقـبُ ربَّـه ... عِـنْـدَ الـهـوى ويـخـافُـه إيمانا

حَجَبَ التُّقى سُبُلَ الهوى فأخو التُّقى ... يخشى إذا وافى الـمَـعَـاد هوانا

وقد رویٰ محمَّدُ بن عبد الله الأنصاري[١]: عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلت المرأةُ خمسها، وحفظتْ فرْجها، وأطاعتْ زوجها؛ دخلت الجنَّة**».

وقال الزُّبير بن بكار[٢]، عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام؛ إذ لقيني رجلٌ من أصحابي، فقال: هل لك في جميلٍ نعودُه؟ فدخلنا عليه وهو يجودُ بنفسه، وما تـخيل لي أن الموت يكرِثُه، فنظر إليَّ، ثم قال: يا ابن سهل! ما تقولُ في رجل لم يشرب الخمر قطُّ، ولم يزنِ، ولم يقتل نفسًا، يشهد أن لا إله الا الله؟ قلت: أظنُّه قد نجا، وأرجو له الجنَّة؛ فمن هذا الرجل؟ قال: أنا! قلت: والله ما أحْسِبُك سلمت وأنت تُشبِّبُ منذ عشرين سنة في بُثينة، فقال: لا نالتني شفاعةُ محمد ﷺ يوم القيامة - فإني في أوّل يوم منْ أيام الآخرة، وآخرِ يومٍ من أيام الدُّنيا - إن كنت وضعتُ يدي عليها لريبةٍ. فما برحنا حتَّىٰ مات.

---

(١) أخرجه الخرائطي (ص٩٧).

(٢) أخرجه الخرائطي (ص١٠١).

ولمَّا قدِم عُرْوةُ بن الزُّبير[١] علىٰ الوليد بن عبد الملك؛ خرجتْ برجله الأكلةُ، فاجتمع رأي الأطباء علىٰ نشرها، وأنَّه إن لم يفعل سرت إلىٰ جسمه، فهلك، فلمَّا عزم علىٰ ذلك؛ قالوا له: نسقيك مُرْقِدًا؟ قال: ولِـمَ؟ قالوا: لئلا تُـحِسَّ بما نصْنع، قال: لا! بل شأنكم، فنشروا ساقه بالمنشار، فما أزال عضوًا عن عضوٍ حتىٰ فرغوا منها، ثم حسموها، فلما نظر إليها في أيديهم؛ تناولها، وقال: الحمد لله! أما والذي حملني عليك إنَّه ليعلم أني ما مشيتُ بك إلىٰ حرام قطُّ.

ولما احتُضر ذو الرُّمَّة؛ قال: لقد هِمْتُ بميٍّ عشرين سنة في غير ريبةٍ ولا فساد.

وذكر أبو الفرج[٢] وغيره: أنّ امرأةً جميلةً كانت بمكَّة، وكان لها زوجٌ، فنظرت يومًا إلىٰ وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترىٰ أحدًا يرىٰ هذا الوجه ولا يَفْتَتِنُ به؟! قال: نعم! قالت: منْ؟ قال: عُبيد بن عُمير، قالت: فائذنْ لي فيه، فلأفتننَّه، قال: قد أذِنتُ لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحيةٍ من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فَلْقَةِ القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله استتري! فقالت: إني قد فُتِنْتُ بكَ. قال: إنِّي سائِلُكِ عن شيءٍ، فإنْ أنتِ صدقتِني نظرتُ في أمرك. قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتُك. قال: أخبريني: لو أنَّ ملك الموت أتاك ليقبض روحك؛ أكان يسُرُّك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا! قال: صدقتِ. قال: فلو دخلت قبرك، وأُجلست للمساءلة؛ أكان يسرُّك أنِّي قضيتُها لك؟ قالت: اللهمَّ لا! قال: صدقْتِ، قال: فلو أنَّ الناس أُعطُوا كتبهم، ولا تدرين: أتأخذين كتابك بيمينك أم شمالك؛ أكان يسرُّك أنِّي قضيتُها لك؟ قالت: اللهُمَّ لا! قال: صدقت. قال: فلو أردت المشيَ علىٰ الصِّراط، ولا تدرين: هل تنجين، أو لا تنجين؛ أكان يسرُّك أني

---

(١) المصدر السابق (ص٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) أي ابن الجوزي في ذم الهوىٰ (٢٦٥ - ٢٦٦).

قضيتُها لك؟ قالت: اللهمَّ لا! قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان، وجيء بك فلا تدرين: أيخِفُّ ميزانُك، أم يثقُلُ؛ أكان يسرُّك أني قضيتُها لك؟ قالت: اللهمَّ لا! قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدي الله لِلْمُساءلة؛ أكان يسرُّك أنِّي قضيتُها لك؟ قالت: اللهمَّ لا! قال: صدقت، قال: اتَّقي الله! فقد أنعم الله عليك، وأحسن إليك. قال: فرجعتْ إلىٰ زوجها، فقال: ما صنعتِ؟ فقالت: أنْتَ بطَّال، ونحن بطَّالون. فأقبلتْ علىٰ الصَّلاة، والصَّوم، والعبادة، فكان زوجُها يقول: ما لي ولعُبيد بن عُمير؟ أفسد عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلةٍ عروسًا، فصيَّرها راهبةً.

وهذه الطَّائفةُ لِعفَّتهم أسبابٌ، أقواها: إجلال الجبَّار، ثُمَّ الرَّغبةُ في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلىٰ ما حرَّم الله عليه؛ منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، كما قال ﷺ: «**منْ لبس الحرير في الدُّنيا؛ لم يلبسه في الآخرة**»[1]، و«**من شرب الخمر في الدُّنيا؛ لم يشربها في الآخرة**»[2].

فلا يجمع الله للعبد لذَّة شرب الخمر، ولبس الحرير، والتمتُّع بما حرَّم الله عليه من النساء، والصبيان، ولذَّة التمتُّع بذلك في الآخرة، فليختر العبد لنفسه إحدىٰ اللَّذتين، وليكتف عن إحداهما بالأخرىٰ؛ فمن أبىٰ فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا، واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره في الدنيا؛ إذا لقي الله، ودون ذلك مرتبةٌ أن يتركها خوف النار فقط، فإن تركها رغبةً ومحبةً أفضلُ من تركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنىٰ من ذلك أن يحمله عليها خوف العار، والشنار. ومنهم من يحمله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

علىٰ العفة الإبقاء علىٰ محبته خشية ذهابها بالوصال. ومنهم من يحمله عليها عفةُ محبوبه، ونزاهتُه. ومنهم من يحمله عليها الحياءُ منه، والاحتشام له، وعظمته في صدره. ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر، وحسن الأحدوثة. ومنهم من يحمله عليها الإبقاء علىٰ جاهه، ومروءته، وقدره عند محبوبه وعند الناس. ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه، وعلوُّ همته. ومنهم من يحمله عليها لذَّةُ الظَّفر بالعفَّة، فإنَّ للعفة لذَّةً أعظمُ منْ لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدَّمها ألمُ حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر؛ فبالضد من ذلك. ومنهم من يحمله عليها علمه بما تُعْقِبُه اللذَّةُ المحرمةُ من المضارِّ، والمفاسد، وجمع الفجور بخلال الشرِّ كلها، كما ستقفُ عليه في الباب الذي يلي هذا؛ إن شاء الله.

فصل

ولم يزل الناسُ يفتخرون بالعفَّة قديمًا وحديثًا، قال إبراهيم بن هرْمة:

وَلَرُبَّ لذَّةِ ليلةٍ قدْ نِلْتُها ... وحرامُها بحلالها مدْفُوعُ

وقيل لبُثيْنة: هذا جميل لما به، فهل عندك من شيء تُنفِّسين به وجده؟ فقالت: ما عندي أكثرُ من البكاء إلىٰ أن ألقاه في الدَّار الأخرىٰ، أو زيارته وهو ميت تحت الثَّرىٰ.

وقيل لعُتبة بعد موت عاشقها: ما كان يضُرُّك لو أمتعتِهِ بوجهك؟ قالت: منعني من ذلك خوف العار، وشماتةُ الجار، ومخافةُ الجبَّار، وإنَّ بقلبي أضعاف ما بقلبه، غير أنِّي أجد ستره أبقىٰ للمودَّة، وأحمد للعاقبة، وأطوع للربِّ، وأخفَّ للذَّنب.

الباب الرابع والعشرون
في ارتكاب سبيل الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام

ص: ٤٨٥

حقيقٌ بكل عاقل ألَّا يسلك سبيلًا حتَّىٰ يعلم سلامتها، وآفاتها، وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة، أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويفضيان بصاحبهما إلىٰ أقبح الغايات، وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل سبحانه سبيل الزنىٰ شر سبيل، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فإذا كانت هذه سبيل الزنا فكيف بسبيل اللواط التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها، وأضعاف أضعافها من الزنىٰ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله.

فأما سبيل الزنىٰ؛ فأسوأُ سبيل، ومقيلُ أهلها في الجحيم شرُّ مقيل، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تنُّور من نار، يأتيهم لهيبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب؛ ضجُّوا، وارتفعوا، ثم يعودون إلىٰ موضعهم، فهم هكذا إلىٰ يوم القيامة، كما رآهم النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحيٌ لا شكَّ فيه.

فروىٰ البخاريُّ في صحيحه[1] من حديث سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ ممّا يُكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأىٰ أحد منكم رُؤيا؟**» فيُقصُّ عليه ما شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال لنا ذات غداةٍ: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتغياني**

---

(١) رقم (٨٤٥). وأخرجه أيضًا مسلم (٢٢٧٥).

وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا علىٰ رجل مُضْطجع، وإذا آخر قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغُ رأسه، فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتىٰ يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل المرَّة الأولىٰ، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق، فانطلقنا فأتينا علىٰ رجل مُستلقٍ لقفاه، وإذا آخرُ قائم عليه بكلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيُشرشرُ شدقه إلىٰ قفاه، ومنخره إلىٰ قفاه، وعينه إلىٰ قفاه، ثمَّ يتحول إلىٰ الجانب الآخر، فيفعلُ به مثل ما فعل في الجانب الأوَّل، قال: فما يفرغُ من ذلك الجانب حتىٰ يصحَّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولىٰ. قال: قلتُ: سبحان الله! ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق، فانطلقنا فأتينا علىٰ مثل التَّنُّور، فإذا فيه لغطٌ وأصوات، قال: فاطَّلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ، ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هم يأتيهم لهيب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا قال: قلت: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. قال: فانطلقنا، فأتينا علىٰ نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا علىٰ شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما سبح، ثم يأتي ذلك الذي جمع عنده الحجارة، فيفغر فاه، فيُلقِمه حجرًا، فينطلق، فيسبح، ثمَّ يرجع إليه، كلما رجع إليه؛ فغر فاه، فألقمه حجرًا، قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فأتينا علىٰ رجلٍ كريهِ المرآة كأكرهِ ما أنت راءٍ رجلًا، وإذا عنده نارٌ يحُشُّها، ويسعىٰ حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فأتينا علىٰ روضة مُعتمة فيها من كل نور الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجلٌ طويل، لا أكاد أرىٰ رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قطُّ، قال: قلت: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق،

انطلق. فانطلقنا فأتينا علىٰ دوحةٍ لم أر دوحةً قطُّ أعظم منها، ولا أحسن، قال: قالا لي: ارْقَ فيها، فارتقينا فيها إلىٰ مدينة مبنية بلَبِنِ ذهبٍ، ولَبِنِ فضة، قال: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلناها، فتلقانا رجال شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ منهم كأقبح ما أنت راءٍ، قال: فقالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر. قال: وإذا نهر معترضٌ يجري كأنَّ ماءه المحضُ في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قال: قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك. قال: فسما بصري صُعدًا، فإذا قصرٌ مثل الرَّبابة البيضاء. قال: قالا لي: هذاك منزلك. قال: قلت لهما: بارك الله فيكما! فذراني، فأدخله. قالا: أما الآن؛ فلا، وأنت داخله! قال: قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثلَغُ رأسُه بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن، فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة. وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشرشَر شِدقُه إلىٰ قفاه، ومنخره إلىٰ قفاه، وعينه إلىٰ قفاه؛ فإنه الرجلُ يغدو من بيته، فيكذب الكذبة، تبلغ الآفاق. وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور؛ فإنهم الزُّناةُ والزَّواني. وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر، ويُلقَمُ الحجر؛ فإنه آكل الربا. وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحُشُّها، ويسعىٰ حولَها فإنه مالك خازن جهنم. وأما الرجل الطويل الذي في الروضة؛ فإنه إبراهيم. وأما الولدان الذين حوله؛ فكل مولود مات علىٰ الفطرة. فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين. وأما القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسنٌ، وشطر منهم قبيح؛ فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم».

وفي الصحيحين[1] من حديث عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**» قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قال: قلت: ثُم أيٌّ؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**» فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين[2] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملك كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ**».

وفي النسائي وغيره[3] من حديث بُريدة عن النبي ﷺ قال: «**حرمة نساء المجاهدين علىٰ القاعدين كأمَّهاتِهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله إلاَّ نصب الله له يوم القيامة، فيقالُ: يا فُلانُ! هذا فُلانٌ، فخُذ من حسناته ما شئت**» ثمَّ التفت النبي ﷺ إلىٰ أصحابه فقال: «**ما ترون يدعُ له من حسناته شيئًا؟**» وفي لفظٍ: «**وإذا خلفه في أهله فخانهُ؛ قيل له يوم القيامة: هذا خانك في أهلك، فخُذ من حسناته ما شئت. فما ظنُّكم؟!**».

ويكفي في قُبح الزنَىٰ أن الله سبحانه - مع كمال رحمته - شرع فيه أفحش القتلات، وأصعبها، وأفضحها، وأمر أن يشهد عبادُه المؤمنون تعذيب فاعله.

ومن قبحه: أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له، كما

---

(١) البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦).
(٢) البخاري (٢٣٦٩) ومسلم (١٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٧)، وأبو داود (٢٤٩٦)، والنسائي (٦/ ٥٠).

روىٰ البخاريُّ في صحيحه[1] عن عمرو بن ميمون الأوديِّ قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنىٰ بقردةٍ، فاجتمع عليهما القرودُ، فرجموهما حتىٰ ماتا، وكنتُ فيمنْ رجمهما.

من مفاسد الزنى

فصل

والزنىٰ يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاءٌ بعهدٍ، ولا صدقٌ في حديث، ولا محافظةٌ علىٰ صديق، ولا غيرةٌ تامة علىٰ أهله. فالغدر، والكذب، والخيانة، وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب من شعبه، وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجلٌ إلىٰ ملك من الملوك بذلك؛ لقابله أسوأ مقابلة. ومنها: سواد الوجه، وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها: ظلمة القلب، وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمسَ نور الوجه، وغشيان الظلمة له. ومنها: الفقر اللازم.

ومنها: أنه يُذهِب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه، ومن أعين عباده. ومنها: أنه يَسلُبه أحسن الأسماء، وهو اسم العفة، والبر، والعدالة، ويعطيه أضدادها، كاسم الفاجر، والفاسق، والزاني، والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن، كما في الصحيح[2] عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**». فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان.

---

(١) رقم (٣٨٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث، فخطَّ دائرة في الأرض، وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرىٰ خارجة عنها، وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنىٰ العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه.

ومنها: أنه يعرض نفسه لسكنىٰ التنُّور الذي رأىٰ النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبث الذي وصف الله به الزناة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

فقد حرم الله الجنة علىٰ كل خبيث، بل جعلها مأوىٰ الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب. قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ومنها: الوحشة التي يضعها الله في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف علىٰ وجهه حلاوة، وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله، وأصحابه، وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم، وعيونهم، بخلاف العفيف، فإنه يرزق المهابة، والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ علىٰ حرمته، ولا علىٰ ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه، يشمها كل ذي قلب سليم، تفوح من فيه وجسده.

ومنها: ضيقة الصدر وحرجه؛ فإن الزُّناة يُقابلون بضد مقصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطِيبَه بما حرمه الله عليه؛ عاقبه الله بنقيض قصده. فإنَّ ما عند الله

لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلىٰ خيرٍ قط.

ومنها: أنه يُعرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنَّات عدن، وقد تقدم أن الله سبحانه إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه للبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا، فإن توسع في حلاله؛ ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرام؛ فاته نظيره يوم القيامة.

ومنها: أن الزنىٰ يُجرِّئه علىٰ قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرًا إلىٰ سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك، وهو يدري، أو لا يدري.

فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها. ويتولد عنها أنواعٌ أُخرُ من المعاصي بعدها، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلها، وجند بعدها، وهي أجلب لشرِّ الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد، فوقع في حبائلها وأشراكها؛ عزَّ علىٰ الناصحين استنقاذُه، وأعيا الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يُفدىٰ، وقتيلها لا يُودَىٰ، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبد فيودع نعم الله، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فصل

من مفاسد اللواط وعقوبته

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر، وأما سبيل الأمة اللُّوطية؛ فتلك سبيل الهالكين، المفضية بسالكها إلىٰ منازل المعذَّبين؛ الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه علىٰ أمةٍ من الأمم، لا من تأخَّر عنهم ولا من تقدَّم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرةً للمُعتبرين، وموعظةً للمتَّقين.

وكتب خالد بن الوليد إلىٰ أبي بكر الصديق: أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلًا يُنكح، كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر لذلك ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم عليُّ بن أبي طالب فاستشارهم، فكان عليٌّ أشدهم قولًا فيه، فقال: إن هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة، فصنع الله بها ما قد علمتم، أرىٰ أن تحرقوه بالنار، فأحرقوه بالنار.

وقال عمر بن الخطاب وجماعةٌ من الصحابة والتابعين: يُرجم بالحجارة حتىٰ يموت، أُحصن أو لم يحصن.

وسئل ابن عباس عن اللُّوطي ما حدُّه؟ قال: يُنظَر أعلىٰ بناء في المدينة، فيُرمىٰ منه منكَّسًا، ثم يتبع بالحجارة. ورجم عليٌّ لوطيًا، وأفتىٰ بتحريقه. فكأنه رأىٰ جواز هذا وهذا.

والصحابة اتفقوا علىٰ قتل اللوطي، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فظنَّ بعضُ الناس: أنهم متنازعون في قتله، ولا نزاع بينهم فيه إلا في إلحاقه بالزَّاني، أو في قتله مطلقًا.

وعقوبته أغلظ من عقوبة الزاني؛ لإجماع الصحابة علىٰ ذلك، ولغلظ حرمته، وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه لم يعاقب أُمَّةً ما عاقب اللُّوطية.

قال ابن أبي نجيح في تفسيره: عن عمرو بن دينار في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] قال: ما نزا ذكرٌ علىٰ ذكرٍ حتىٰ كان قومُ لوط. وقال محمد بن مخلد: سمعت عباسًا الدُّوريَّ يقول: بلغني أنَّ الأرض تعُجُّ إذا ركب الذكرُ علىٰ الذكر.

وذكر ابن أبي الدُّنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يُشرف علىٰ سدوم فيقول: ويلٌ لك سدومُ يومًا مَّا لك! فجاءت إبراهيم الرُّسل، وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوطٍ، قالوا: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦] قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] فذهب بهم إلىٰ منزله، فدخَّنت امرأتُه، فجاءه ﴿قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أزوِّجكم بهن، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ وجعل لوطٌ الأضياف في بيته، ووقف علىٰ باب البيت، و﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] قال: أي عشيرةٍ تمنعني. قال: ولم يُبعَث نبي بعد لوط إلا في عزٍّ من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوطٌ في سببهم ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فخرج عليهم جبريل فضرب وجوههم بجناحه ضربة طمس أعينهم. قال: والطمسُ: أن تذهب حتىٰ تستوي، واحتمل مدائنهم، حتىٰ سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل. قال: علىٰ أهل بواديهم، وعلىٰ رعائهم وعلىٰ مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان.

وقال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، فرفعها،

حتىٰ سمع أهل السماء نبيح الكلاب، وأصوات الدجاج والديكة، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أُتبعوا بالحجارة.

وقال حذيفة بن اليمان[1]: لما أُرسلت الرسل إلىٰ قوم لوط، لتهلكهم؛ قيل لهم: لا تهلكوهم حتىٰ يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرات، وطريقهم علىٰ إبراهيم، قال: فأتوا إبراهيم، فبشروه بما بشروه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون؛ أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتىٰ انتهىٰ إلىٰ عشرةٍ، أو خمسةٍ، فأتوا لوطًا وهو في أرض يعمل فيها، فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسىٰ إلىٰ أهله، وأتوا معه، فالتفت إليهم فقال: أما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد شرٌّ منهم، قال: فانتهىٰ بهم إلىٰ أهله، فانطلقت العجوز السُّوء امرأتُه، فأتت قومه، فقالت: لقد تضيَّف لوطًا الليلة قوم ما رأيت قطُّ أحسن وجوهًا، ولا أطيب ريحًا منهم، فأقبلوا يُهرعون إليه، حتىٰ دفعوا الباب، حتىٰ كادوا أن يقلبوه عليهم، فقال ملك بجناحه، فصفقه دونهم، ثم أغلق الباب، ثم علوا الأجاجير، فجعل يخاطبهم، فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] حتىٰ بلغ ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨٠ - ٨١] فطمس جبريل أعينهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتىٰ عمي. قال: فباتوا بشرٍّ ليلة عُميًا ينتظرون العذاب. قال: وسار بأهله، واستأذن جبريل ﷺ في هلكتهم، فأُذن له، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها، فألوىٰ بها حتىٰ سمع أهل السماء الدنيا ضُغَاءَ كلابهم، وأوقد تحتها نارًا ثم قلبها بهم. قال: فسمعت امرأتُه الوجْبةَ، وهي معه، فالتفتت، فأصابها العذاب.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٩٥، ٥١٨).

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله من وقع علىٰ بهيمةٍ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوطٍ**» رواه الإمام أحمد[١].

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله من تولىٰ غير مواليه، ولعن الله من غير تُخُوم الأرض، ولعن الله من كمَّه أعمىٰ عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوطٍ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط - ثلاثًا - ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع علىٰ بهيمة**»[٢]. هذا علىٰ شرط البُخاري.

وفي المسند والسنن[٣] من حديث عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**» وفي لفظ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**». وإسناده علىٰ شرط البخاري.

وحرق اللوطية بالنار أربعةٌ من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعليٌّ بن أبي طالب، وعبد الله بن الزُّبير، وهشامُ بن عبد الملك[٤].

وقال حماد بن سلمة: عن قتادة، عن خلاس، عن عبيد الله بن معمر، قال: يقتل اللوطي[٥]. وقال سعيد بن المسيب: عندنا علىٰ اللوطي الرَّجم أُحصن، أو لم يحصن، سنةٌ ماضية[٦]. وهذا يدل علىٰ أن ذلك سنة مضىٰ عليها العمل.

وقال الشعبي: يُقتل أُحصن، أو لم يُحصن[٧]. وقال الزُّهريُّ، وربيعةُ، وابن

---

(١) في المسند (١/ ٣٠٩، ٣١٧).

(٢) أخرجه النسائي (٧/ ٢٣٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١).

(٤) انظر تحريم اللواط للآجري (ص٥٨).

(٥) أخرجه الآجري في تحريم اللواط (ص٦٤).

(٦) أخرجه الآجري (ص٧٠).

(٧) أخرجه الآجري (ص٦٩).

هُرمز، ومالك بن أنس: عليه الرجم، أُحصن، أو لم يُحصن(١).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: من عمل عمل قوم لُوطٍ، فاقتلوه(٢).

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكوسج: قلت لأحمد: يرجم اللُّوطي أُحصن، أو لم يحصن؟ فقال: يرجم، أُحصن، أو لم يحصن. قال إسحاقُ بن راهويه: هو كما قال.

قال إسحاق بن راهويه: والسنة في الذي يعمل عمل قوم لوطٍ أن يرجم محصنًا كان، أو غير محصن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه**»(٣) رواه ابن عباس عن النبي ﷺ كذلك، ثم أفتىٰ ابنُ عباسٍ بعد النبي ﷺ فيمن يعمل عمل قوم لوطٍ: أنه يرجم وإن كان بكرًا، فحكم في ذلك بما رواه عن النبي ﷺ.

وكذلك رُوي عن علي بن أبي طالب مثل هذا القول: إن اللوطي يرجم، ولم يذكر محصنًا كان، أو غير محصن، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط، وكذا يروىٰ عن أبي بكر الصديق ﷺ: أنه حرقهم بالنار. هذا كلام إسحاق ﷺ.

وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللُّوطية، وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن وهي: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، واقتربت الساعة. وجمع علىٰ القوم بين عمىٰ الأبصار، وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار. وقال محذرًا لمن عمل عملهم مما حلَّ بهم من العذاب الشديد: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقال بعض العلماء: إذا علا الذكرُ الذكرَ؛ هربت الملائكة، وعجَّت الأرض إلىٰ ربها، ونزل سخط الجبار ﷻ عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفَّت بهم الشياطين، واستأذنت

---

(١) انظر تحريم اللواط (ص٦٩).

(٢) أخرجه الآجري (ص٦٨).

(٣) سبق تخريجه (ص١٨٩).

الأرض ربها أن تُخسف بهم، وثقُل العرش علىٰ حملته، وكبرت الملائكة، واستعرت الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه؛ نقلوها إلىٰ ديار إخوانهم، وموضع عذابهم، فكانت روحه بين أرواحهم. وذلك أضيق مكانًا، وأعظم عذابًا من تنور الزُّناة. فلا كانت لذةٌ توجب هذا العذاب الأليم! وتسوقُ صاحبها إلىٰ مرافقة أصحاب الجحيم.

تذهب اللذَّات، وتعقب الحسرات، وتفنىٰ الشهوة، وتبقىٰ الشقوة.

فصل

عقوبة الفاحشة مع ذي رحم محرم

وأما إن كانت الفاحشة مع ذي رحم محرم، فذلك الهُلْكُ كلُّ الهلك، ويجب قتل الفاعل بكل حالٍ عن الإمام أحمد وغيره. واحتجَّ الإمام أحمدُ بحديث عدي بن ثابت عن البراء بن عازبٍ قال: لقيت خالي ومعه الرايةُ، فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ رجلٍ تزوَّج امرأة أبيه، أضربُ عنقه، وآخذُ ماله. رواه الإمامُ أحمد[١]، واحتجَّ به.

وفي مسائل صالح بن أحمد[٢] قال: سألت أبي عن الرجل تزوج ذات محرمٍ منه، فقال: إن كان عمدًا؛ يُقتلُ، ويُؤْخذُ ماله، وإن كان لا يعلم؛ يُفرَّقُ بينهما. وأستحب أن يكون لها ما أخذت منه، ولا يرجع عليها بشيء.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده[٣]: أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من أتىٰ ذات محرم**».

---

(١) في مسنده (٤/ ٢٩٠، ٢٩٢). وأخرجه أيضًا أبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٣٦٢)، والنسائي (٦/ ١١٠)، وابن ماجه (٢٦٠٧). وهو حديث صحيح.

(٢) كما نقل عنها الخرائطي في اعتلال القلوب (ص١١٢).

(٣) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (ص١١١).

ص: ٥١٤

الباب الخامس والعشرون
في رحمة المُحبين، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين

قال الله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] وكل من أعان غيره علىٰ أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع لصاحب الحاجة، فيصير له شفعًا في قضائها؛ لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين علىٰ خيرٍ، أو شر بقول، أو عمل. ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وفي الصحيح[١] عنه ﷺ: أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول: «**اشفعوا تُؤجروا، ويقضي الله علىٰ لسان رسوله ما أحب**».

وفي صحيح البخاري[٢] أن بريرة لما عتقت؛ اختارت نفسها، فكان زوجها يمشي خلفها، ودموعه تسيلُ علىٰ لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «**لو راجعتيه فإنه أبو ولدك**» فقالت: أتأْمُرني؟ قال: «**لا! إنما أنا شافعٌ**» قالت: فلا حاجة لي فيه.

فهذه شفاعةٌ من سيد الشُّفعاء لمُحب إلىٰ محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات، وأعظمها أجرًا عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين علىٰ ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحبّ ما إلىٰ إبليس وجنوده التفريق بين هذين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٨)، ومسلم (٢٦٢٧). (٢) برقم (٥٢٨٣، ٥٣١٨).

وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَا﴾ وفي السيئة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَا﴾ [النساء: ٨٥] **فإن لفظ الكفل يُشعر بالحمل، والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظّ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كلٌّ منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما؛ حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب، وحظ الشر بالكفل.**

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده[١]: أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ زوَّج ابنةً له، وكان خطبها قبل ذلك عمٌّ بنيها، فبلغ النبي ﷺ أنها كارهةٌ للذي زوجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يزوجها عمَّ بنيها، فأهدر النبي ﷺ نكاح أبيها، وزوجها عم بنيها.

والمقصود أن الشفاعة للعشاق فيما يجوز من الوصال والتلاقي سنةٌ ماضيةٌ، وسعيٌ مشكورٌ.

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم: أنهم شفعوا هذه الشفاعة.

ويذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنه جاءته جاريةٌ تستعدي على رجلٍ من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصَّتُك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين! كَلِفْتُ بابن أخيه، فما أزال أُراعيه. فقال له عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي. فقال: أُشهِدُك يا أمير المؤمنين أنها له!

وذكر التميميُّ في كتابه المسمىٰ بـ«امتزاج النفوس»[٢] أن معاوية ابن أبي

---

(١) أصل الحديث عند البخاري (٥١٣٨).

(٢) نقل عنه مغلطاي في الواضح المبين (ص٣٢).

سفيان اشترىٰ جارية من البحرين، فأُعجب بها إعجابًا شديدًا، فسمعها يومًا تنشد أبياتًا، منها:

وفارقتُه كالغُصنِ يهتزُّ في الثَّرى ... طريرًا وسيمًا بعدما طرَّ شاربُه

فسألها، فقالت: هو ابنُ عمي، فردَّها إليه، وفي قلبه منها.

وذكر الخرائطي[1] من حديث الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم: أن عمر بن أبي ربيعة كان قد ترك الشعر، ورغب عنه، ونذر علىٰ نفسه بكل بيتٍ يقوله هدي بدنةٍ، فمكث بذلك حينًا، ثم خرج ليلةً يريدُ الطواف بالبيت؛ إذ نظر إلىٰ امرأةٍ ذات جمالٍ تطوف، وإذا رجلٌ يتلوها، كلما رفعت رجلها وضع رجله موضع رجلها، فجعل ينظر إلىٰ ذلك من أمرهما، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُنية، ثُمَّ رجع، فلما رآه عمر؛ وثب إليه وقال: لتُخبرني عن أمرك! قال: نعم! هذه المرأة التي رأيت ابنةُ عمي، وأنا لها عاشقٌ، وليس لي مال، فخطبتها إلىٰ عمي، فرغب عني وسألني من المهر ما لا أقدر عليه، والذي رأيت هو حظي منها، ومالي من الدنيا أمنيةٌ غيرها، وإنما ألقاها عند الطواف، وحظي ما رأيت من فعلي. فقال له عمر: ومن عمك؟ قال: فلان بن فلان. قال: انطلق معي إليه، فانطلقا، فاستخرجه عمر، فخرج مبادرًا، فقال: ما حاجتك يا أبا الخطاب؟ قال: تزوج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان، وهذا المهر الذي تسأله مساقٌ إليك من مالي! قال: فإني قد فعلت. قال عمرُ: إني أُحبُّ ألَّا أبرح حتىٰ يجتمعا، قال: وذلك أيضًا! قال: فلم يبرح حتىٰ جمعهما جميعًا، وأتىٰ منزله فاستلقىٰ علىٰ فراشه، فجعل النوم لا يأخذه، وجعل جوفه يجيش بالشعر، فأنكرت جاريته ذلك، فجعلت تسأله عن أمره، وتقول:

---

(١) في اعتلال القلوب (ص٢٣٤ - ٢٣٥).

ويحك! ما الذي دهاك؟ فلما أكثرت عليه؛ جلس، وأنشد:

تقول وليدتي لما رأتني طربتُ وكنتُ قد أقصرتُ حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقًا وهاج لك البكا داءً دفينا
بربك هل أتاك لها رسولٌ فشاقك أم رأيت لها خدينا
فقلت شكا إليَّ أخٌ محبٌّ لبعض زماننا إذْ تعلمينا
فعدَّ عليَّ ما يلقى بهندٍ فوافق بعض ما كنا لقينا
وذو القلب المصاب وإن تعزَّى يهيَّجُ حين يلقى العاشقينا
وكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها لغير قِلًى وكنتُ بها ضنينا
رأيتُ صدودها فصددتُ عنها ولو هام الفؤادُ بها جُنونا

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار»(١): أن زبيدة بنت أبي جعفر قرأت في طريق مكة علىٰ حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه كريمٌ يُجلِّي الهمَّ عن ذاهب العقل
له مقلةٌ أما المآقي قريحة وأما الحشا فالنارُ منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلها، حتىٰ تجمع بينه وبين من يحبه، قالت: فإني لبالمزدلفة؛ إذ سمعت من ينشدهما، فاستدعيتُ به، فزعم أنه قالهما في بنت عمٍّ له، قد حلف أهلها ألَّا يزوجوها منه، فوجَّهت إلىٰ الحي، وما زالت تبذل لهم المال

---

(١) ٤/ ٢٦.

حتىٰ زوجوه، وإذا المرأة أعشقُ من الرجل، فكانت زبيدة تعدُّه في أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشيء أسرَّ مني بجمعي بين ذلك الفتىٰ والفتاة.

قال الزمخشري[1]: وهوي أحمد بن أبي عثمان الكتاب جارية لزبيدة اسمها «نُعْم» حتىٰ مرض، وقال فيها أبياتًا منها:

وإني ليرضيني الممرُّ ببابها وأقنعُ منها بالشتيمة والزجر

فوهبتها له.

---

(١) في ربيع الأبرار (٤/ ٢٦).

الباب السادس والعشرون
في ترك المحبين أدنى المحبوبَينِ رغبةً في أعلاهما

ص: ٥٣٤

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلَّا النفوس الفاضلة الشريفة الأبيةُ؛ التي لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلىٰ بالأدنىٰ بيع العاجز المغبون، ولا يملكها لطخ جمالٍ مُغَشًّىٰ علىٰ أنواع من القبائح، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلىٰ امرأةٍ مبرقعة:

إذا بارك الله في ملبسٍ فلا بارك الله في البرقع

يُريك عيون المها حسرةً ويكشف عن منظر أشنع

فالنفس الأبيةُ لا ترضىٰ بالدُّون. وقد عاب الله سبحانه أقوامًا استبدلوا طعامًا بطعام أدنىٰ منه، فنعىٰ ذلك عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وذلك دليلٌ علىٰ وضاعة النفس، وقلة قيمتها.

وقال الأصمعي[١]: خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ، فهمَّ بالريبة، فلما تمكن منها تنحَّىٰ سليمًا، وجعل يقول: إن امرأً باع جنةً عرضها السموات والأرض بفتر ما بين رجليك لقليل البصر بالمساحة.

وذكر إبراهيم بن الجنيد[٢]: أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها، فقالت له: أنت قد سمعت القرآن والحديث، فأنت أعلم! قال: فأغلقي الأبواب، فأغلقتها، فلما دنا منها؛ قالت: بقي بابٌ لم أغلقه! قال: أيُّ باب؟! قالت: الباب الذي بينك وبين الله! فلم يتعرض لها.

---

(١) أخرج عنه الخرائطي (ص٦٦).

(٢) أخرج عنه الخرائطي (ص٦٦).

وذكر أيضًا عن أعرابي قال[١]: خرجت في بعض ليالي الظُّلَم، فإذا أنا بجارية كأنها عَلَم، فأردتها عن نفسها، فقالت: ويحك! أما كان لك زاجرٌ من عقل؛ إذ لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلَّا الكواكب! قالت: فأين مُكَوكبها؟

ومن أحسن شعر العرب، وكان عمرُو بن العاص يتمثلُ بهما:

إذا المرءُ لم يترك طعامًا أحبه ... ولم ينه قلبًا غاويًا حيث يمَّما

قضى وطرًا منه وغادر سُبَّةً ... إذا ذُكرت أمثالها تملأُ الفما

وفي مسند الإمام أحمد[٢] من حديث النواس بن سمعان ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحةٌ، وعلىٰ الأبواب ستورٌ مُرخاةٌ، وعلىٰ رأس الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تُعرِّجوا! وداع يدعو فوق الصراط، فإذا أراد أحدٌ فتح شيء من تلك الأبواب؛ قال: ويحك! لا تفتحهُ؛ فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلامُ، والستور المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحةُ محارم الله، والداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله ﷻ والداعي من فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مسلم**».

وقال خالد بن معدان[٣]: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه، يبصرُ بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه، يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا؛ فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعدهُ الله بالغيب، وإذا أراد به غير ذلك؛ تركه علىٰ ما فيه، ثم قرأ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

---

(١) أخرجه الخرائطي (ص٦٥).

(٢) ٤/ ١٨٢ - ١٨٣. وهو حديث صحيح.

(٣) أخرج عنه الخرائطي (ص٥٢ - ٥٣).

وفي الترمذي[١] عنه ﷺ: «**الكيِّس: من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني**».

وفي المسند[٢] من حديث فضالة بن عُبيد عن النبي ﷺ: «**المجاهد: من جاهد نفسه في ذات الله، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله**».

وقال عبد الله بن المبارك[٣]، عن معمر: قال الصبيانُ ليحيىٰ بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: أَوَ لِلَّعب خُلِقْنا؟!

فصل

ومِلاك الأمر كله: الرغبة في الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلىٰ الوصول إليه ولقائه. فإن لم يكن للعبد همَّةٌ إلىٰ ذلك: فالرغبة في الجنة ونعيمها، وما أعدَّ الله فيها لأوليائه. فإن لم تكن همةٌ عالية تطالبه بذلك فخشية النار، وما أعدَّ الله فيها لمن عصاه. فإن لم تطاوعه نفسه لشيء من ذلك؛ فليعلم أنه خُلق للجحيم، لا للنعيم، ولا يقدر علىٰ ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه.

فهذه فصول أربعة هي ربيعُ المؤمن، وصيفه، وخريفه، وشتاؤه، وهي منازلُه في سيره إلىٰ الله، وليس له منزلةٌ غيرها. فأما مخالفة الهوىٰ؛ فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، **قال تعالى**: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) برقم (٢٤٥٩).

(٢) ٦/ ٢١و٢٢. والحديث صحيح، انظر السلسلة الصحيحة (٥٤٩).

(٣) أخرجه من طريقه أحمد في الزهد (ص٧٦).

﴿رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] **قيل: هو العبد يهوى المعصية، فيذكر مقام الله عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة، فيتركها لله.**

وقد أخبر تعالىٰ: أن اتباع الهوىٰ يضلُّ عن سبيله، فقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله، ومصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] وأخبر سبحانه: أن باتباع الهوىٰ يطبع علىٰ قلب العبد، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] وقد أخبر النبي ﷺ: أن العاجز هو الذي اتبع هواه، وتمنىٰ علىٰ الله.

وذكر الإمام أحمد[١] من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخافُ عليكم شهواتُ الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلاتُ الهوىٰ**».

وقيل لبعض الحكماء: أيُّ الأصحاب أبرُّ؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأيُّ شيء أضرُّ؟ قال: النفسُ والهوىٰ.

وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران؛ فانظر أقربهما من هواك؛ فاجتنبه.

وفي المسند وغيره[٢] من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فالمهلكاتُ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًىٰ متبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجياتُ: تقوىٰ الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصدُ في الفقر والغنىٰ**».

---

(١) أحمد في المسند (٤/ ٤٢٠، ٤٢٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٨): رجاله رجال الصحيح.

(٢) لم أجده في المسند. وأخرجه الخرائطي (ص٦٩ - ٧٠، ٧٢). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) لشواهده.

وقد أقسم النبي ﷺ: أنهُ «لا يؤمن العبد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به»[(١)]، فيكون هواه تابعًا، لا متبوعًا، فمن اتبع هواه؛ فهواه متبوعٌ له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول ﷺ فهواه تابعٌ له، فالمؤمن هواه تابعٌ له، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له.

وقد حكم الله تعالىٰ لتابع هواه بغير هُدًىٰ منه: أنه أظلم الظالمين، فقال الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب: أنَّ الله لا يهدي من اتَّبع هواه. وجعل ﷺ المتبع قسمين، لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوىٰ. فمن اتبع أحدهما؛ لم يمكنه إتباعُ الآخر، والشيطانُ يطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلًا، ولا إليه طريقًا إلا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرقُ الشيطان من ظله. وإنما يُطاق مخالفةُ الهوىٰ بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوىٰ، فإن متابعته الداءُ الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم.

قيل لأبي القاسم الجنيد: متى تنال النفوس مُناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواءها، فقيل له: ومتى يصير داؤها دواءها؟ فقال: إذا خالفت هواها. ومعنى قوله: يصير داؤها دواءها: أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته؛ تداوت منه بمخالفته.

وقد قيل: إنه إنما سمي هوًىٰ؛ لأنه يهوي بصاحبه إلىٰ أسفل السافلين. والهوى **ثلاثة أرباع الهوان**، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦).

فصل

وأمَّا الرّغبةُ في الله، وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلى لقائه؛ فهي رأْس مال العبد، وملاكُ أمره، وقوامُ حياته الطيبة وأصلُ سعادته، وفلاحه، ونعيمه، وقُرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمر، وبذلك أُرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب، ولا نعيم إلا بأن تكون رغبتُهُ إلى الله ﷻ وحده، فيكون هو وحده مرغوبه، ومطلوبه، ومراده، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

والرَّاغبون ثلاثةُ أقسام: راغبٌ في الله، وراغبٌ فيما عند الله، وراغبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومن كان رغبتُه في الله؛ كفاه الله كلَّ مهم، وتولاه في جميع أُموره، ودفع عنه مالا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومن آثر الله على غيره؛ آثره الله على غيره. ومن كان لله؛ كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله؛ لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منه، ولم تبق له رغبةٌ فيما سواه، إلاَّ فيما يُقرِّبه إليه، ويعينه على سفره إليه.

ومن علامات المعرفة: الهيبةُ، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه؛ ازدادت هيبتُه له، وخشيتُهُ إياه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وقال النبي ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية**»[١] ومن عرف الله؛ صفا له العيشُ، وطابتْ له الحياةُ، وهابه كلُّ شيءٍ، وذهب عنه خوفُ المخلوقين، وأَنِسَ

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١، ٧٣٠١)، ومسلم (٣٥٦).

بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال، والمراقبة، والمحبة، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

وقال يحيىٰ بن مُعاذ: يخرج العارف من الدُّنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤُه علىٰ نفسه، وشوقه إلىٰ ربه.

وقيل: **العارف أنسَ بالله، فأوحشه من غيره، وافتقر إلى الله، فأغناه عن خلقه، وذلَّ لله، فأعزَّهُ في خلقه.**

وقال أبو سليمان الدَّارانيُّ: يُفتحُ للعارف علىٰ فراشه مالا يُفتح له وهو قائمٌ يُصلي.

وقال ذو النون: لكل شيء عقوبةٌ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله.

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبدًا، ومتى واطأ اللسانُ القلب في ذكره، واطأَ القلبُ مراد الحبيب منه، واستقلَّ له الكثير من قوله، وعمله، واستكثر له القليل من بره ولطفه، وعانق الطاعة، وفارق المخالفة، وخرج عن كله لمحبوبه، فلم يبق له منه شيءٌ، وامتلأ قلبه بتعظيمه، وإجلاله، وإيثار رضاه، وعز عليه الصبر عنه، وعدم القرار دون ذكره والرغبة إليه، والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأُنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره على غيره؛ فهو المحب حقًا.

وقال الجنيد: سمعت الحارث المُحاسبي يقول: المحبة ميلك إلىٰ الشيء بكليتك، ثم إيثارُك له علىٰ نفسك، وزوجك، ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

وقال عبد الله بن المبارك: من أُعطي شيئًا من المحبة، ولم يعط مثله من الخشية؛ فهو مخدوعٌ.

وقال يحيىٰ بن معاذ: مثقال خردلةٍ من الحُبِّ أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حب.

وقال أبو بكر الكتَّاني: جرت مسألةٌ في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي! فأطرق رأْسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهبٌ عن نفسه، مُتَّصل بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوارُ هويته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله. فهو بالله، ولله، ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين!

وأجمع العارفون كلهم: أن المحبة لا تصحُّ إلا بالموافقة، حتَّى قال بعضهم: حقيقة المحب موافقة المحبوب في مراضيه، ومساخطه، واتفق القوم: أن المحبة لا تصحُّ إلا بتوحيد المحبوب.

وقال سمنون: ذهب المحبُّون لله بشرف الدُّنيا والآخرة. لأن النبي ﷺ قال: «**المرءُ مع من أحبَّ**»[1] فهم مع الله في الدنيا والآخرة.

وقال يحيىٰ بن معاذ: ليس بصادقٍ من ادَّعىٰ محبَّته، ثمَّ لم يحفظ حدوده.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٤٤). وإسناده حسن.

فصل

فالمحبة شجرةٌ في القلب، عروقها الذلُّ للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيتُه، وورقُها الحياء منه، وثمرها طاعته، ومادَّتها التي تسقيها ذكْرُه، فمتى خلا الحبُّ عن شيءٍ من ذلك؛ كان ناقصًا.

وقد وصف الله - سبحانه - نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، وأخبر أنهم أشد حبًّا لله، ووصف نفسه بأنه الودود، وهو الحبيب. قاله البخاري[١]. والوُدُّ: خالصُ الحب، فهو يودُّ عباده المؤمنين، ويودُّونه.

وقد روىٰ البخاري في صحيحه[٢] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: أنه قال: «**من أهان لي وليًّا؛ فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبد ي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبه، فإذا أحببته؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويدهُ التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءتهُ ولابد له منه**».

وفي لفظ غير البخاري[٣]: «**فإذا أحببته؛ كنت له سمعًا، وبصرًا، ويدًا، ومؤيدًا**». فتأمل كمال الموافقة في الكراهة، كيف اقتضىٰ كراهة الرب تعالىٰ لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مساخط ربه! وكمال الموافقة في الإرادة، كيف اقتضىٰ

---

(١) في صحيحه (١٣/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨ - ٣١٩).

موافقته في قضاء حوائجه، وإجابة طلباته، وإعاذته مما استعاذ به، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك[١].

وفي تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] قال: حبيبًا قريبًا، إذا سألهُ؛ أعطاه، وإذا دعاه؛ أجابه.

وتأمل هذه الباء في قوله: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، كيف تجدها مبينة لمعنىٰ قوله: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به... إلىٰ آخره! فإن سمع؛ سمع بالله، وإن أبصر؛ أبصر به، وإن بطش؛ بطش به، وإن مشىٰ؛ مشىٰ به. وهذا تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقوله فيما رواه عنه رسوله: «**أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**»[٢]. وهذا ضد قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣] فالصحبة التي نفاها هاهنا هي التي أثبتها لأحبابه، وأوليائه وتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه! وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفي هذا تعزيةٌ لمدعي محبته بدون ذلك: أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأماني الباطلة، والدعاوي الكاذبةُ.

وفي الصحيحين[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد؛ نادىٰ جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبُّوه! فيُحبه أهل السماء، ثم يوضع**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠).

(٣) البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧/ ١٥٧).

له القبول في الأرض». وفي لفظ لمسلم: «**إن الله إذا أحبَّ عبدًا؛ دعا جبريل، فقال: إني أحبُّ فلانًا، فأحبهُ، قال: فيحبه جبريل. ثم ينادىٰ في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانًا، فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبدًا؛ دعا جبريل، فيقول: إني أُبغضُ فلانًا، فأبغضهُ، قال: فيُبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا، فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض**».

وفي لفظٍ آخر له(١) عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة، فمرَّ عمر بن عبد العزيز، وهو علىٰ الموسم، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبت! إني أرىٰ الله يحبُّ عمر بن عبد العزيز! قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحبِّ في قلوب الناس! فقال: إني سمعتُ أبا هريرة ﵁ يُحدِّث عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي(٢)، ثم زاد في آخره: فذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] انتهىٰ. وقال بعضُ السلف في تفسيرها: يحبهم، ويحببهم إلىٰ عباده.

وفي الصحيحين(٣) من حديث أنسٍ ﵁: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: «**وما أعددتَ لها؟**» قال: لا شيء إلا أني أُحبُّ الله ورسوله! فقال: «**أنت مع من أحببتَ**» قال أنس ﵁: فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: فأنا أُحب النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إيَّاهم، وإن لم أعمل أعمالهم.

---

(١) برقم (٢٦٣٧/ ١٥٨).
(٢) برقم (٣١٦٠).
(٣) البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٦٣٩).

وفي الترمذيِّ[١] عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المرء مع من أحبَّ، وله ما اكتسب**».

وفي سنن أبي داود[٢] عنه قال: ما رأيتُ أصحاب النبي ﷺ فرحوا بشيءٍ أشدَّ منه، قال رجلٌ: يا رسول الله! الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله، فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**».

وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعًا، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه.

وقد روى مسلم في صحيحه[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: أينَ المُتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظِلّهم في ظلي يوم لا ظل إلاَّ ظلي**».

وفي جامع الترمذي[٤] من حديث مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: المُتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون، والشهداء**». وفي لفظ لغيره[٥]: «**المُتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع**».

وفي صحيح مسلم[٦] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رجلاً زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملَكًا، فلما أتى عليه؛ قال: أين تُريد؟ قال: أُريد أخًا لي في هذه القرية. قال: لك عليه من نعمة ترُبُّها؟ قال: لا! غير أني أُحبُّهُ في**

---

(١) برقم(٢٣٨٦). (٢) برقم (٥١٢٧).

(٣) برقم (٢٥٦٦).

(٤) برقم (٢٣٩٠). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) انظر: جامع الأصول (٦/ ٥٥١). (٦) برقم (٢٥٦٧).

الله تعالىٰ، قال: فإني رسول الله إليك: أنَّ الله قد أحبَّك كما أحبَبْتَهُ فيه».

وفي صحيح مسلم(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده! لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابُّوا، أوَ لا أدُلُّكُمْ علىٰ شيءٍ إذا فعلْتُمُوهُ تحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلام بيْنكُمْ».**

فصل

ولو لم يكن في محبة الله إلَّا أنَّها تنجي مُحِبَّهُ من عذابه؛ لكان ينبغي للعبد ألَّا يتعوَّض عنها بشيءٍ أبدًا.

وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن: أن الحبيب لا يعذِّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [المائدة: ١٨].

ويكفي في الإقبال علىٰ الله ثوابًا عاجلًا: أن الله ﷻ يُقبل بقلوب عباده إلىٰ من أقبل عليه، كما أنه يُعرض بقلوبهم عمَّن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وإذا كانت القلوب مجبولة على حُبِّ من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله ﷻ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] **فلا ألأمَ ممَّن شغل قلبه بحب غيره دونه.**

ومن أفضل ما سئل الله ﷻ حبُّه وحبُّ من يحبُّه، وحبُّ عملٍ يقرب إلىٰ حبِّه، ومن أجمع ذلك أن يقول(٢): **«اللهمَّ! إني أسألك حُبَّك، وحُبَّ من يحبُّك، وحُبَّ**

---

(١) برقم (٥٤).

(٢) لم أجده، وأخرجه مفرقًا الترمذي (٣٢٣٥، ٣٤٩١، ٣٤٩٠).

عملٍ يقرِّبني إلىٰ حبك، اللهمَّ! ما رزقتني مما أُحبُّ؛ فاجعله قوَّةً لي فيما تُحبُّ، وما زوْيتَ عني مما لا أحب؛ فاجعله فراغًا لي فيما تُحبُّ؛ اللهم! اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من أهلي، ومالي، ومن الماء البارد علىٰ الظمأ، اللهم! حبّبني إليك، وإلىٰ ملائكتك، وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين. واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك وعبادك الصالحين. اللهمَّ! أحي قلبي بحبِّك، واجعلني لك كما تحبُّ. اللهم! اجعلني أُحبُّك بقلبي كلِّهِ، وأرضيك بجهدي كله. اللهم! اجعل حبي كله لك، وسعيي كله في مرضاتك.

وهذا الدعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام؛ الذي قيامُها به، وهو حقيقةُ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] والله سبحانه تعرَّف إلىٰ عباده من أسمائه، وصفاته، وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفطورةٌ علىٰ محبة الكمال، ومن قام به، والله ﷻ له الكمالُ المطلق من كل وجهٍ؛ الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه، بل لو كان جمالُ الخلق كلهم علىٰ رجل واحدٍ منهم، وكانوا جميعُهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم نسبةٌ قطُّ إلىٰ جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراجٍ ضعيفٍ جدًّا إلىٰ جرم الشمس ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وقد روىٰ عن النبي ﷺ قوله: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال**» عبد الله ابن عمرو بن العاص[(١)]، وعبد الله بن مسعودٍ[(٢)] وأبو هريرة[(٣)]، وأبو ريحانة[(٤)] رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠).
(٢) أخرجه مسلم (٩١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٢).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٣، ١٣٤).

ومن أسمائه الحسنى: الجميلُ، ومَنْ أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعته، فلهُ جمال الذَّات، وجمالُ الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلُّها حُسْنى، وصفاتُه كلُّها كمالٌ، وأفعالُه كلُّها جميلةٌ، ولا يستطيع بشرٌ النظر إلىٰ جلاله وجماله في هذه الدَّار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدنٍ أنْسَتْهُمْ رؤيتُه ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلىٰ شيء غيره، ولولا حجابُ النور علىٰ وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ﷻ ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه، كما في صحيح البخاري[1] من حديث أبي موسىٰ ﵁ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلماتٍ، فقال: «**إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القسط، ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابُهُ النُّور لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**».

وفي دعاء النبي ﷺ الذي دعا به يوم الطائف: «**أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلماتُ، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة أن يحلَّ عليَّ غضبُك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[2].

فإذا جاء ﷻ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلُّها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩] وقولُ عبد الله بن مسعود ﵁: نورُ السموات والأرض من نور وجهه، تفسيرٌ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر[3] ﵁ في استفتاح النبي ﷺ قيام الليل:

---

(١) لم أجده عند البخاري. وقد أخرجه مسلم (١٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء (١٠٣٦).

(٣) بل من حديث ابن عباس، كما رواه البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن».

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«أسألُك لذَّة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك»**. ذكره الإمام أحمد، والنسائيُّ، وابنُ حبان في صحيحه(١).

فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبائه عند لقائه، ثم اختر لنفسك:

أنت القتيلُ بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

وفي الصحيحين(٢) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«جنتان من ذهب، آنيتُهما، وحليتُهُما، وما فيهما، وجنتان من فضةٍ، آنيتهما، وحليتهما، وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلىٰ ربهم إلَّا رداءُ الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدنٍ»**.

وقال الحسن البصري في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] قال: حسَّنها ﷻ بالنظر إليه - سبحانه - وحقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلىٰ ربها ﷻ.

قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: لو لم يكن لأهل المحبَّة - أو قال: المعرفة - إلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] لاكتفوا بها.

وفي الصحيحين(٣) من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا، وسعديك، والخير في يديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ، وقد أعطيتنا ما لم**

---

(١) أخرجه أحمد(٤/ ٢٦٤)، والنسائي (٣/ ٥٤ - ٥٥)، وابن حبان (١٩٧١). وهو حديث صحيح.

(٢) البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠).

(٣) البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

تُعط أحدًا من خلقك! فيقولُ: ألا أُعطيكُمْ أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ! وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكُم أبدًا».

وفي الصحيح، والسُّنن، والمسانيد(١) من حديث صهيب ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادىٰ مناد: يا أهل الجنَّة! إنَّ لكم عند الله موعدًا يُريد أن يُنجزَكُمُوهُ. فيقولون: ما هو؟! ألمْ يُبَيِّضْ وُجُوهنا، ويُثقِّلْ موازِيننا، ويُدْخِلْنَا الجنَّة، ويُجِرْنَا من النَّارِ؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله! ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعْيُنِهمْ**».

وفي صحيح البخاري(٢) من حديث جرير بن عبد الله، قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر، فقال: «**إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامُّون في رُؤيتِهِ، فإن استطعتُم ألَّا تُغْلبوا علىٰ صلاةٍ قبْل طُلوعِ الشمس، وقبْل غُروبها؛ فافعلوا**».

وفي الصحيحين(٣) من حديث أبي هريرة ﵁: أنَّ الناس قالوا: يا رسول الله! هل نرىٰ ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارُّون في القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله! قال: «**فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله! قال: «**فإنكم ترونه كذلك**» وفي لفظٍ: «**فإنكم لا تُضارُّون في رُؤية ربكم إلَّا كما تُضارُّون في رؤْيتهما**».

وفي مسند الإمام أحمد(٤) ﵁ من حديث أبي الزبير، قال: سألت جابرًا عن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، وأحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

(٢) برقم (٧٤٣٤ ومواضع أخرىٰ)، وأخرجه أيضًا مسلم (٦٣٣).

(٣) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٤) ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦. وأخرجه أيضًا مسلم (١٩١).

الورود، فأخبرني: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نجيء يوم القيامة على كوم فوق الناس، فتدعىٰ الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم! فيقولون: حتىٰ ننظر إليك، قال فيتجلىٰ لهم يضحك، فيتَّبعونهُ**».

وقال الحسن: لو علم العابدون أنَّهم لا يرون ربَّهم في الآخرة، لذابت أنفسهم في الدنيا. وقال هشام بن حسَّان عنه: أنَّه ﷻ يتجلَّىٰ لأهل الجنَّة، فإذا رأوه نَسُوا نعيمَ الجنَّة.

أعجب الصبر صبرُ المحبين، قال الشاعر:

والصَّبر يُـحمدُ في المواطن كلِّها … إلَّا عليك فإنه لا يحمد

وقف رجل على الشِّبليِّ، فقال: أيُّ الصَّبر أشدُّ على الصابرين؟ قال: الصبر في الله. فقال السَّائل: لا! فقال: الصَّبر لله. قال: لا! قال: فالصَّبر مع الله. قال: لا! قال: فما هو؟ قال: الصبرُ عن الله. فصرخَ الشبليُّ صرخةً كادت روحهُ تزهقُ. قال الشاعر:

والصبـرُ عنـك فمذمـومٌ عواقبهُ … والصبرُ في سائر الأشياء محمودُ

الخوفُ يبعدك عن معصيته، والرَّجاء يحركك إلى طاعته، والحبُّ يشوقك إليه شوقًا. لمَّا علم الله - سبحانه - أنَّ قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلَّا بلقائه؛ ضرب لهم أجلًا للِّقاء؛ سكنًا لقلوبهم، فقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العنكبوت: ٥].

يا من شكا شـوقه من طول فرقته … اصبر لعلَّك تلقى من تحب غدا

وسِـرْ إليـه بنـار الشـوقِ مجتهدًا … عساك تلقى على نار الغرام هُدَى

المحبُّ الصادق كلَّما قرب من محبوبه؛ زاد شوقًا إليه.

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يومًا ... إذا دنت الخيامُ من الخيام

كلَّما وقع بصرُ المحبِّ علىٰ محبوبه، أحدثت له رؤيته شوقًا علىٰ شوقه.

ما يرجعُ الطرفُ عنه حين يُبْصره ... حتَّى يعود إليه الطرف مشتاقا

المحبُّ الصادقُ إذا سافر طرفُه في الكون؛ لم يجد له طريقًا إلَّا علىٰ محبوبه، فإذا انصرفَ بصره عنه؛ رجع إليه خاسئًا وهو حسير.

أقرُّ شيءٍ لعين المحبِّ خلوته بسرِّه مع محبوبه. حدَّثني من رأى شيخنا عُنْفُوان أمره، خرج إلى البريَّة بكرةً، فلمَّا أصحر؛ تنفَّس الصُّعداء، ثمَّ تمثَّل بقول الشاعر:

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني ... أُحَدِّثُ عنك القلبَ بالسرِّ خاليا

الشوق يحمل المحبَّ على العَجَلة في رضا محبوبه، والمبادرة إليها على الفور، ولو كان فيها تَلَفُه. ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤] قال بعضهم: أراد شوقًا إليك، فستره بلفظ الرِّض

من علامات المحبَّة الصَّادقة أنَّ المحبَّ لا يتمُّ له سرورٌ إلَّا بمحبوبه، وما دام غائبًا عنه غيبته؛ فعيشُه كلُّهُ مُنغَّصٌ.

لو قيل للمُحبِّ علىٰ الدَّوام: ما تتمنَّىٰ؟ لقال: لقاء المحبوب.

ولمَّا نزلنا منزلًا طلَّه الندى ... أنيقًا وبستانًا من النَّور حاليا

أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُه ... مُنىً فتمنَّينا فكنت الأمانيا

قال الجنيد: سمعت السَّريَّ يقول: الشوق أجلُّ مقام العارف؛ إذا تحقَّق فيه، وإذا تحقَّق بالشوق؛ لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشتاق إليه.

وسئل الجنيد: من أي شيءٍ يكون بكاءُ المحبِّ إذا لقيَ المحبوب؟ فقال: إنَّما يكون ذلك سرورًا به، ووجدًا من شدَّة الشوق إليه. قال: ولقد بلغني: أنَّ أخوين تعانقا، فقال: أحدهما: واشوقاه! وقال الآخر: واوجداه!

وكانت عجوزٌ لها غائبٌ، فقدم من السَّفر، فأظهر أهلُها الفرحَ والسُّرورَ به، فجعلت تبكي، فقيل لها: ماهذا البكاء؟ فقالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتى يوم القدوم على الله.

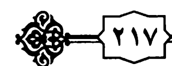
فصل

قال ابن أبي الحواري[1] رحمه الله: سئل أبو سليمان الدَّارني - رحمه الله، وأنا حاضر -: ما أقربُ ما يُتقرَّب به إلى الله عز وجل؟ فبكى، ثمَّ قال: مثلي يُسْأل عن هذا؟ أقربُ ما يُتَقرَّب به إليه: أن يطَّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة إلَّا هو.

وقال يحيى بن معاذ: النُّسكُ: هو العناية بالسَّرائر، وإخراج ما سوى الله من القلب.

وقال سهل: من نظر إلى الله عز وجل قريبًا منه؛ بَعُد عن قلبه كل شيء سوى الله، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى ومن أسلم قلبه إلى الله؛ تولى الله جوارحه. وقال سهل أيضًا: حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يَشُمَّ رائحةَ اليقين؛ وفيه سكونٌ إلىٰ غير الله، وحرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النُّورُ؛ وفيه شيءٌ ممَّا يكره الله. **وسئل بعضهم عن**

(١) الأخبار التالية كلها في ذم الهوىٰ (ص٧٧).



أفضل الأعمال؛ فقال: رعايةُ السِّرِّ عن الالتفات إلى شيءٍ سوى الله ﷻ. وقال سلم: تركتموه، وأقبل بعضكم علىٰ بعض، لو أقبلتم عليه؛ لرأيتم العجائب.

فصل

فإن تقاصرت همتك الدَّنيَّة عن ترك الفواحش؛ محبةً لهذا المحبوب الأعلىٰ، ولست هناك؛ فاترُكها محبةً للنِّساء اللَّاتي وصفهنَّ الله في كتابه، وبعث رسوله داعيًا إلىٰ وصالهن في جنَّة المأوىٰ، وقد تقدَّم ذكر بعض صفاتهن، ولذَّة وصالهنَّ. فإن تقاصرت همتُك عنهنَّ، ولم تكن كفؤًا لخطبتهن، ودعتك نفسك إلىٰ إيثار ما هاهنا عليهنَّ؛ فكن من عقوبته العاجلة والآجلة علىٰ حذر. واعلم أنَّ العقوبات تختلف، فتارةً تُعَجَّل، وتارة تؤخَّر، وتارةً يجمعُ الله علىٰ العاصي بينهما.

وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان، ودونها: العقوبة بموت القلب، ومحو لذَّة الذِّكر، والقراءة، والدُّعاء، والمناجاة منه، وربما دبَّت عقوبة القلب فيه دبيبَ الظلمة إلى أن يمتلئ القلب بها، فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن في الدُّنيا، وأهونُ منها ما وقع بالمال، وربَّما كانت عقوبة النظر في البصيرة، أو في البصر، أو فيهما.

وقال الفضيل: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعمل مقتك عليه، فأغلقَ عنك أبواب المغفرة؛ وأنت تضحك؟

وقال ابن عباس، وأنسٌ ﷺ: إنَّ للحسنة نورًا في القلب، وزينًا في الوجه، وقوَّة في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنَّ للسيئة ظلمة في القلب،

وشينًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرِّزق، وبغضةً في قلوب الخلق.

وقال الحسن: ما عصىٰ الله عبدٌ إلَّا أذلَّه. وقال المعتمر بن سليمان: إنَّ الرَّجل ليصيب الذنبَ في السرِّ، فيصبح وعليه مذلَّته.

وقال الحسن: هانوا عليه، فعصوه، ولو عزُّوا عليه؛ لعصمهم.

وكان شيخ من الأعراب يدور علىٰ المجالس، ويقول: من سرَّه أن تدوم له العافية؛ فليتَّق الله.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: من صفا صُفيَ له، ومن كدَّر كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليله، كُفيَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره؛ كُفيَ في ليله، ومن ترك لله شهوةً من قلبه؛ فالله أكرمُ أن يُعَذِّب بها قلبَه.

وكتبت عائشة أم المؤمنين ﵂ إلىٰ معاوية[2]: أمَّا بعد، فإنَّ العامل إذا عمل بمعصية الله؛ عاد حامدُه من الناس ذامًّا.

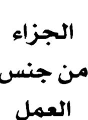
وقال محارب بن دثار[3]: إنَّ الرَّجل ليذنب الذنبَ، فيجد له في قلبه وهنًا.

---

(١) انظر: ذم الهوىٰ (ص ١٨٥)، وحلية الأولياء (٩/ ٢٥٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ١٨٢).

(٣) ذم الهوىٰ (ص ١٨٣).



فصل

الجزاء من جنس العمل

واعلم أنَّ الجزاء من جنس العمل، والقلب المعلَّق بالحرام كلَّما همَّ أن يفارقه، ويخرج منه؛ عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.

وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الَّذي في صحيح البخاري[1]: أنَّ النَّبي ﷺ قال: **«رأيت الليلة: رجلان أتياني، فأخرجاني، فانطلقت معهما، فإذا بيتٌ مبنيٌّ على مثل بناء التَّنُّور، أعلاهُ ضيِّق، وأسفلُهُ واسع، يوقد تحته نار، فيه رجالٌ ونساءٌ عُراة، فإذا أوقدت النار؛ ارتفعوا حتَّى يكادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، فقلت: ما هؤلاء؟ قال: هم الزُّناة». فتأمَّل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا، فإنَّه كلَّما همُّوا بالتوبة والإقلاع، والخروج من تنُّور نار الشهوة إلى فضاء التوبة؛ أُركسوا فيه، وعادوا بعد أن كادوا يخرجون.**

ولمَّا كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلَّما همُّوا بالخروج منه إلىٰ فضاء الإيمان وسعته وروحه؛ رجعوا علىٰ حوافرهم؛ كانت عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فالكفرُ والمعاصي، والفسوق كلُّه غموم، وكلَّما عزم العبد أن يخرج منه؛ أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفُه، فلا يزالُ في غمِّ ذلك حتَّىٰ يموت، فإن لم يخرج من غمِّ ذلك في الدنيا؛ بقي في غمِّه في البرزخ، وفي القيامة، وإن خرج من غمِّه، وضيقه هاهنا؛ خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدَّار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذَّبًا به هناك كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا، فليس الفسَّاق والفجرة والظَّلمة في

(١) برقم (٧٠٤٧).

لذَّةٍ في هذه الدار، وإنَّما هم مُعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشَّهوة وموت القلوب حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون؛ أحضرت نفوسُهم الألمَ الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم، غيرَ أنَّها لا تفنىٰ، والدُّودُ يأكل جسومهم.

الباب السابع والعشرون
فيمن ترك محبوبه حرامًا، فبُدِّل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه

ص: ٦٠٠

عنوانُ هذا الباب، وقاعدتُه: أنَّ من ترك لله شيئًا؛ عوَّضه الله خيرًا منه، كما ترك يوسف الصِّديقُ ﷺ امرأة العزيز لله، واختارَ السِّجن علىٰ الفاحشة، فعوَّضه الله: أن مكَّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً، سائلةً، راغبةً في الوصل الحلال، فتزوَّجها، فلمَّا دخل بها قال: هذا خيرٌ ممَّا كنتِ تريدين.

وتأمَّل كيف جزاه الله - سبحانه - علىٰ ضيق السجن: أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلَّ له العزيز، وامرأته، وأقرَّت المرأة والنِّسوة ببراءته، وهذه سُنَّته تعالىٰ في عباده قديمًا وحديثًا إلىٰ يوم القيامة.

ولمَّا عقر سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - الخيلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتىٰ غابت الشمس غضبًا لله، أعاضه الله عنها الريحَ يركب هو و عسكره علىٰ متنها حيث أراد.

ولمَّا ترك المهاجرون ديارَهم لله، وأوطانهم التي هي أحبُّ شيءٍ إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا، وملَّكهم شرقَ الأرض وغربَها.

ولو اتقىٰ الله السَّارقُ، وترك سرقة المال المعصوم لله؛ لآتاه الله مثلَه حلالًا. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] فأخبر ﷻ: أنَّه إذا اتقاه بترك ما لا يحلُّ له؛ رزقه من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك

ركوبَ ذلك الفرج حرامًا لله؛ لأثابه الله بركوبه، أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالًا.

قال الإمام أحمد(١): عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**النظرُ إلىٰ المرأة سهمٌ من سهام إبليس مسمومٌ، من تركه خوف الله؛ أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**».

وقال أبو الفرج ابن الجوزي(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: بلغني عن بعض الأشراف: أنَّه اجتاز بمقبرة، وإذا بجارية حسناءَ عليها ثيابُ سوادٍ، فنظر إليها، فعلقت بقلبه، فكتب إليها:

قد كنتُ أحسب أنَّ الشمس واحدة ... والبدر في منظر بالحسن موصوف

حتَّى رأيتُك في أثواب ثاكلة ... سودٍ وصدغُك فوق الخدِّ معطوف

فرحتُ والقلبُ منِّي هائمٌ دنِفٌ ... والكبد حرَّى ودمعُ العين مذروف

رُدِّي الجواب ففيه الشكر واغتنمي ... وصل المحبِّ الَّذي بالحُبِّ مشغوفُ

ورمىٰ بالرقعة إليها، فلمَّا قرأتها كتبت:

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ ... إنَّ الشريف بغضِّ الطرف معروف

إنَّ الزُّناةَ أُناسٌ لا خلاقَ لهم ... فاعْلم بأنَّك يوم الدين موقوف

واقطع رجاك لحاك الله من رجلٍ ... فإنَّ قلبي عن الفحشاء مصروف

فلمَّا قرأ الرُّقعة؛ زجر نفسه، وقال: أليس امرأةٌ تكون أشجع منك؟ ثمَّ تاب،

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧).

(٢) في ذم الهوىٰ (ص ٨١).

ولبس مدرعةً من الصُّوف، والتجأ إلىٰ الحرم، فبينا هو في الطَّواف يومًا؛ وإذا بتلك الجارية عليها جبَّة من صوفٍ، فقالت له: ما أليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله، وأُحبَّه، والآن فقد شغلني حبُّه عن حبِّ غيره، فقالت له: أحسنت! والله ما قلتُ لك هذا إلَّا لاختبارك؛ لأعلم حدَّ ما انتهيت إليه، ثمَّ طافت، وأنشدت:

فطفنا فلاحت في الطواف لوائحٌ ... غنينا بها عن كل مرأى ومسمع

وقال الحسن بن زيد[1]: وَلِيَنَا بديار مصر رجلٌ، فوجد علىٰ بعض عُمَّاله، فحبسه، وقيَّده، فأشرفت عليه ابنةُ الوالي، فهويته، فكتبت إليه:

أيُّها الرَّامي بعينيه ... وفي الطَّرف الحتُوف

إن تُرِدْ وصلًا فقد أمْـ ... ـكَنَك الظَّبْيُ الألوفُ

فأجابها الفتىٰ:

إن تريني زاني العيـ ... ـنين فالفرجُ عفيف

ليس إلَّا النظر الفا ... ترُ والشِّعْر الظَّريف

فكتبت إليه:

قد أردناك فألفيـ ... ـناكَ إنسانًا عفيفا

فتأبَّيت فلا زِلـ ... ـتَ لقيديك حليفا

---

(١) أخرج عنه ابن الجوزي (ص ٢٦٧ - ٢٦٨).

فكتب إليها:

مــــا تـأبَّيـــــتُ لأنِّـــــي كــنـــتُ لـلـظـبـي عـيـوفـا
غيـــر أنِّـــي خفـــت ربًّـــا كـــان بـــي بـــرًّا لـطـيـفـا

فذاع الشِّعر، وبلغت القصَّة الواليَ، فدعا به، فزوَّجه إيَّاها، ودفعها إليه.

وذُكر[1]: أنَّ رجلاً أحبَّ امرأةً، وأحبَّته، فاجتمعا، فراودته المرأة عن نفسه، فقال: إنَّ أجلي ليس بيدي، وأجلك ليس بيدك، فربما كان الأجل قد دنا، فنلقىٰ الله عاصيين! فقالت: صدقتَ. فتابا، وحسنت حالهما، وتزوجت به.

قال ميمون بن مهران[2]: الذكر ذكران: فذكر الله ﷻ باللسان حسن، وأفضل منه أن تذكر الله ﷻ عندما تُشرِف علىٰ معاصيه.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي (ص ٢٦٨).

(٢) أخرج عنه ابن الجوزي (ص ٢٤٤).

الباب الثامن والعشرون
فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذَّة الوصال الحرام

ص: ٦١٧

هذا بابٌ إنَّما يدخل منه رجلان: أحدهما: من تمكَّن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعدَّ الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنىٰ الفوتين، واختارَ أسهل العقوبتين. والثاني: رجلٌ غلب عقله علىٰ هواه، فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ.

وقد جمع الله ﷻ ليوسف الصِّدِّيق - صلواتُ الله وسلامه عليه - بين الأمرين، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن علىٰ ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٢ - ٣٣] فاختار السِّجن علىٰ الفاحشة، ثمَّ تبرأ إلىٰ الله من حوله وقوَّته، وأخبر أنَّ ذلك ليس إلاَّ بمعونة الله له، وتوفيقه، وتأييده، لا من نفسه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

فلا يركن العبد إلى نفسه، وصبره، وحاله، وعفَّته، ومتى ركن إلى ذلك تخلَّت عنه عصمة الله، وأحاط به الخذلان. وقد قال تعالى لأكرم الخلق عليه، وأحبِّهم إليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ولهذا كان من دعائه: «يا مقلِّب القلوب! ثبِّت قلبي على دينك»[١]، وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلِّب القلوب!»[٢]. كيف وهو الَّذي أُنزِل عليه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وابن ماجه (٣٨٣٤). وصححه الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧، ٦٦٢٨، ٧٣٩١).

وقد جرت سنَّةُ الله تعالىٰ في خلقه: أنَّ من آثر الألم العاجل علىٰ الوصال الحرام؛ أعقبه الله ذلك في الدنيا المسرَّة التامَّة، وإن هلك؛ فالفوز العظيم، والله تعالىٰ لا يضيع ما يتحمل عبده لأجله.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله ﷻ: «بعيني ما يتحمَّل المتحمِّلون من أجلي». وكلُّ من خرج عن شيءٍ منه لله؛ حفظه الله عليه، أو أعاضه الله ما هو أجلّ منه، ولهذا لما خرج الشُّهداء عن نفوسهم لله؛ جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدان طير خضرٍ، جعل الله أرواحهم فيها تسرح في الجنَّة حيث شاءت، وتأوي إلىٰ قناديل معلَّقة بالعرش، ولمَّا تركوا مساكنهم له؛ عوَّضهم مساكنَ طيبةً في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم.

وقال حُصَين بن عبد الرحمن[1]: بلغني أنَّ فتًىٰ من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلَّها مع عمر بن الخطاب ﷺ وكان عمر يتفقَّده إذا غاب، فعشقته امرأةٌ من أهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نسائها، فقالت: أنا أحتال لك في إدخاله عليك، فقعدت له في الطريق، فلمَّا مرَّ بها قالت له: إنِّي امرأةٌ كبيرةُ السنِّ، ولي شاةٌ ولا أستطيع أن أحلبها، فلو دخلت، فحلبتها لي - وكانوا أرغب شيءٍ في الخير - فدخل، فلم يرَ شاةً، فقالت: اجلس حتىٰ آتيك بها، فإذا المرأة قد طلعت، فلمَّا رأىٰ ذلك، عمدَ إلىٰ محراب في البيت، فقعد فيه، فأرادته عن نفسه، فأبىٰ، وقال: اتقي الله أيتها المرأة! فجعلت لا تكفُّ عنه، ولا تلتفت إلىٰ قوله. فلما أبىٰ عليها؛ صاحت عليه، فجاؤوا، فقالت: إنَّ هذا دخل عليَّ يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه، وجعلوا يضربونه، وأوثقوه، فلمَّا صلَّىٰ عمر الغداة فقده، فبينا هو كذلك؛ إذ جاؤوا به في

---

(١) أخرج عنه ابن الجوزي (ص ٢٥٣ - ٢٥٤).

وثاق، فلمَّا رآه عمر قال: اللَّهم لا تُخلف ظنِّي به. قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأةٌ بالليل، فجئنا، فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه، وأوثقناه! فقال له عمر ﷺ: اصدقني! فأخبره بالقصَّة علىٰ وجهها. فقال له عمر ﷺ: أتعرف العجوز؟ فقال: نعم، إن رأيتُها عرفتُها، فأرسل عمر إلىٰ نساء جيرانها، وعجائزهنَّ، فجاء بهنَّ، فعرضهنَّ، فلم يعرفها فيهنَّ، حتىٰ مرَّت به العجوز، فقال: هذه يا أمير المؤمنين! فرفع عمر عليها الدِّرَّةَ، وقال: اصدُقيني، فقصَّت عليه القصَّة، كما قصَّها الفتىٰ، فقال عمر: الحمدُ لله الَّذي جعل فينا شبيه يوسف.

وقال جابر بن نوح[1]: كنت بالمدينة جالسًا عند رجلٍ في حاجةٍ، فمرَّ بنا شيخٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثياب، فقام إليه ذلك الرَّجل، فسلَّم عليه، وقال: يا أبا محمد! أسأل الله أن يُعْظمَ أجرك، وأن يربطَ علىٰ قلبك بالصَّبر، فقال الشَّيخ:

وكان يميني في الوغى ومساعدي ... فأصبحت قد خانت يميني ذراعها

وقد صرت حيرانًا من الثُّكل تائهًا ... أخا كَلفٍ ضاقَت عليَّ رباعُها

فقال له الرجل: أبشر؛ فإنَّ الصبر مُعوَّل المؤمن، وإنِّي لأرجو ألَّا يحرمك الله الأجر علىٰ مصيبتك! فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجلٌ منَّا من الأنصار. فقلت: وما قصَّته؟ فقال: أصيب بابنه، وكان به بارًّا، قد كفاه جميعَ ما يعنيه، وميتته عَجَبٌ! قلت: وما كانت؟ قال: أحبَّته امرأةٌ، فأرسلت إليه تشكو حبَّه، وتسأله الزِّيارة، وكان لها زوج، فألحَّت عليه، فأفشىٰ ذلك إلىٰ صديقٍ له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك، فوعظها، وزجرها رجوتُ أن تكُفَّ عنك، قال: فأمسك، وأرسلت إليه إمَّا

---

(١) أخرج عنه السراج في مصارع العشاق (٢/ ٥٤، ٥٦).

أن تزورني، وإمَّا أن أزورك، فأبىٰ، فلمَّا يئست منه؛ ذهبت إلىٰ امرأةٍ كانت تعمل السِّحْر، فجعلت لها الرَّغائب في تهييجه، فعملت لها في ذلك، فبينا هو ذات ليلةٍ مع أبيه؛ إذ خطر ذكرُها بقلبه، وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه، واختلط، فقام مسرعًا، فصلىٰ، واستعاذ، والأمر يشتدُّ، فقال: يا أبت! أدركني بقيدٍ. فقال: يا بنيَّ ما قصَّتُك؟ فحدَّثه بالقصَّة، فقام، وقيَّده، وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب، ويخور، كما يخور الثَّور، ثمَّ هدأ، فإذا هو ميِّتٌ، والدَّمُ يسيل من منخره.

وأحبَّ رجل جاريةً من العرب، وكانت ذات عقل وأدب، فما زال يحتال في أمرها حتَّىٰ اجتمع معها في ليلةٍ مظلمة شديدة السَّواد، فحادثها ساعة، ثمَّ دعته نفسه إليها، فقال: يا هذه! قد طال شوقي إليك! قالت: وأنا كذلك! فقال: هذا الليل قد ذهب، والصُّبح قد اقترب، قالت: هكذا تفنىٰ الشهوات، وتنقطع اللَّذَّات! فقال: فما لو دنوتِ منِّي، فقالت: هيهات! أخاف البعد من الله. قال: فما الَّذي دعاك إلىٰ الحضور معي؟ قالت: شِقوتي، وبلائي! قال: فمتىٰ أراك؟ قالت: ما أنساك! وأمَّا الاجتماع معك فما أراه يكون. ثمَّ تولَّت. قال: فاستحييت ممَّا سمعت منها، وأنشد:

توقَّت عذابًا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تُعذَّبا
وقالت مقالًا كدتُ من شدَّة الحَيَا ... أهيمُ على وجهي حيًا وتعجُّبا
ألا أُفِّ للحبِّ الذي يورث العَمَى ... ويورد نارًا لا تملُّ التَّلهُّبا
فأقبل عودي فوق بدئي مفكِّرًا ... وقد زال عن قلبي العمى فتسرَّبا

الباب التَّاسع والعشرون
في ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى

ص: ٦٢٩

قد تقدَّم ذكرُ الآيات في ذلك، وبعض ما ورد في السنَّة.

الهوىٰ: ميلُ الطبع إلىٰ ما يلائمه. وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه. فإنَّه لولا ميله إلىٰ المطعم، والمشرب، والمنكح؛ ما أكل، ولا شرب، ولا نكح. فالهوىٰ مستحثٌّ له لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوىٰ مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أنَّ الغضب لا يُذَمُّ مطلقًا، ولا يحمد مطلقًا، وإنما يُذَمُّ المفرط من النوعين، وهو ما زاد علىٰ جلب المصالح، ودفع المضار.

ولمَّا كان الغالب ممن يطيع هواه وشهوته وغضبه: أنَّه لا يقف فيه علىٰ حدِّ المنتفع به؛ أُطلِق ذمُّ الهوىٰ، والشهوة، والغضب؛ لعموم غلبة الضَّرر؛ لأنَّه يندر من يقصد العدل في ذلك، ويقف عنده، كما أنَّه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بدَّ من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرص النَّاصح علىٰ تعديل قُوَىٰ الشَّهوة والغضب من كلِّ وجهٍ، كحرص الطَّبيب علىٰ تعديل المزاج من كلِّ وجه، وهذا أمرٌ يتعذَّر وجودُه إلَّا في حقِّ أفرادٍ من العالم، فلذلك لم يذكر الله الهوىٰ في كتابه إلَّا ذمَّه، وكذلك في السُّنَّة لم يجئ إلَّا مذمومًا، إلَّا ما جاء منه مُقَيَّدًا، كقوله ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدكم حتَّىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[1].

وقد قيل: الهوىٰ كمينٌ لا يُؤْمَن. قال الشَّعْبي: وسمِّي هوًىٰ؛ لأنَّه يهوي بصاحبه،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦).

ومطلقُه يدعو إلىٰ اللَّذَّة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحثُّ علىٰ نيل الشَّهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا، فلِلدُّنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة، والهوىٰ يعمي صاحبه عن ملاحظتها، والمروءة، والدِّين، والعقل ينهىٰ عن لذَّة تعقبُ ألمًا، وشهوة تورثُ ندمًا، فكلٌّ منها يقول للنَّفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي! والطَّاعة لمن غلب، ألا ترىٰ أنَّ الطفل يُؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلىٰ التَّلف؛ لضعف ناهي العقل عنده؟! ومن لا دين له يؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلىٰ هلاكه في الآخرة؛ لضعف ناهي الدِّين، ومن لا مُروءَة له يُؤثر ما يهواه وإن ثَلَمَ مُرُوءته، أو هدمها؛ لضعف ناهي المروءة، فأين هذا من قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: لو علمتُ أنَّ الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته.

ولمَّا امتُحِنَ المكلَّف بالهوىٰ من بين سائر البهائم، وكان كل وقت يحدث عليه حوادث؛ جعل فيها حاكمان: حاكم العقل، وحاكم الدِّين؛ وأُمِرَ أن يرفع حوادثَ الهوىٰ دائمًا إلىٰ هذين الحاكمين، وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرَّن علىٰ دفع الهوىٰ المأمون العواقب؛ ليستمرَّ بذلك علىٰ ترك ما تؤذي عواقبُه.

وليعلم اللَّبيبُ أن مدمني الشَّهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنَّها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الَّذي لا بُدَّ لهم منه، ولهذا ترىٰ مدمن الخمر والجماع لا يلتذُّ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرًا في الأحيان، غير أنَّ العادة مقتضيةٌ ذلك، فيلقي نفسه في المهالك؛ لينل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رَيْنُ الهوىٰ لعلم أنَّه قد سعىٰ من حيث قدَّر السَّعادة، واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح، وألم من حيث أراد اللَّذَّة. فهو كالطائر المخدوع بحبَّة الفخ، لا هو يأكل الحبَّة، ولا هو يخلُص ممَّا وقع فيه.

فإن قيل: فكيف يتخلَّص من هذا مَن قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التَّخلُّص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدها: بعزيمة حرٍّ يغار لنفسه وعليها.

الثاني: جُرْعةُ صبر تصبر نفسه علىٰ مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوَّة نفس تشجِّعه علىٰ شرب تلك الجُرعة، والشَّجاعة كلُّها صبر ساعةٍ، وخير عيشٍ أدركه العبد بصبره.

الرَّابع: ملاحظته حسنَ موقع العاقبة، والشفاء بتلك الجُرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزَّائد علىٰ لذَّة طاعة هواه.

السَّادس: إبقاؤه علىٰ منزلته عند الله تعالىٰ، وفي قلوب عباده، وهو خيرٌ وأنفع له من لذَّة مواقعة الهوىٰ.

السَّابع: إيثارُه لذَّةَ العفَّة، وعزَّتها، وحلاوتها علىٰ لذَّة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوِّه، وقهره له، وردِّه خاسئًا بغيظه، وغمِّه، وهمِّه حيث لم ينل منه أُمنيَّته، والله تعالىٰ يحبُّ من عبده أن يُراغم عدوَّه، ويغيظه، كما قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: مكانًا يراغم فيه أعداء الله. وعلامة المحبَّة الصَّادقة مغايظةُ أعداء المحبوب، ومراغمتُهم.

التاسع: التفكر في أنَّه لم يخلق للهوىٰ، وإنَّما هُيِّئ لأمرٍ عظيم، لا يناله إلَّا بمعصيته للهوىٰ، كما قيل:

قـد هيَّـؤوك لأمـرٍ لـو فطنـتَ له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

العاشر: أن يتفكَّر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقلَه، ودينَه يُخبرانه بأنَّه ليس بشيءٍ. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا أعجب أحدكم امرأةٌ؛ فليذكر مناتنها»، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين:

لـو فكَّـر العاشِـقُ في منتهـى حُسـنِ الَّـذي يَسبيه لـم يَسْبِهِ

لأنَّ ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة اللازمة، والشاعر أحال علىٰ أمر متأخر.

الحادي عشر: أن يأنفَ لنفسه من ذُلِّ طاعة الهوىٰ، فإنَّه ما أطاع أحدٌ هواه قطُّ إلَّا ووجد في نفسه ذُلًّا، ولا يغترَّ بصولة أتباع الهوىٰ، وكبرهم، فهم أذلُّ النَّاس بواطن، قد جمعوا بين فضيلتي الكبر، والذُّلِّ.

الثاني عشر: أن يُوازن بين سلامة الدِّين، والعرض، والمال، والجاه، ونيل اللَّذَّة المطلوبة، فإنَّه لا يجد بينهما نسبةً ألبتَّة، فليعلم أنَّه من أسفه النَّاس ببيعه هذا بهذا.

الثالث عشر: أن يعلم أنَّ الشيطان ليس له مدخلٌ علىٰ ابن آدم إلَّا من باب هواه، فإنَّه يطيف به، من أين يدخل عليه، حتَّىٰ يفسد عليه قلبَه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلَّا من باب الهوىٰ، فيسري معه سرَيان السُّمِّ في الأعضاء.

الرابع عشر: أنَّ الله ﷻ شبَّه أتباع الهوىٰ بأخسِّ الحيوانات صورةً ومعنًىٰ، فشبَّههم بالكلب تارةً كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحمر تارة كقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠ - ٥١] وقلب صورهم إلىٰ صورة القِردة والخنازير تارةً.

الخامس عشر: أنَّ الله ﷻ جعل متَّبع الهوىٰ بمنزلة عابد الوثن، فقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] في موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافق، لا يهوىٰ شيئًا إلَّا ركبه. وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوىٰ شيئًا إلَّا فعله.

السادس عشر: أنَّ الهوىٰ هو حِظار جهنَّم المحيطُ بها حولها، فمن وقع فيه؛ وقع فيها، كما في الصحيحين[1] عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهواتِ**».

وفي الترمذي[2] من حديث أبي هريرة ﷺ - يرفعه: «**لمَّا خلق الله الجنَّة؛ أرسل إليها جبريل، فقال: انظر إليها، وإلىٰ ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء، فنظر إليها، وإلىٰ ما أعدَّه الله لأهلها فيها، فرجع إليها، وقال: وعزَّتك لا يسمع بها أحدٌ من عبادك إلَّا دخلها، فأمرَ بها، فحجبت بالمكاره، وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع، فإذا هي قد حُجِبَت بالمكاره، فقال: وعزَّتك! لقد خشيتُ ألَّا يدخلها أحد قال: اذهب إلىٰ النَّار، فانظر إليها وإلىٰ ما أعددت لأهلها فيها، فجاء، فنظر إليها وإلىٰ ما أعدَّ الله لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه فقال: وعزَّتك! لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، فأمر بها، فحُفَّت بالشَّهوات، فقال: ارجع، فانظر إليها، فرجع إليها، فإذا هي قد حُفَّت بالشَّهوات، فرجع إليها وقال: وعزَّتك! لقد خشيت ألَّا ينجو منها أحد**». قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيح.

---

(١) البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٦٠)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والنسائي (٧/ ٣).

السَّابع عشر: أنَّ مخالفة الهوىٰ تورث العبد قوَّةً في بدنه، وقلبه، ولسانه. قال بعض السلف: الغالب لهواه أشدُّ من الَّذي يفتح المدينة وحدَه. وفي الحديث الصَّحيح[١] المرفوع: «**ليس الشديد بالصُّرعة ولكن الشديد الَّذي يملك نفسه عند الغضب**» وكلَّما تمرَّن علىٰ مخالفة هواه؛ اكتسب قوَّةً إلىٰ قوَّته.

الثامن عشر: أنَّ الله ﷻ جعل الخطأ، واتِّباع الهوىٰ قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوىٰ قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران، لا تدري أيهما أرشدُ؛ فخالف أقربهما من هواك، فإنَّ أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوىٰ.

التاسع عشر: أنَّ الهوىٰ داءٌ، ودواؤه مخالفته، كما قال بعض العارفين: إن شئت؛ أخبرتك بدائك، وإن شئت؛ أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك، ومخالفته.

وقال بشر الحافي ﵀: «البلاء كلُّه في هواك، والشِّفاء كله في مخالفتك إيَّاه».

العشرون: أنَّ جهاد الهوىٰ إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار؛ فليس بدونه. قال رجلٌ للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: يا أبا سعيد! أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك، وسمعت شيخنا يقول: جهادُ النفس والهوىٰ أصلُ جهاد الكفَّار والمنافقين، فإنَّه لا يقدر علىٰ جهادهم حتىٰ يجاهد نفسَه وهواه أولًا، حتَّىٰ يخرج إليهم.

الحادي والعشرون: أنَّ اتباع الهوىٰ يغلقُ عن العبد أبو ابَ التَّوفيق، ويفتح عليه أبوابَ الخِذْلان، فتراه يَلْهج بأنَّ الله لو وفَّق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ علىٰ نفسه طُرُق التوفيق باتباعه هواه. قال الفُضيل بن عياض: من استحوذَ عليه الهوىٰ واتِّباع الشَّهواتِ؛ انقطعت عنه موارد التَّوفيق.

---

(١) البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

وكان بعض السَّلف يطوفُ بالبيت، فنظر إلىٰ امرأةٍ جميلةٍ، فمشىٰ إلىٰ جانبها، ثمَّ قال:

أهوى هوى الدِّين واللَّذَّاتُ تُعجبني فكيفَ لي بهوى اللَّذَّات والدِّين؟

فقالت: دعْ أحدَهما؛ تنل الآخر.

الثاني والعشرون: أنَّ من نصر هواه فسد عليه رأيه وعقله؛ لأنَّه قد خان الله في عقله، فأفسده عليه، وهذا شأنه سبحانه في كلِّ من خانه في أمرٍ من الأمور، فإنَّه يفسده عليه.

قال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: يا فلان! إذا نُصر الهوىٰ؛ ذهب الرَّأي.

وسمعتُ رجلًا يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدَّراهم؛ سلبه الله معرفة النَّقد - أو قال: نسيه - فقال الشيخ: هكذا من خان الله ورسوله في مسائل العلم.

الثالث والعشرون: أنَّ التَّوحيد واتِّباع الهوىٰ متضادَّان، فإنَّ الهوىٰ صنمٌ، ولكلِّ عبد صنمٌ في قلبه بحسب هواه، وإنَّما بعث الله رسله بكسر الأصنام، وعبادته وحده لا شريك له، وليس مرادُ الله - سبحانه - كسرَ الأصنام المجسَّدة، وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أوَّلًا.

قال الحسن بن علي المطَّوِّعي: صنمُ كلِّ إنسانٍ هواه، فمن كسره بالمخالفة؛ استحقَّ اسمَ الفُتُوَّة. وتأمَّل قولَ الخليل لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢] كيف تجده مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب، ويعكف عليها، ويعبدها من دون الله، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

وقال ابن المبارك:

ومـن البـلاء وللبـلاء علامـةٌ ... أَلَّا يُـرَى لـك عـن هـواك نُـزُوعُ

العَبْـد عبـد النَّفْـسِ في شَـهَواتِها ... والـحُـرُّ يـشـبَـع تـارةً ويـجـوعُ

الرابع والعشرون: أنَّ مخالفة الهوىٰ تُقيم العبد في مقام من لو أقسم علىٰ الله؛ لأبرَّه، فيقضي له من الحوائج أضعافَ أضعافِ ما فاته من هواه، فهو كَمَن رَغِبَ عن بعرة، فأُعطيَ عوضها دُرَّةً. ومُتَّبِعُ الهوىٰ يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء مالا نسبة لِـمَا ظَفِرَ به من هواه البتَّةَ. فتأمَّل انبساط يد يوسف الصِّديق - عليه الصلاة والسلام - ولسانه، وقدمِه، ونفسِه بعد خروجه من السِّجن لمَّا قبض نفسَه عن الحرام.

قال عبد الرحمن بن مهدي[1]: رأيت سفيان الثوري ﵀ في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلَّا أني وضعت في لحدي حتىٰ وقفت بين يدي الله ﵎ فحاسبني حسابًا يسيرًا، ثمَّ أمر بي إلىٰ الجنَّة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها، لا أسمع حِسًّا ولا حركةً؛ إذ سمعتُ قائلًا يقول: سفيانُ بن سعيد؟! فقلتُ: سفيان بن سعيد! فقال: تحفظ أنَّك آثرت الله ﷻ علىٰ هواك يومًا؟ قلتُ: إي والله! فأخذني النّثار من كلِّ جانب.

الخامس والعشرون: أنَّك إذا تأمَّلت السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله ﷻ في ظلِّ عرشه يوم لا ظلَّ إلَّا ظله؛ وجدتهم إنَّما نالوا ذلك الظلَّ بمخالفة الهوىٰ، فإنَّ الإمام المُسلَّط القادر لا يتمكَّن من العدل إلَّا بمخالفة هواه. فإن الشَّابَّ المؤثرَ لعبادة

---

(١) ذم الهوىٰ (ص ٥٦).

ربه علىٰ داعي شبابه لولا مخالفةُ هواه؛ لم يقدر علىٰ ذلك، والرَّجل الَّذي تعلق قلبه بالمساجد إنَّما حمله علىٰ ذلك مخالفةُ الهوىٰ الدَّاعي له إلىٰ أماكن اللَّذَّات، والمُتَصَدِّق المُخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه؛ لم يقدر علىٰ ذلك. والَّذي دعته المرأة الجميلة الشَّريفةُ، فخاف الله ﷻ، وخالف هواه، والَّذي ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنَّما أوصله إلىٰ ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لِحَرِّ الموقف وعَرَقه وشدته سبيلٌ عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوىٰ قد بلغ منهم الحَرُّ والعَرق كُلَّ مبلغٍ، وهم منتظرون بعد هذا دخول سجن الهوىٰ. فالله ﷻ المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمَّارة بالسُّوء، وأن يجعل هوانا تبعًا لِمَا يحبُّه ويرضاه، إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قدير.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	١١
فصل: ثمرة العقل هو النظر في العواقب	١٤
فصل: العبد لا ينفك عن الهوىٰ ما دام حيا	١٦
فصل: فائدة كتاب المؤلف لجميع طبقات الناس	٢١
الباب الأول في أسماء المحبة	٢٣
الباب الثاني في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها	٢٤
فصل: معنىٰ المحبة	٢٥
فصل: معنىٰ العلاقة	٢٦
فصل: معنىٰ الهوىٰ	٢٦
فصل: معنىٰ الصبوة	٢٧
فصل: معنىٰ الصبابة	٢٧
فصل: معنىٰ الشغف	٢٧
فصل: معنىٰ الوجد	٢٨
فصل: معنىٰ الكلف	٢٨
فصل: معنىٰ التتيم	٢٨

الموضوع	رقم الصفحة
فصل: معنىٰ العشق	٢٨
فصل: معنىٰ الشوق	٣٠
فصل: هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟	٣١
فصل: معنىٰ الغمرات	٣١
فصل: معنىٰ الاكتئاب	٣٢
فصل: معنىٰ الوصب	٣٢
فصل: معنىٰ الحزن	٣٢
فصل: معنىٰ الود	٣٣
فصل: معنىٰ الخلة	٣٤
فصل: معنىٰ الغرام	٣٦
فصل: معنىٰ الهيام	٣٦
فصل: معنىٰ الوله	٣٦
فصل: معنىٰ التعبد	٣٧
الباب الثالث في نسبة هذه الأسماء بعضها إلىٰ بعض هل هي بالترادف أو التباين؟	٣٩
الباب الرابع في أنَّ العالمَ العُلويَّ والسُّفليَّ إنَّما وُجد بالمحبَّة ولأجلها، وأنَّ حركاتِ الأفلاكِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ وحركات الملائكةِ والحيواناتِ، وحركةَ كلِّ متحركٍ إنَّما وُجدت بسبب الحبِّ	٤١
الباب الخامس في دَواعي المحبَّة ومتعلَّقها	٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
فصل: هل الوصال يفسد العشق؟	٥٢
فصل: داعي الحب هو الظاهر أم الباطن؟	٥٤
الباب السادس في أحكام النظر، وغائلته، وما يجني علىٰ صاحبه	٥٥
فصل: مقصد الشارع في تحريم النظر	٥٨
فصل: فوائد غض البصر	٥٩
الباب السابع في ذكر مناظرةٍ بين القلب والعين، ولوم كلٍّ منهما صاحبه، والحكم بينهما	٦٤
الباب الثامن في ذكر الشُّبَهِ الَّتي احتجَّ بها من أباح النظر إلىٰ من لا يحلُّ له الاستمتاع به، وأباح عشْقَهُ	٦٨
الباب التاسع في الجواب عمَّا احتجَّت به هذه الطَّائفة، وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج	٧٠
فصل: هل أجاز الشافعي للعاشق الضم؟	٧٢
الباب العاشر في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام النَّاس فيه	٧٤
الباب الحادي عشر في العشق: هل هو اضطراريٌّ خارجٌ عن الاختيار أو أمرٌ اختياريٌّ؟ واختلاف النَّاس في ذلك، وذكر الصَّواب فيه	٧٦
الباب الثاني عشر في سَكْرَةِ العُشَّاق	٨٠
فصل: حب الصور من أسباب السكر	٨٢
فصل: سماع الغناء من أقوىٰ أسباب السكر	٨٣
الباب الثالث عشر في أنَّ اللذَّة تابعةٌ لِلْمَحَبَّة في الكمال والنُّقصان	٨٤

الموضوع	رقم الصفحة
فصل: أعظم لذة هي لذة الدار الآخرة ونعيمها	٨٥
فصل: اللذة الموصلة إلىٰ رضوان الله تعالىٰ محبوبة مرضية	٨٦
فصل: اللذة الحقيقة لا يعقبها ألم	٩٠
فصل: اللذة التي لا توصل لدار القرار باطلة	٩٠
فصل: أقسام اللذات ثلاثة	٩٢
الباب الرابع عشر فيمنْ مدح العِشْقَ وتمنَّاه، وَغَبَطَ صاحبَه علىٰ ما أُوتِيَهُ مِنْ مُناه	٩٧
الباب الخامس عشر فيمن ذمَّ العِشْقَ، وتبرَّم به، وما احتجَّ به كلُّ فريقٍ علىٰ صحَّة مذهبه	١٠١
الباب السَّادس عشر في الحُكْم بين الفريقين وفصل النِّزاع بين الطائفتين	١٠٩
الباب السابع عشر في استحباب تخيُّر الصورة الجميلة للوِصال الذي يحبُّه الله ورسوله	١١٣
الباب الثَّامن عشر في أنَّ دواء المُحبِّين في كمال الوصال الذي أباحه ربُّ العالمين	١١٦
الباب التاسع عشر في ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس إليه علىٰ كلِّ حال	١٢١
فصل: الجمال الظاهر هي الزينة التي خص الله تعالىٰ بها بعض خلقه	١٢٢
فصل: الجمال الباطن من أعظم نعم الله علىٰ عبده	١٢٢
فصل: حقيقة الجمال لا يدرك إلا بالوصف	١٢٤

الموضوع	رقم الصفحة
فصل: صفات الحور العين	١٢٧
الباب العشرون في علامات المحبَّة وشواهدها	١٣٦
الباب الحادي والعشرون في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التَّشريك بينه وبين غيره فيه	١٥٧
الباب الثاني والعشرون في غَيْرَةِ المُحبِّين علىٰ أحبابهم	١٦١
فصل: الغيرة علىٰ المحبوب نوعان	١٦٢
فصل: الغيرة المحمودة والمذمومة	١٦٣
فصل: غيرة الله تعالىٰ علىٰ قلب عبده	١٦٤
فصل: غيرة الله تعالىٰ علىٰ توحيده	١٦٥
فصل: الغيرة علىٰ دقيق العلم	١٦٦
فصل: من أقسام الغيرة المذمومة	١٦٧
فصل: من أعجب الغيرة غيرة المحبُّ من نفسه	١٦٧
الباب الثالث والعشرون في عفاف المُحبِّين مع أحبابهم	١٦٩
فصل: فضل العفة عن المحارم	١٧١
الباب الرابع والعشرون في ارتكاب سبيل الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام	١٧٩
فصل: من مفاسد الزنىٰ	١٨٣
فصل: من مفاسد اللواط وعقوبته	١٨٦
فصل: عقوبة الفاحشة مع ذي رحم محرم	١٩١



الموضوع	رقم الصفحة
الباب الخامس والعشرون في رحمة المُحبين، والشفاعة لهم إلىٰ أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين	١٩٢
الباب السادس والعشرون في ترك المحبين أدنىٰ المحبوبَينِ رغبةً في أعلاهما	١٩٧
فصل: الجزاء من جنس العمل	٢١٩
الباب السابع والعشرون فيمن ترك محبوبه حرامًا، فبُدِّل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه	٢٢١
الباب الثامن والعشرون فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام علىٰ لذَّة الوصال الحرام	٢٢٥
الباب التَّاسع والعشرون في ذم الهوىٰ وما في مخالفته من نيل المنىٰ	٢٢٩
فهرس الموضوعات	٢٣٩
فهرس الفوائد	٢٤٥



فهرس الفوائد

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبقَ إلىٰ جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاةً، ولا صيامًا، ولا حجًّا، ولا اعتمارًا، ولكنهم عقلوا عن الله مواعظَه، فوجِلَتْ منه قلوبُهم، واطمأنتْ إليه نفوسُهم، وَخَشَعَتْ له جوارحُهم، ففاقوا الناسَ بطيب المنزلة، وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة.	١٥	١٣
وقيل لعبد الله بن المبارك: ما أفضلُ ما أُعطِيَ الرجلُ بعد الإسلام؟ قال: غريزةُ عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل. قيل: فإن لم يكنْ؟ قال: موتٌ عاجل. وفي ذلك قيل: ما وهبَ الله لامرئٍ هِبَةً*هما جمالُ الفتىٰ فإنْ فُقِدا أحسنَ مِن عَقْلِه ومِن أَدَبِهْ*فَفَقْدُه للحَياةِ أجملُ بِهْ	١٦	١٦-١٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فما حَرَّم الله علىٰ عباده شيئًا إلا عوَّضهم خيرًا منه، كما حَرَّم عليهم الاستقسامَ بالأزلام، وعوَّضهم منه دعاءَ الاستخارة، وحرَّم عليهم الرِّبا، وعوَّضهم منه التجارةَ الرابحة، وحرَّم عليهم القِمار، وأعاضَهم منه أكلَ المال بالمسابقة النافعة في الدِّين، بالخيل والإبل والسِّهام، وحرَّم عليهم الحريرَ، وأعاضَهم منه أنواعَ الملابس الفاخرة من الصُّوف والكَتَّانِ والقطن، وحرَّمَ عليهم الزِّنا واللِّواط، وأعاضَهم منهما بالنكاح والتَّسَرِّي بصنوف النساء الحِسان، وحرَّم عليهم شُربَ المسكر، وأعاضَهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرَّمَ عليهم سماعَ آلاتِ اللهو من المَعَازف والمَثاني، وأعاضَهم عنها بسماع القرآن العظيم والسَّبع المَثاني، وحرَّم عليهم الخبائثَ من المطعومات، وأعاضَهم عنها بالمطاعم الطيبات. ومن تلمَّحَ هذا وتأمَّلَه هانَ عليه تركُ الهوىٰ المُرْدِيْ، واعتاضَ عنه بالنافع المُجْدِي، وعَرفَ حكمةَ الله ورحمته وتمامَ نعمته علىٰ عباده فيما أمرَهم به ونهاهم عنه وأباحه لهم؟	١٧	١٨-١٩

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
والغَمْرَةُ: ما يَغْمُرُ القلبَ من حبٍّ أو سُكرٍ أو غفلة. قال الله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ - ١١] أي: في غفلة قد غَمَرَت قلوبهم. وقال تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].	٣١	٥٥
فاستعاذَ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان. فالهمُّ والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضىٰ فهو الحزن، وإن كان لما يُستقبل فهو الهمُّ. والعجز والكسل قرينان، فإنَّ تخلُّفَ العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل. والجبنُ والبخل قرينان، فإنَّ الرجل يُراد منه النفعُ بماله أو ببدنه، فالجبَان لا يَنفعُ ببدنه، والبخيلُ لا يَنفعُ بماله. وضَلَعُ الدَّين وَغَلَبَة الرجال قرينان، فإنَّ قهرَ الناس نوعان: نوعٌ بحقٍّ، فهو ضَلَع الدَّين، ونوعٌ بباطلٍ، فهو غَلَبَةُ الرِّجال.	٣٣	٦١- ٦٢
ولمَّا كانت الخُلَّة مرتبةً لا تقبل المشاركة؛ امتحنَ الله سبحانه إبراهيمَ الخليل بذبح ولده لمَّا أخذَ شعبةً من قلبه، فأرادَ سبحانه أن يُخْلِصَ تلك الشعبة له، ولا تكون لغيره، فامتحنَه بذبح ولده، والمراد ذَبحُه من قلبه، لا ذَبْحُه بالمُدْيَة، فلمَّا أسلما لأمر الله، وقدَّم محبَّة الله تعالىٰ عَلَىٰ محبة الولد؛ خَلَصَ مقام الخُلَّة، وَفُدِيَ الولدُ بالذِّبْح.	٣٥	٧٦- ٧٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وقد ذكرَ الله سبحانه رسولَه بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام التحدِّي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].	٣٧	٨٤
وهو يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحب ظهورَ آثارها في خلقه، فإنَّ ذلك من لوازم كماله، فإنَّه سبحانه وترٌ يُحِبُّ الوتْرَ، جميلٌ يحبُّ الجمالَ، عليمٌ يحبُّ العلماءَ، جوادٌ يحبُّ الأجواد، قويٌّ، والمؤمنُ القويُّ أحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حَيِيٌّ يحبُّ أهل الحياء، وفيٌّ يحبُّ أهلَ الوفاء، شكورٌ يحبُّ الشَّاكرينَ، صادقٌ يحبُّ الصادقين، محسنٌ يحبُّ المحسنين.	٤٤-٤٥	١٠٠
ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيَّةُ العُلْويَّة تعشقُ صفاتِ الكمال بالذَّات، فأحبُّ شيء إليها العلمُ، والشَّجاعةُ، والعفَّةُ، والجودُ، والإحسانُ، والصبر، والثباتُ؛ لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمة الدنيَّة فإنَّها بِمعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات.	٤٨	١٠٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وكثيرٌ من الأجواد يعشقُ الجودَ أعظمَ عِشق، فلا يصبِرُ عنه مع حاجته إلىٰ ما يجودُ به، ولا يقبلُ فيه عَذْلَ عاذلٍ، ولا تأخذُه فيه لومةُ لائم، وأما عشَّاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقِه، وكثيرٌ منهم لايشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.	٤٨-٤٩	١٠٨
وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك، وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلىٰ علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت قويت الطبيعةُ، فدفعتِ المرض؟ فقال: بلىٰ! فقلت له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوىٰ به الطبيعة، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.	٤٩	١٠٩
أنه يُورِثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهر في العين، وفي الوجه والجوارح، كما أنَّ إطلاقَ البصر يُورثه ظلمةً تظهر في وجهه وجوارِحه. ولهذا - والله أعلم - ذكر الله سبحانه أنه النُّور في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وجاءَ الحديثُ مطابقًا لهذا، حتىٰ كأنَّه مشتقٌّ منه، وهو قوله: «النَّظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، فمن غضَّ بصره عن محاسن امرأةٍ أورثَ الله قَلْبَه نُورًا» الحديث.	٦٠-٦١	١٦٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قال شجاع الكَرْماني: مَنْ عَمَر ظاهرَه باتِّباع السُّنَّة، وباطنَه بدوام المُراقبة، وغضَّ بصرَه عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشَّهوات، وأكلَ من الحَلال؛ لم تُخطئ فِراستُه. وكان شجاع لا تُخطئ له فراسة. والله سبحانه يَجزي العبدَ علىٰ عملِهِ بما هو من جنسِه، فمَنْ غضَّ بَصَرَه عن المحارم؛ عوَّضه الله سبحانه إطلاقَ نورِ بَصِيرتِه، فلمَّا حبسَ بصرَه لله؛ أطلق الله له بَصِيرتَه، ومن أطلق بصرَه في المحارمِ؛ حبس الله عنه بَصِيرتَه.	٦١	١٦١
فإنَّه لما كفَّ لذَّتَه، وحبسَ شهوتَه لله، وفيها مسرّةُ نفسه الأمَّارة؛ أعاضَه الله سبحانه مسرَّةً، ولذَّةً أكمل منها، كما قال بعضهم: والله لَلَذَّةُ العفَّة أعظمُ من لذَّة الذنب! ولا ريبَ أنَّ النفسَ إذا خالفت هواها؛ أعقَبها ذلك فرحًا، وسرورًا، ولذةً أكملَ من لذَّة موافقة الهوىٰ بما لا نسبة بينهما. وها هنا يمتاز العقل من الهوىٰ.	٦١-٦٢	١٦٢-١٦٣
فإنَّ النفسَ في هذا الباب لا تَقْنَع بغايةٍ تقفُ عندها، وذلك أنَّ لذَّتَه في الشيءِ الجديد، فصاحبُ الطارف لا يُقْنِعُه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا، وأطيب مخبَرًا، فغضُّ البصر يَسُدُّ عنه هذا الباب؛ الذي عجزَت الملوكُ عن استيفاء أغراضِهم فيه.	٦٢	١٦٣-١٦٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فكلُّ لذَّة أعانتْ علىٰ لَذَّات الدار الآخرة؛ فهي محبوبةٌ مَرْضِيَّةٌ للرَّب تعالىٰ، فصاحبُها يلتذُّ بها من وجهين: من جهة تنعُّمه وقُرَّة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلىٰ مرضاة ربِّه، وإفضائها إلىٰ لذَّةٍ أكمل منها.	٨٦-٨٧	٢٣٦
ولمَّا كانت النفوس الضَّعيفةُ كنفوس النساء والصِّبيان، لا تنقاد إلىٰ أسباب اللذَّة العظمىٰ إلاَّ بإعطائها شيئًا من لذة اللهو واللَّعب، بحيث لو فطمتْ عنه كل الفطام طلبت ما هو شرٌّ لها منه، رخِّص لها من ذلك ما لم يُرخَّصْ فيه لغيرها.	٩١	٢٤٢
أقسامُ اللذّات ثلاثةٌ: لذَّةٌ جُثمانية، ولذة خيالية وَهْمِية، ولذَّةٌ عقليةٌ رُوحانية.	٩٢	٢٤٥
وأمَّا اللذَّة العقليةُ الرُّوحانية: فهي كلذَّةِ المعرفة، والعلم، والاتصاف بصفات الكمال: من الكرم، والجود، والعفَّة، والشَّجاعة، والصبر، والحِلْمِ، والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذَّات، وهو لذَّةُ النَّفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمَّت اللذَّة بذلك إلىٰ لذَّة معرفة الله تعالىٰ، ومحبَّته، وعبادته وحده لا شريك له، والرِّضا به؛ عوضًا من كلِّ شيءٍ - ولا يُتعوَّض بغيره عنه - فصاحبُ هذه اللذَّة في جنَّةٍ عاجلةٍ	٩٣-٩٤	٢٤٦-٢٤٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
نِسْبتُها إلىٰ لذَّاتِ الدنيا، كنسبة لذَّة الجنَّة إلىٰ لذَّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والرُّوح ألذُّ، ولا أطيبُ، ولا أحلىٰ، ولا أنعمُ من محبَّةِ الله، والإقبالِ عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلىٰ لقائه ورؤيته.		
قال بعض العارفين: من قرَّت عينهُ بالله؛ قرَّت به كلُّ عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله؛ تقطَّعت نفسه حسرات علىٰ الدنيا.	٩٤	٢٤٧
وكان بعضُ العارفين يقول: مساكين أهل الدُّنيا، خرجوا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيبَ نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبَّةُ الله، والأنسُ به، والشَّوقُ إلىٰ لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته. وقال آخر: أطيبُ ما في الدُّنيا: معرفتُه، ومحبَّتُه، وألذُّ ما في الآخرة: رؤيتُه، وسماعُ كلامه بلا واسطة. وقال آخر: والله إنَّه ليَمُرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذه الحال إنَّهم لفي عيش طيِّب.	٩٤	٢٤٧
فكلُّ من أحبَّ شيئًا من الأشياء؛ وجد في حبه لذَّة وروحًا، فإذا خلا عن الحُبِّ مطلقًا تعطَّلت النفسُ عن حركتها، وثَقُلت، وكسِلتْ، وفارقها خفةُ النشاط. ولهذا تجد الكُسالىٰ أكثر الناس همًّا، وغمًّا، وحزنًا، ليس لهم فرحٌ، ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النَّشاط، والجدِّ في العمل أيِّ عمل كان	٩٦	٢٥٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر أنَّ ذلك إنما حصل له بإيتاء الربِّ له لا بتحصيله هو. ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ ولم يقل: فسلخناه، بل أضاف الانسلاخ إليه، وعبَّر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة علىٰ تـخلِّيه عنها بالكلِّية، وهذا شأْنُ الكافر.	١٠٧	٢٨٨
و«خيرُ الأمور أوساطها» والأخلاقُ الفاضلة كلُّها وسطٌ بين طرفي إفراطٍ وتفريط، وكذلك الدِّين المستقيم وسطٌ بين انحرافين، وكذلك السُّنَّة وسطٌ بين بِدْعتين، وكذلك الصوابُ في مسائل النِّزاع إذا شئت أن تحظَىٰ به؛ فهو القولُ الوسط بين الطرفين المتباعدين.	١٢٠	٣١٩
ويتعلَّق بهذا قوله تعالىٰ في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١]. فجمَّل ظواهرهم بالنَّضْرة، وبواطنهم بالسُّرور، ومثله قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ -٢٣] فإنه لا شيء أشهىٰ إليهم، وأقرُّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النَّظر إليه، فنضَّر وجوههم بالحسن، ونعَّم قلوبهم بالنظر إليه. وقريبٌ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ فهذا زينة الظاهر، ثم قال: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهرًا	١٢٥	٣٣٦- ٣٣٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
لبواطنهم من كل أذىً. فهذا زينة الباطن، ويشبهه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينةُ الظاهر، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينةُ الباطن		
النفوس ثلاثة: نفسٌ سماويةٌ عُلوية، فمحبتها منصرفةٌ إلىٰ المعارف، واكتساب الفضائل، والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفةٌ بما يقرِّبها من الرفيق الأعلىٰ، وذلك قُوْتُها، وغذاؤُها، ودواؤُها، واشتغالُها بغيره هو داؤُها. ونفسٌ سبعيةٌ غضبيةٌ، فمحبتُها منصرفةٌ إلىٰ القهر، والبغي، والعلوِّ في الأرض، والتكبُّر، والرِّئاسة علىٰ الناس بالباطل، فلذَّتها في ذلك، وشغفُها به. ونفسٌ حيوانيةٌ شهوانيةٌ، فمحبَّتها منصرفةٌ إلىٰ المأْكل، والمشرب، والمنكح.	١٣٦	٣٦٦
ومن الذكر الدالِّ علىٰ صدق المحبة سبقُ ذكر المحبوب إلىٰ قلب المحبِّ ولسانه عند أول يقظته من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه، كما قال قائلهم: آآخرُ شيءٍ أنتِ في كلِّ هجْعةٍ*وأوَّلُ شيءٍ أنتِ وقتَ هُبوبي	١٤١	٣٧٢-٣٧٣

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وأعلىٰ أنواع ذكر الحبيب أن يحبِس المحبُّ لسانه علىٰ ذكره، ثمَّ يحبسُ قلبه علىٰ لسانه، ثم يحبسُ قلبَه ولسانه علىٰ شهودِ مذكوره. وكما أن الذِّكر من نتائج الحبِّ، فالحبُّ أيضًا من نتائج الذكر، فكلٌّ منهما يُثْمِرُ الآخر، وزرعُ المحبَّة إنَّما يُسْقَىٰ بماء الذِّكر، وأفضلُ الذِّكر ما صدر عن المحبَّة.	١٤١	٣٧٣
والمحبُّون ثلاثة أقسام: منهم منْ يُريد من المحبوب، ومنهم من يُريد المحبوبَ، ومنهم من يُريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلىٰ أقسام المحبِّين.	١٤١	٣٧٣-٣٧٤
والزُّهد خمسةُ أقسام: زهدٌ في الدُّنيا، وزهدٌ في النَّفس، وزهدٌ في الجاه والرِّئاسة، وزهدٌ فيما سوىٰ المحبوب، وزهدٌ في كلِّ إرادةٍ تُخالف مُراد المحبوب، وهذا إنَّما يحصلُ بكمال المُتابعة لرسول الحبيب.	١٤١-١٤٢	٣٧٤
ومن علاماتها: قلةُ صبر المحب عن المحبوب، بل ينصرف صبرُه إلىٰ الصبر علىٰ طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر علىٰ أحكامه، فهذا صبرُ المحب، وأما الصبرُ عنه؛ فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره قال: والصبرُ يُحمَد في المواطن كلِّها*وعن الحبيب فإنه لا يُحمَد	١٤٢	٣٧٥

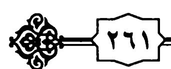
الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فكلُّ محبةٍ لغيره فهي عذابٌ علىٰ صاحبها، وحسرةٌ عليه إلا محبَّته، ومحبَّة ما يدعو إلىٰ محبَّته، ويُعينُ علىٰ طاعته، ومرضاته، فهذه التي تبقىٰ في القلب يوم تُبلىٰ السرائر.	١٥١	٣٩٢
فلا شيء أحلىٰ للمحبِّ الصادق من خلوته، وتفرُّده، فإنَّه إن ظفر بمحبوبه أحبَّ خلوته به، وكره من يدخلُ بينهما غاية الكراهة.	١٥١	٣٩٣
فإنَّ المحب يستأْنس بذكر محبوبه، وكونه في قلبه لا يُفارقه، فهو أنيسُه، وجليسه، لا يستأنسُ بسواه، فهو مستوحشٌ مِمَّن يَشْغَلُهُ عنه. وحدَّثني تقيُّ الدِّين بن شُقير، قال: خرج شيخُ الإسلام ابن تيمية يومًا، فخرجتُ خلفه، فلما انتهىٰ إلىٰ الصحراء، وانفرد عن الناس بحيثُ لا يراه أحد؛ سمعته يتمثَّل بقول الشاعر: وأخرُج من بين البيوت لعلَّني أحدِّث عنك القلب بالسِّرِّ خاليا	١٥٢	٣٩٣-٣٩٤
القلب حاملٌ، فما حمَّلته تحمَّل، فإذا حمَّلته الأثقال؛ حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلبُ الواسعُ يجتمع فيه التوجُّه إلىٰ الله سبحانه، وإلىٰ أمره، وإلىٰ مصالح عباده، ولا يشغله واحدٌ من ذلك عن	١٥٨	٤٠٦

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
الآخر، فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجهٌ في الصلاة إلىٰ ربه، وإلىٰ مراعاة أحوال من يُصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبي، فيخفف الصلاة خشية أن يشُقَّ علىٰ أُمه		
وإذا أراد الله بعبده خيرًا، سلَّط علىٰ قلبه - إذا أعرض عنه، واشتغل بحبِّ غيره - أنواع العذاب، حتىٰ يرجع قلبُه إليه، وإذا اشتغلتْ جوارحُه بغير طاعته؛ ابتلاها بأنواع البلاء.	١٦٥	٤٢٤
وهاهنا نوع من غيرة الربِّ تعالىٰ لطيفٌ، لا تهتدي إليه العقول، وهو: أنَّ العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصَّفاء والأُنس، والوجود، فيساكنُه، ويطمئنُّ إليه، وتلتذُّ به نفسه، ويشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحقُّ، فيخليه منه، ويرُدُّه حينئذٍ إليه بالفقر، والذِّلَّة، والمسكنة، ويُشهده غاية فقره، وإعدامه، وأنَّه ليس معه من نفسه شيء ألبَتَّة، فتعود عزَّةُ ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلةً، ومسكنةً، وفقرًا، وفاقةً، وذرَّةٌ من هذا أحبُّ إليه سبحانه، وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء، والأنس المجرّد عن شهود اليقين، وعن شهود الفقر، والذلَّة، والمسكنة. وهذا بابٌ لا يتسع له قلبُ كلِّ واحد.	١٦٦	٤٢٥-٤٢٦

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وقد أمر الله سبحانه عباده أن يذكروه علىٰ جميع أحوالهم، وإن كان ذكرهم إيَّاه مراتب، فأعلاها ذكرُ القلب، واللسان مع شهود القلب للمذكور، وجمعيتُه بكليته عليه بأحب الأذكار إليه، ثُمَّ دونه ذكر القلب واللسان، وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر، وبعضُها أحبُّ إلىٰ الله من بعض.	-	٤٣٠
والله تعالىٰ لا يُضيع أجر ذكر اللسان المجرَّد، بل يثيب الذاكر، وإن كان قلبه غافلًا، ولكن ثوابٌ دون ثواب.	-	٤٣٠
ثم ذكر القُشيريُّ من كلام الشِّبلي أنه قال: غيْرة الإلهية علىٰ الأنفاس أن تضيع فيما سوىٰ الله، وهذا كلامٌ حسن.	-	٤٣١
من سنَّة الحقِّ مع أوليائه: أنَّهم إذا ساكنوا غيرًا، أو لاحظوا شيئًا، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا يُشوش عليهم ذلك، فيغار علىٰ قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغةً، كآدم لما وطَّن نفسه علىٰ الخلود في الجنَّة؛ أخرجه منها، وإبراهيم الخليل لما أعجبه إسماعيل أمرهُ بذبحه، حتىٰ أخرجه من قلبه ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] وصفَّىٰ سرَّه منه، أمره بالفداء عنه. وقال بعضُهم: احذره، فإنه غيور، لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده سواه.	-	٤٣٢

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثةُ أنواع: غيرةُ العبد لربِّه أن تُنْتهك محارمُهُ، وتُضيَّع حدودُه، وغيرتُه علىٰ قلبه أن يسكن إلىٰ غيره، وأن يأْنس بسواه، وغيرتُه علىٰ حُرْمتِه أن يتطلَّع إليها غيره. فالغيرةُ التي يحبُّها الله ورسولُه دارت علىٰ هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما من خُدَع الشيطان، وإما بلوىٰ من الله، كغيرة المرأة علىٰ زوجها أن يتزوَّج عليها.	١٦٨	٤٣٧- ٤٣٨
وقد ذكر الله سبحانه عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًّا، والشباب مركب الشهوة. وكان عزبًا، ليس عنده ما يعوِّضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع. وكان في صورة المملوك، والعبدُ لا يأنفُ مما يأنفُ منه الحرُّ. وكانت المرأة ذات منصبٍ وجمالٍ، والداعي مع ذلك أقوىٰ من داعي من ليست كذلك، وكانت هي المطالبة، فتزول بذلك كُلْفةُ تعرُّض الرَّجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع	١٧٠	٤٤٢- ٤٤٣

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
الطلب الرغبةُ التامَّةُ والمراودةُ التي يزولُ معها ظنُّ الامتحان والاختبار؛ ليعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سُلطانها وبيتها، بحيث تعرف بحال وقت الإمكان ومكانه الذي لا تنالُه العيونُ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب؛ لتأمن هجوم الدَّاخل علىٰ بغتةٍ، وأتته بالرَّغبة، والرَّهبة، ومع هذا كلِّه فعفَّ لله، ولم يُطِعْها، وقدَّم حقَّ الله، وحقَّ سيدها علىٰ ذلك كلِّه، وهذا أمر لو ابْتُليَ به سواه؛ لم يُعْلَم كيف كانت تكون حالُه.		
كان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثَّل بهذين البيتين: تفنىٰ اللَّذاذةُ مِمَّنْ نالَ صفوتها*منَ الحرام ويبقىٰ الوزر والعارُ تبقىٰ عواقبُ سوءٍ في مغبَّتها*لا خيرَ في لذَّةٍ منْ بعدها النَّارُ	١٧٤	٤٥٧
وتأمل قوله تعالىٰ في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وفي السيئة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] فإن لفظ الكفل يُشعر بالحمل، والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظّ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كلٌّ منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما؛ حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب، وحظ الشر بالكفل.	١٩٣	٥١٥



الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] قيل: هو العبد يهوىٰ المعصية، فيذكر مقام الله عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة، فيتركها لله.	١٩٩-٢٠٠	٥٤٤
وقد أقسم النبي ﷺ: أنهُ «لا يؤمن العبد حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به»، فيكون هواه تابعًا، لا متبوعًا، فمن اتبع هواه؛ فهواه متبوعٌ له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول ﷺ فهواه تابعٌ له، فالمؤمن هواه تابعٌ له، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له.	٢٠١	٥٤٨
قيل لأبي القاسم الجنيد: متىٰ تنال النفوس مُناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواءها، فقيل له: ومتىٰ يصير داؤُها دواءها؟ فقال: إذا خالفت هواها. ومعنىٰ قوله: يصير داؤها دواءها: أن داءها هو الهوىٰ، فإذا خالفته؛ تداوت منه بمخالفته.	٢٠١	٥٤٩
الهوىٰ ثلاثة أرباع الهوان	٢٠١	٥٤٩
وأمَّا الرّغبةُ في الله، وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلىٰ لقائه؛ فهي رأْس مال العبد، وملاكُ أمره، وقوامُ حياته الطيبة وأصلُ سعادته، وفلاحه، ونعيمه، وقُرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمر، وبذلك أُرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب، ولا نعيم إلا بأن تكون رغبتُهُ إلىٰ الله ﷻ وحده.	٢٠٢	٥٥٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
والرَّاغبون ثلاثةُ أقسام: راغبٌ في الله، وراغبٌ فيما عند الله، وراغبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومن كان رغبتُه في الله؛ كفاه الله كلَّ مهم، وتولاه في جميع أُموره، ودفع عنه مالا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومن آثر الله علىٰ غيره؛ آثره الله علىٰ غيره. ومن كان لله؛ كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله؛ لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منه، ولم تبق له رغبةٌ فيما سواه، إلاَّ فيما يُقرِّبه إليه، ويعينه علىٰ سفره إليه.	٢٠٢	٥٥٠
العارف أنِسَ بالله، فأوحشه من غيره، وافتقر إلىٰ الله، فأغناه عن خلقه، وذلَّ لله، فأعزَّهُ في خلقه.	٢٠٣	٥٥٢
وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبدًا، ومتىٰ واطأ اللسانُ القلب في ذكره، واطأ القلبُ مراد الحبيب منه، واستقلَّ له الكثير من قوله، وعمله، واستكثر له القليل من بره ولطفه، وعانق الطاعة، وفارق المخالفة، وخرج عن كله لمحبوبه، فلم يبق له منه شيءٌ، وامتلأ قلبه بتعظيمه، وإجلاله، وإيثار رضاه، وعز عليه الصبر عنه، وعدم القرار دون ذكره والرغبة إليه، والاشتياق إلىٰ لقائه، ولم يجد الأُنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره علىٰ غيره؛ فهو المحب حقًا.	٢٠٣	٥٥٢

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وقال أبو بكر الكتَّاني: جرت مسألةٌ في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي! فأطرق رأْسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهبٌ عن نفسه، مُتَّصل بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوارُ هويته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله. فهو بالله، ولله، ومع الله، فبكىٰ الشيوخ، وقالوا: ما علىٰ هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين! وأجمع العارفون كلهم: أن المحبة لا تصحُّ إلا بالموافقة، حتَّىٰ قال بعضهم: حقيقة المحب موافقة المحبوب في مراضيه، ومساخطه، واتفق القوم: أن المحبة لا تصحُّ إلا بتوحيد المحبوب.	٢٠٤	٥٥٣-٥٥٤
المحبة شجرةٌ في القلب، عروقها الذلُّ للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانُها خشيتُه، وورقُها الحياء منه، وثمرها طاعته، ومادَّتها التي تسقيها ذِكْرُه، فمتىٰ خلا الحبُّ عن شيءٍ من ذلك؛ كان ناقصًا.	٢٠٥	٥٥٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن: أن الحبيب لا يعذِّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [المائدة: ١٨].	٢٠٩	٥٦٤
وإذا كانت القلوب مجبولةً علىٰ حُبِّ من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلىٰ العبد فمن الله ﷻ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأمَ ممَّن شغل قلبه بحب غيره دونه.	٢٠٩	٥٦٦
ومن أسمائه الحسنىٰ: الجميلُ، ومَنْ أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعته، فلهُ جمال الذَّات، وجمالُ الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلُّها حُسْنىٰ، وصفاتُه كلُّها كمالٌ، وأفعالُه كلُّها جميلةٌ.	٢١١	٥٦٨
وقف رجل علىٰ الشِّبليِّ، فقال: أيُّ الصَّبر أشدُّ علىٰ الصابرين؟ قال: الصبر في الله. فقال السَّائل: لا! فقال: الصَّبر لله. قال: لا! قال: فالصَّبر مع الله. قال: لا! قال: فما هو؟ قال: الصبرُ عن الله.	٢١٤	٥٨٩

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
الخوفُ يبعدك عن معصيته، والرَّجاء يحركك إلىٰ طاعته، والحبُّ يشوقك إليه شوقًا. لمَّا علم الله - سبحانه - أنَّ قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلَّا بلقائه؛ ضرب لهم أجلًا لِلِّقاء؛ سكنًا لقلوبهم، فقال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].	٢١٤	٥٨٩
المحبُّ الصادق كلَّما قرب من محبوبه؛ زاد شوقًا إليه. وأعظمُ ما يكون الشوقُ يومًا*إذا دنت الخيامُ من الخيام	٢١٥	٥٨٩
أقرُّ شيءٍ لعين المحبِّ خلوته بسرِّه مع محبوبه. حدَّثني من رأىٰ شيخنا عُنْفُوان أمره، خرج إلىٰ البريَّة بكرةً، فلمَّا أصحر؛ تنفَّس الصُّعداء، ثمَّ تمثَّل بقول الشاعر: وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني أُحَدِّثُ عنك القلبَ بالسرِّ خاليا الشوق يحمل المحبَّ علىٰ العَجَلة في رضا محبوبه، والمبادرة إليها علىٰ الفور، ولو كان فيها تَلَفُه. ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤].	٢١٥	٥٩٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قال الجنيد: سمعت السَّريَّ يقول: الشوق أجلُّ مقام العارف؛ إذا تحقَّق فيه، وإذا تحقَّق بالشوق؛ لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشتاق إليه.	٢١٦	٥٩٢
وكانت عجوزٌ لها غائبٌ، فقدم من السَّفر، فأظهر أهلُها الفرحَ والسُّرورَ به، فجعلت تبكي، فقيل لها: ماهذا البكاء؟ فقالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتىٰ يوم القدوم علىٰ الله.	٢١٦	٥٩٣
قال ابن أبي الحواري ﵀: سئل أبو سليمان الدَّاراني - ﵀، وأنا حاضرٌ -: ما أقربُ ما يُتقرَّب به إلىٰ الله ﷿؟ فبكىٰ، ثمَّ قال: مثلي يُسْأل عن هذا؟ أقربُ ما يُتَقرَّب به إليه: أن يطَّلع علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة إلَّا هو. وقال يحيىٰ بن معاذ: النُّسكُ: هو العناية بالسَّرائر، وإخراج ما سوىٰ الله من القلب. وقال سهل: من نظر إلىٰ الله ﷿ قريبًا منه؛ بَعُد عن قلبه كل شيء سوىٰ الله، ومن طلب مرضاته أرضاه الله ﷻ ومن أسلم قلبه إلىٰ الله؛ تولىٰ الله جوارحه.	٢١٦	٥٩٣-٥٩٤
وسئل بعضهم عن أفضل الأعمال؛ فقال: رعايةُ السِّرِّ عن الالتفات إلىٰ شيءٍ سوىٰ الله ﷿.	٢١٦-٢١٧	٥٩٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان، ودونها: العقوبة بموت القلب، ومحو لذَّة الذِّكر، والقراءة، والدُّعاء، والمناجاة منه، وربما دبَّت عقوبة القلب فيه دبيبَ الظلمة إلىٰ أن يمتلئ القلب بها، فتعمىٰ البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن في الدُّنيا، وأهونُ منها ما وقع بالمال، وربَّما كانت عقوبة النظر في البصيرة، أو في البصر، أو فيهما. وقال الفضيل: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالىٰ بعمل مقتك عليه، فأغلقَ عنك أبواب المغفرة؛ وأنت تضحك؟ وقال ابن عباس، وأنسٌ رضي الله عنهم: إنَّ للحسنة نورًا في القلب، وزينًا في الوجه، وقوَّة في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنَّ للسيئة ظلمة في القلب، وشينًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرِّزق، وبغضةً في قلوب الخلق.	٢١٧-٢١٨	٥٩٤-٥٩٥
وقال الحسن: هانوا عليه، فعصوه، ولو عزُّوا عليه؛ لعصمهم.	٢١٨	٥٩٦
وقال أبو سليمان الداراني: من صفا صُفِيَ له، ومن كدَّر كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليله، كُفِيَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره؛ كُفِيَ في ليله، ومن ترك لله شهوةً من قلبه؛ فالله أكرمُ أن يُعَذِّب بها قلبَه.	٢١٨	٥٩٦

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
أنَّ النَّبي ﷺ قال: «رأيت الليلة: رجلان أتياني، فأخرجاني، فانطلقت معهما، فإذا بيتٌ مبنيٌّ علىٰ مثل بناء التَّنُّور، أعلاهُ ضيِّقٌ، وأسفلُهُ واسع، يوقد تحته نار، فيه رجالٌ ونساءٌ عُراة، فإذا أوقدت النار؛ ارتفعوا حتَّىٰ يكادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، فقلت: ما هؤلاء؟ قال: هم الزُّناة». فتأمَّل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا، فإنَّه كلَّما همُّوا بالتوبة والإقلاع، والخروج من تنُّور نار الشهوة إلىٰ فضاء التوبة؛ أُركسوا فيه، وعادوا بعد أن كادوا يخرجون.	٢١٩	٥٩٧
فلا يركن العبد إلىٰ نفسه، وصبره، وحاله، وعفَّته، ومتىٰ ركن إلىٰ ذلك تخلَّت عنه عصمة الله، وأحاط به الخذلان. وقد قال تعالىٰ لأكرم الخلق عليه، وأحبِّهم إليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ولهذا كان من دعائه: «يا مقلِّب القلوب! ثبِّت قلبي علىٰ دينك»، وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلِّب القلوب!». كيف وهو الَّذي أُنزِل عليه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].	٢٢٥	٦١٧-٦١٨
وليعلم اللَّبيبُ أن مدمني الشَّهوات يصيرون إلىٰ حالةٍ لا يلتذُّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنَّها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الَّذي لا بُدَّ لهم منه.	٢٣٠	٦٣١